شاكر عبد الجبار

المنهج العلمي للاعتقاد

من عانى مخاطر التيه
وبؤس الباطل ووحشة الدنيا
يكون أحوج لأمن الهدى
وعز الحق وأنس الوجود
فإليه معالم سبيل الخلاص..!

الطبعة الاولى ـ آذار ١٩٨٤

الناشر
مكتبة القدس
بغداد
شارع المتنبي

مطبعة الخلود
بغداد
هاتف ٨٨٨٢٧٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم »

الآية ٩ سورة الإسراء

«قد جاءكم بصائر من ربكم
فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها»

الآية ١٠٤ سورة الأنعام

إهـداء

إلىٰ كل إنسـان صادق النيـة
ينشـد باخـلاص ودأب وضع
خطـاه علىٰ بيـنـة في أقـوم
السبـل ، أقـدم هذا الكتـاب
قبس نور بأذن الله تعـالىٰ .

المقدمة

المفهوم القرآني لمنهج التماس المعتقد

الإنسان مفطور على الإيمان بمعتقد يصبغ حياته ويوجهها في مسار خاص نحو هدف معين ، وكثيراً ما يلح هذا الأمر عليه في مقتبل العمر حتى يكون بناؤه اللاحق كله خاضعاً بكل تفاصيله لحكم وتوجيه ذلك المعتقد إذ أن أي إنسان ينشد في العادة أن يكون معتقده حقاً وليس باطلاً ويبغيه صواباً وليس خطأ وكذلك رصيناً وليس مهزوزاً .

وإذا ترك الإنسان بمفرده دون مساعدة من أحد لا يمكنه الوصول إلى معتقد بتلك السمات في وقت مبكر هذا إذا لم يجرفه معتقد باطل ويستولي عليه ويستبد بأمره صارفاً إياه عن التطلع إلى المعتقد الحق الواضح الرصين .

وقد تسألني :

هل إن المعتقد الحق الواضح الرصين له علامات يتفق عليها الجميع حيث ما أن يراه الإنسان حتى يهتف من اعماق نفسه أن هذا بغيتي المنشودة . . ! ؟

هذا المعتقد - كما أرى - موجود بالفعل ، ولكني لا أريد أن أدخل إليه هنا من هذا الباب وإن كان واسعاً مراعاة لوضع غير المؤمنين به حتى يتسنى لهم الانقياد إليه من باب أخرى انقياد المستميت من أجل أعز ما يملك .

كيـــف . . ؟

المعتقد الحق الواضح الرصين موجود بالفعل ممثلاً بعقيدة التوحيد الإلهي ولكننا سندع الولوج إلى هذا المعتقد أولاً لنتعرف في البداية على المنهج الكفيل حقاً بإيصال الإنسان إلى أحق المعتقدات وأوضحها وأرصنها ولنتحقق من قدرة المنهج وادواته ونتبين أهميته في ابتغاء المعتقد الامثل .

ومن هذا يظهر لنا أن منهج البحث عن المعتقد تأتي أهميته قبل أهمية المعتقد ذي الكمال المنشود ، فعلى مقدار صحة منهج البحث وتكامل مفرداته وعلى مقدار انضباط السير وفقه يكون وزن المعتقد الذي نتمناه من حيث الحق والوضوح والرصانة .

وللتمثيل دعنا نتساءل :

هل إن المعتقد المتلقى عبر مجاراة صديق أو مراعاة مزاج أو حرصاً على نفع آني تافه أو دفعاً لضرر عارض بسيط أو المتحصل كيفما اتفق يمكن اعتباره كالمعتقد المتلقى عبر شمول التصور لكل الحياة وما بعد المهات وتناول اجزاء المعتقد بتمحيص شديد تمريراً عبر النظر العقلي العليم المتأني ومحاكمة لها في ضوء المعارف الواسعة المعول عليها في هذا المجال . . ! ؟

فرق هائل بين معتقد يتحصل كما يتحصل موضع القشة وسط التيار الجارف ومعتقد يتحصل كما يتحصل موضع السفينة على سطح المياه تتهادى فوق أمواج ساكنة . . ! !

هل يصح أن يزعم محاكي القشة في اتخاذ موضعها النهائي أن ما آل إليه من معتقد في الحياة هو قدره الذي لا مفر منه ولا خلاص . . ! ؟

أي قدر هذا . . ! ؟

هل يرضىٰ أن يساوي نفسه في اتخاذ معتقده النهائي بالقشة التي يقهرها التيار فيجرفها إلىٰ الموضع الذي يريده هو بلا حساب وتقدير . . ؟

بل القشة في هذا الامر أحسن منه حالاً إذ لو كانت مزودة بما زود به الإنسان المتشبه بها من قوىٰ وإمكانات وعزائم لكان وضعها أشبه بوضع السفينة في السير الهادئ المتمكن الهادف إلىٰ ابتغاء شاطئ السلامة مهما كان بعيداً مادام الربان يمضي بسفينته وفق خارطة ترسم المسار ومادام واثقاً من اقتدار السفينة . . !

والتزاماً بالإختصار الجميل وحتىٰ لايتشعب بنا القول لا أريد أن أخوض في طرائق ابتغاء المعتقد لدىٰ غير المؤمنين بالله تعالىٰ لأن شأنهم معروف لأكثرية الناس ، وطريقة أي منهم في اتخاذه المعتقد لا تتبرأ من أحد هذه المداخل :

أولاً ـ مجاراة صديق .

ثانياً ـ مراعاة مزاج .

ثالثاً ـ طلب نفع آني تافه .

رابعاً ـ دفع ضرر عارض بسيط .

خامساً ـ كيفما اتفق كالقشة في مهب الريح .

وإنما سأتعرض للمنهج الذي رسمه الخالق عزوجل للإنسان في التماس المعتقد الحق الواضح الرصين ، ولنا أن نقارن به مع الأحوال البشرية ونرىٰ من ثم أي منهج بمقدوره أن يقود الإنسان بجدارة إلىٰ أسمىٰ العقائد بعلمية وأمانة وواقعية .

القرآن الكريم حقاً إنه كتاب أنزله ربنا ليكون نظام حياة كامل ولكنه لم ينزل ليأخذه البشر بلا تفكير ودون تبصر قهراً لأداء لوازم العبودية لرب العالمين وإنما تضمن منهجاً في التماس العقيدة لم ولن تعرف الدنيا له مثيلاً في تكوينه مهما أوتي البشر من علوم ورقي وحضارة ، ومن هنا الفرق بين منهج يبدعه خالق الإنسان ومنهج يختطه المخلوق وهو لم يستدبر ويستقبل من أمره شيئاً . . !

ووجود هذا المنهج في القرآن الكريم هو رحمة وخير دليل لضعاف الناس ليسيروا في الدرب الصحيح علىٰ بصيرة حيث لا يتخطفهم شياطين الإنس والجن ويتقاذفونهم ذات اليمين وذات الشمال بهدف تضليلهم واحتواء طاقاتهم واستخدامها في مجالات الشر والباطل ومحاربة الخير والحق .

إن وجود منهج علمي لالتماس المعتقد الحق الواضح الرصين مضمناً في ثنايا القرآن الكريم جد ضروري لانه خير مقدمة تحضر الإنسان لتلقي أروع معتقد أبدع من قبل رب العالمين تضمنه كذلك الكتاب إياه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وتضمن كتاب الله لمنهج التماس المعتقد الأمثل إلىٰ جانب العقيدة المثلىٰ أشبه بأن يجد الإنسان علىٰ الساحل سفينة ذات ربان ودليل يقرر أن يجتاز علىٰ ظهرها البحر المتلاطم بأمان فهو قبل أن يعتليها أو بعد أن يستوي عليها لا يندم لأنه اختارها هي وعاف جذوع الاشجار التي يستخدمها البعض كما هي في ركوب المياه طلباً للنجاة أو التماساً للانتقال إلىٰ جهة أخرىٰ بعيدة . . !

وليس ذلك بشيء كبير علىٰ الله تعالىٰ خالق الإنسان وخالق الحياة ومبدع كل ماخلقه في الكون العظيم بل إنه شيء معجز لسواه من خلقه العاجزين عن ايجاد ورقة يابسة ، فلا يعرف الإنسان أحد كما يعرفه الخالق ولا يحيط بالحياة أحد كما يحيط بها البارئ سبحانه .

ما هي خصائص المنهج القرآني للإيمان بالعقيدة المثلىٰ . . ؟

الأولىٰ ـ العلم . . أن تتوفر للإنسان حصيلة من العلم ترتقي بعقله ليكون جيد الفهم حسن الإلتقاط مصيب الإستنتاج ، فالقرآن لا يريد إنساناً يستغفل بما يطرح عليه من افكار وقضايا وأغراض وإنما يريده ذا عقل فطن عني صاحبه طويلاً بتعريضه للعلم واكتساب الخبرة ليكون مؤهلاً لتلقي عقيدة الوجود المثلىٰ راسخاً لا يتزعزع أمام التيارات الضالة وإنما يعرف أقدار كل ما يواجهه ليدحض الباطل عن بينة ويقيم للحق أثبت بناء وأشمخه علىٰ بينة أيضاً . . !

وأختار هنا نماذج مما انتشر في طول القرآن وعرضه عن مستوىٰ العلم المناسب(١) لتلقي الخطاب القرآني وفهمه علىٰ أفضل الوجوه حتىٰ يمكن لكلام الله

---

(١) ـ إن أول كلمة ألقاها أمين الوحي الكريم جبريل علىٰ سيدنا محمد ﷺ كانت « إقرأ » ولا يخفىٰ علىٰ العاقل البصير أهمية مدلول الكلمة في مجال العلم ، ويقول له أيضاً في الآيات الأولىٰ نزولاً « إقرأ وربك الأكرم . . الذي علم بالقلم . . علم الإنسان ما لم يعلم »=

أن يأخذ مداه كاملاً بين الناس فتتأدىٰ الرسالة التي أراد ربهم أن ينهضوا بكل اعبائها علىٰ أحسن ما بمقدورهم أن يفعلوه :

يقول تعالىٰ «**وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون**»(٢) .

حدود الحلال والحرام التي اختطها الشرع الإلهي إنما يتبين أمرها لقوم أوتوا بصائر من العلم وليس لقوم جهلة يتلقون وحي الله كيفما تأدىٰ بسبب اعتلال أفهامهم

= ويمكنك أن تلاحظ بسهولة ووضوح في هذه الآيات وهي أوائل سورة العلق أن الرسالة العظمىٰ قد تقدمها طلب القراءة وتمجيد العلم ، وهذا أدل إشارة علىٰ أن تعاليم الرسالة إياها جاءت ومنذ البداية تخاطب ذوي العلم لأنها لا تنبت في تراب الجهالة ولا تعيش . . !

والأهم من هذا كله يتبين لنا كذلك أن أولىٰ ملامح المنهج العلمي القرآني قد وردت في الكلمات الأولىٰ من وحي الله المتضمن خاتمة الرسالات ، بل وقبل أن ينبأ الرسول عليه الصلاة والسلام بفحوىٰ الرسالة ويوقف علىٰ تفاصيلها . . !

وقد تشكل أمية الرسول ﷺ علىٰ البعض فيتساءل : لم لم يبعث بالرسالة إذن رجل قد بز أهل زمانه طراً بالتحصيل العلمي . . ؟

أولاً ـ أن يبعث رجل أمي برسالة تكبر شأن العلماء كالإسلام فهذا قمة الإعجاز لأنه يفهمنا بيسر أنها تدبير إلهي .

ثانياً ـ إن الرسول ﷺ بعد إكرامه بالوحي المتواتر عليه في كل شأن يعني الرسالة هو « وما ينطق عن الهوىٰ » الآية ٣ سورة النجم ، فلا يتحدث جزافاً حاشاه وإنما يعبر عن تفاصيل عقيدة احكمها رب السماوات والارض .

ثالثاً ـ إن بقاء الرسالة وهي قرآن وسنة تخاطب الناس إلىٰ يوم القيامة وفيهم أساطين العلوم في مختلف شؤون الدين والدنيا وتنتزع منهم الإعجاب الشديد لهو برهان ساطع علىٰ أن أمية الرسول إعجاز إلهي مقصود لدفع شبهات عديدة في مقدمتها اتهام الرسول باختراع الرسالة واعدادها ، فهو ﷺ رغم اميته المعلومة قد تقول عليه المغرضون بمثل أن الرسالة من تدبير بشري فكيف لو كان المبعوث بها ﷺ معروفاً بتحصيل العلوم طوال الأربعين عاماً من حياته قبل أن يبعث . . ! ؟

(٢) ـ الآية ٢٣٠ سورة البقرة .

وانحرافها لأنهم حرموا أنفسهم من نور العلم وارتضوا أن لا يرتفعوا إلىٰ مقام الآدمية السوي مشاكلة للسوائم . . !

ويقول تعالىٰ «**قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون**»(٣) .

بالعلم يقف الإنسـان علىٰ آيـات ربـه البينـات ويتلقـاها باستيعاب كامل حسن لأنهـا معجـزات ربـانيـة وليست شيئاً ضئيـل الشأن ويأخـذها باحترام شديد وإجلال لإنها تستمد قدسيتها من الله تبارك وتعالىٰ .

ويقول تعالىٰ «**ويجعلون لما لايعلمون نصيباً مما رزقناهم**»(٤) .

هكـذا يتخبـط الجهلة في عشـواء ، الله تعـالىٰ يتفضل عليهم بأجل النعم وأجـزلهـا فيأبىٰ عليهم الجهـل الاعـتراف لربهم وحده بالفضل وشكرانه علىٰ ما أنعم به ، بل إنهم يقـدمـون الكثير من هذه النعم إلىٰ أصنام لا تدفع ضراً ولا تجلب نفعاً معتقـدين أنهـا جديـرة بالتقـرب إليهـا وإن كانت الخيرات التي بين أيديهم قد جاد بها عليهم خالقهم . . !

ويقول تعالىٰ «**هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون**»(٥)

العلماء الذين ارتقوا بآدميتهم إلىٰ المقام السوي بعد أن تعرضوا لنور العلم فحسنت سرائرهم وتجودت أفهامهم وارتفعت غاياتهم فراحوا يقرؤ ون صفحة الكون المحيـط بهم كلمـة كلمـة وسطـراً سطراً دون لبس أو إشكال فامتلأت قلوبهم بقدسية

---

(٣) - الآيـة ٩٧ سـورة الأنعام .

(٤) - الآيـة ٥٦ سـورة النحـل .

(٥) - الآيـة ٩ سـورة الزمـر .

الخـلاق العظيم مما أهلهم لأن يفقهـوا كلام الله على أفضـل الـوجـوه ، هؤلاء كيف يستوون مع الجهلاء حارمي أنفسهم من العلم وفضائله المرتضين لحياة أحط مما عليه الأنعـام الـذين يأبـون بصلف وسخافة إلا العيش في دياجير الجهل غير مبالين بأوخم العواقب في الدنيا والآخرة . . ! ؟

ويقول تعالى «**إنما يخشى الله من عباده العلماء**»(٦) .

ذلك لأن العالم المؤمن يعرف قدر نفسه كما ينبغي ويعرف الكثير من أفضال الله على الخـلائق ويفهم من أحـوال الكـون والخلق والإبـداع والتدبير ما يجعله يكبر شأن الخـلاق العظيم ويعبـده على يقـين راسـخ ومن بعـد يقوم بين عباد الله بوظائف التبصير البليغ بسنن الهدى والتوجيه الحاني للشارد والضال والتقويم السديد للجماعة والأفراد ، وهذا دور في الحياة يقارب فعل الأنبياء والرسل الذين هم صفوة الخلق . . !

وبعد أن مضى خاتم الرسل والأنبياء عليه وعليهم افضل الصلاة والسلام إلى ربه تاركاً وراءه القرآن والسنة بصائر للناس تظهر لنا أهمية الدور الملقى على عاتق العلماء المسلمـين لاسيما في أزمنـة يكـون فيهـا لسلطـان العلم فصل الخطاب ، فمن نهض منهم بمسـؤوليـة الإمسـاك بنـاصيـة العلم وعمل به اخلاء للطريق أمام عقيدة التوحيد الإلهي يكون قد خشي الله تعالى بالفعل ونائلاً أرفع الدرجات في الدنيا والآخرة . . !

ويقـول تعـالى «**ثم جعلنـاك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون**»(٧) .

الله عز وجل قد أنزل خاتمة الشرائع كاملة آياتها محكمة وليل ملتزمها كنهاره ضيـاء وهـدى ، ولـذلك لا ينبغي بدل اتباعها الاصغاء لذوي الأهواء الجاهلين . .

---

(٦) ـ الآيـة ٢٨ سـورة فاطـر .

(٧) ـ الآيـة ١٨ سـورة الجاثية .

جهالة هؤلاء وسيطرة الهوىٰ عليهم تجعل العالم البصير لا يلتفت لمقترحاتهم لا سيما بعد ان وجد في شرع الله بين يديه تبياناً لكل شيء .

إنه تذكير رباني لرسوله ومن خلاله لجميع المسلمين لأن ذلك الإتباع لذوي الأهواء الجاهلين قد يحصل من بعض العباد علىٰ طول الشوط الممتد إلىٰ يوم القيامة ، بل إنه حصل ولفترات طويلة والعياذ بالله ، وما زال هذا التذكير الرباني محتفظاً بكل الوجاهة وسيبقىٰ كذلك إلىٰ انتهاء الحياة الدنيا . . !

لقد جاء الفعل علم ومشتقاته في القرآن الكريم في أكثر من ثمانمئة موضع حيث يدعو العليم الحكيم عباده إلىٰ التزام سبيل العلم بما يمكنهم من التحقق والتثبت والإقتناع مشيراً إلىٰ أن المهتدي بنور العلم ليس كمن يخبط في ظلمات الجهل والظن والرجم بالغيب(٨) .

ولما كان العقل قرين العلم والمستنير بهديه فلنقرأ نماذج قرآنية أخرىٰ عن الإهتمام بالعقل لنلاحظ المكانة التي يراد ان يبلغها حتىٰ يمكنه استيعاب المتلقىٰ عن خالق العقل ورب العقلاء باعتبار أن هذا المتلقىٰ هو أجل وأسمىٰ وأعظم ما في الوجود من كلام إطلاقاً :

يقول تعالىٰ «**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**»(٩) .

أرأيت كم في هذه الآية من ملامح كونية وعمليات حياتية ونعم عظيمة جعلها الله في خدمة الناس . . ! ؟ إن هذه الملامح والعمليات والنعم لا يعرف

---

(٨) - سنتناول في المواضيع اللاحقة صورة أوسع عن العلم اللائق بالإنسان كما هي مبثوثة في سور القرآن .

(٩) - الآية ١٦٤ سورة البقرة .

قدرها ويدرك وجه الإعجاز فيها ويلمس مدىٰ فضل الله علىٰ عباده بها إلا قوم يعقلون ذوو عقـول متمكنـة من العلم أي ممن لا يضـربـون أخمـاساً بأسداس رجماً بالغيب ثم يزعمون بعد ذلك مثلاً أن الأرض محمولة علىٰ قرن ثور . . ! !

ويقول تعالىٰ «**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينـا عليـه آبـاءنـا أو لو كان آبـاؤهم لا يعقلون شيئـاً ولا يهتـدون . . ومثـل الـذين كفـروا كمثـل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون**»(١٠) .

أرأيت أي زراية يحشر هؤلاء أنفسهم فيها لأنهم لا يعقلون . . ! ؟
إنهم يعرضون عما أنزل الله لأنهم لا يعقلون . . !
وينكبون علىٰ ضلالات آبائهم لأنهم لا يعقلون . . !
ومثل الكفار كالبهائم تسمع صوت راعيها ولا تفهمه ذلك لأنهم لا يعقلون . . !

ويقول تعالىٰ «**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في اصحاب السعير**»(١١) .

قالوا لو كنا نسمع فنفهم أو نعقل متدبرين لما كان مصيرنا إلىٰ السعير . . !
الآن بعد أن لفحتكم النار أدركتم فداحة الخطأ . . ! ؟

---

(١٠) ـ الأيتان ١٧٠ و ١٧١ سورة البقرة .
(١١) ـ الايـة ١٠ سـورة الملك .

أين كنتم إذن . . ! ؟
لقد فات الأوان . . !

«فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير»(١٢) .

ويقول تعالىٰ «**وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمو ن**»(١٣) .

الأمثال التي ضربها الله للناس في كتابه المجيد عديدة تسقط علىٰ قلب العاقل العالم المتدبر فتسقيه الغيث الزلال وتورق لديه وتزهر ، وإنها تفصل بين النور والظلمة كسيف الفجر يزيح فحمة الليل ويستقدم وهج النهار ، وهذه الامثال التي أودع الله فيها البلاغة والإعجاز والهدىٰ إنما يعرف قدرها أناس ما هرون لهم ألباب تعقل جيداً وعلوم تسبر العميق وتلتقط البعيد وتنتقي النفائس ، أما الجهلة ذوو العقول البليدة فلا قدرة لهم علىٰ التمييز بين اللؤلؤ والحصىٰ ، ولذلك فإن الخطاب القرآني قد تجاوز هؤلاء الهمل عندما حدد في الأية «وما يعقلها إلا العالمون» . . !

أمثال كثيرة أوردها الله في القرآن ليستهدي بها ذوو العقل والعلم فعلىٰ مثل هذا الطراز البشري حقيق أن تتنزل الهداية فيغشاهم نور الله فإذاهم يبصرون وسط أحلك الظلمات التي ينسحق تحت ويلاتها الجهلة ومكبلو العقل بالشهوات والأهواء ومعطلو مفعولَ العلم لأجل ثمن بخس زهيد .

لقد وردت الاشارة إلىٰ العقل في القرآن الكريم في خمسة وستين موضعاً ووردت عبارة «الألباب» في ستة عشر موضعاً مسبوقة بـ «أولو» أو «اولي» ووردت عبارة «أفلا تعقلون» في ثلاثة عشر موضعاً ، لقد جاء هذا الإهتمام كله بالعقل إكباراً لشأنه وتنويهاً بأقدار العقلاء وإمكاناتهم في انتهاج السبيل السوي والإبتعاد عن الضلال ،

---

(١٢) - الاية ١١ سورة الملك .

(١٣) - الآية ٤٣ سورة العنكبوت .

والأهم من ذلك استعدادهم للتلقي عن الخالق أرقىٰ عقيدة عرفها الوجود[١٤] .

الثـانيـة ـ التدبر . . إن العلم وحده لا يكفي فمعلوماته اذا لم يتدبرها المرء تكون أشبه بكتاب علىٰ الرف لا ينتفع به أحد ، وكذلك شأن العقل بدون تدبر إنه لا يعي ولا يفقه إلا بتأثير الشهوات وفي إطار الأهواء . . ولذلك نلاحظ القرآن بعد أن يوجه الإنسان وجهة العلماء ويجعله يرتقي بعقله ليكون لائقاً بالعقيدة المثلىٰ يحثه علىٰ التـدبـر حتىٰ يمحص الأشيـاء جيداً ويقف علىٰ قيمها الحقيقية ومن ثم يصطفي منها الأصلح لشأنه .

وأختار هنا نماذج قرآنية عن التدبر وأهميته لتلقي كلام الله واستيعاب ما فيه من قيم بل وضرورته لفهم كل ما في الوجود كما ينبغي واعطائه ما يستحق من القيمة والإهتمام :

يقـول تعـالىٰ **«أفـلا يتـدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»**[١٥] .

أفلا يتأملون كلام الله وهو ما هو من الحكمة والرقي والكمال فلا شك أنهم لو قارنوه مع كلام المخلوقين لوجدوا أن كلام الله ينطوي علىٰ اعجاز كخلق الإنسان الذي لا يقدر عليه إلا رب العالمين ولوجدوا كلام البشر إزاءه لا يساوي شيئاً يذكر . . !

فمن له العلم والعقل والتدبر لا محالة يقف عند القرآن طويلاً ويمحضه بعد الدراسة اعمق الإيمان وأخلصه حتىٰ يملك عليه كل شيء ولا يجد بديلاً في سواه مهما بلغ به الشأن في طول هذا الوجود وعرضه . . !

وكلما كنت خبيراً بكلام المخلوقين ممعناً النظر بكلام الخالق سبحانه يتجلىٰ أمـامـك الفـارق الهائل بينهما حيث تجد كلام الإنسان مهما أوتي من اقتدار علمي يخلو

---

(١٤) ـ هناك تناول قرآني أوسع لموضوع العقل الإنساني سنتابعه لاحقاً بالتفصيل .

(١٥) ـ الآيـة ٨٢ سـورة النسـاء .

من العصمـة ولا يمتنـع علىٰ الـزلـل والاضطراب والسهو والجفاء ، فيما تجد كلام الله تعالىٰ قمة الإحكام والكمال والرواء والإعجاب علىٰ تعاقب الأجيال وتوالي العصور .

ويقول تعالىٰ «**أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين**»(١٦) .

أفلم يتـدبـروا القـرآن هذا الكتـاب الـزاخر بالأدلة والبراهين والحجج التي تستلفت العقـول الصحيحـة بكـل ما تمتلئ به من علوم وقـدرة علىٰ الفهم الـدقيق الثاقب . . ؟ إن كانت عقولهم بهذا المستوىٰ فهي لا شك تجد فيه ضالتها ولا تمر عليه بغير اكتراث أما إن لم تقابله بما يستحقه من الإهتمام ولم تتجاوب معه كما ينبغي فمعنىٰ ذلك أن خللاً قد أصابها لا محالة . . . !

ويقـول تعالىٰ «**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**»(١٧) .

كلام يتـدبـر معـانيـه ويتعـظ بها أنـاس اصحاب عقول عميقة النظر جيدة التفكـير حسنـة التخـريـج ، هؤلاءهم الـذين يولـون قول الله ما يناسبه من الإهتمام ويضعونه في المكان العزيز من حياتهم . . !(١٨) .

الثالثة ـ صدق النية في التماس المعتقد وخلوص التوجه في ابتغاء الحق . . ومن علائم صدق النيـة وخلوص التـوجـه أن يوظـف المـرء كل ما أوتيـه من عقل ذكي وعلم وفـير وطـاقـة تدبر واقتدار علىٰ قمع الأهواء والشهوات ومقاومة ضغوطها لأجل التفرغ لتمحيص العقائد ووزنها واصطفاء أكملها .

---

(١٦) ـ الآيـة ٦٨ سـورة المؤمنون .

(١٧) ـ الآيـة ٢٩ سـورة ص .

(١٨) ـ أفرد فصل خاص لموضوع التدبر فستأتيك تفاصيله لاحقاً .

ومن هذه العلائم أيضاً أن يتم الإختيار بحرية لاتشوبها أي شائبة من مثل مجاراة الآخرين في عقائدهم خوفاً من الاكثرية وسطوتها أو طمعاً في نيل الحظوة عندها لجني مصالح معينة على حساب اختيار العقيدة المثلى أو إشباعاً لأي شهوة أخرى أو تخلصاً من وطأة عبء الإلتزام بالحق .

إذا تخلص المرء من سطوة الأهواء داخل نفسه وكان قوياً أمام عوامل المجتمع الضال الضاغطة وتجرد لالتماس بغيته بكل موضوعية وحرص ودأب فإنه لا شك يكون قد سلك أقوم السبل وأخصرها نحو الهدف .

الرابعة ـ تطبيق مفردات العقيدة المثلى . . والعمل بمقتضيات الحق بعد طول تحريه وبلوغ حبله المتين هو ثمرة كل الجهود التي أوصلت إليه ، فما فائدة عقل ذكي وعلم وفير وطاقة تدبر وإخلاص في اختيار أفضل العقائد إن لم يعقب ذلك كله التزام كامل جاد وتمسك دقيق بصير . . ! ؟

القرآن الكريم يؤكد بكثرة تلازم الإيمان والعمل كقوله تعالى «آمنوا وعملوا الصالحات»(١٩) فليس هناك في المفهوم القرآني إيمان لا يحتاج إلى تطبيق ، بل ما دام الإيمان قد حصل بالعقيدة المثلى فلا بد من أن يتبعه عمل يليق به وليس المطلوب عملاً هابط القيمة وإنما أصلح الأعمال ، والإنسان لا يجود بهذا المستوى من العمل إلا إذا استيقن أن عقيدته هي المثلى ، وإذا اعتقد الإنسان أن عقيدته تتصل بالله تعالى فهنا لا يجد مفراً من أن يقدم لربه أغلى ما يملك في طاقته وهو العمل الصالح .

عمل لا غش فيه ، ولم يلجأ الإنسان إلى الغش في التعامل مع العقيدة المثلى وهو قد اختارها بشق النفس متطوعاً لا يرجو إلا وضع أقدامه على الطريق القويم المنير . . ؟ ثم إذا كان المرء يعتقد أن الله تعالى يطلع على السرائر كيف يغش . . ؟ بل إنه يكون مدعواً إلى أن يقدم من صلاح العمل أقصاه بكل ما يسعه الجهد . . !

* * *

---

(١٩) ـ ورد هذا النص واحداً وخمسين مرة .

والمنهج القرآني يفترض وجود القدرة لدىٰ كل إنسان غالباً علىٰ التمسك بخصائصه طلباً للعقيدة المثلىٰ مادام الإنسان مزوداً من خالقه جل جلاله بسمع يلتقط الكثير الواسع ومادام مزوداً ببصر يستقي بالمشاهدة لتعضيد المسموع تارة واكتشاف الجديد أخرىٰ ومادام مزوداً بحواس تشكل منافذ هائلة للإستيعاب العلمي ومادام مزوداً بعقل قادر علىٰ استعياب العلوم وتحصيل الخبرة ومادام مزوداً بقلب هو مستودع عظيم للمشاعر والأحاسيس يميز جيداً بين الأصيل والزائف والجيد والتافه ويقرر ما يختاره الإنسان .

والحق يقتضينا الإشارة هنا إلىٰ أن منهج البحث عن الحق ذا الخصائص القرآنية ليس بجديد علىٰ الناس وإنما هو لازم عقيدة التوحيد الإلهي فكان سمتها منذ أولىٰ الرسالات . . ولك أن تطالع في القرآن الكريم أقوال المرسلين ونبذاً من التوجيه الرباني لهم فستجد أن العلم كان مطلوباً للمؤمنين القدماء وكذا التدبر وكذا إخلاص النية وكذا العمل بمقتضيات الحق المبين .

أنظر مثلاً : **«ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليهم مريب . . قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلىٰ أجل مسمىٰ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين»**(٢٠) .

«ولقد آتينا موسىٰ الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولىٰ

---

(٢٠) ـ الآيتان ٩ و ١٠ سورة ابراهيم .

بصائر للناس وهدىٰ ورحمة لعلهم يتذكرون»[21] «وإلىٰ ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب . قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب . قال يا قوم أرأيتم إن كنت علىٰ بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير»[22] .

وغاية ما جاء به القرآن الكريم من إضافة علىٰ المنهج العلمي للاعتقاد الرسالي هو التوسع في العلم والتدبر : لأن عقيدة التوحيد اكتملت لبناتها بالإسلام المكبر لشأن العلم والتدبر بشكل لا نظير له في الأديان السابقة ، ولأن هذا الدين الأخير سيظل صراط الله في الأرض إلىٰ قيام الساعة ، مواكباً مستجدات العلوم ومتفاعلاً معها بإيجابية ، ولأن التفريط الفادح تجاه الرسالات السابقة إنما حصل أساساً بفعل الركون إلىٰ الجهل والإنصراف عن التدبر .

والآن قل لي بربك : أي منهج في البحث عن الحق المنشود يمكن أن يماثل المنهج القرآني علمية . . ! ؟ ولك أن تستعرض مناهج الأولين وحتىٰ الآخرين لترىٰ إمكانية التفرد العظيم بتلك الميزة التي يشمخ بها المنهج القرآني . . !

إنه صنع الله تعالىٰ مبدع كل شيْ خلقه . . !

وإذا ادعىٰ أحد أن هناك منهجاً يضاهي المنهج القرآني علمية في ابتغاء العقيدة المثلىٰ فهو أشبه بادعاء معتوه يزعم أن هناك خالقاً أبدع إنساناً يضاهي الإنسان الذي أبدعه الخالق عز وجل في هذا الكوكب . . !

* * *

---

(٢١) ـ الآية ٤٣ سورة القصص .

(٢٢) ـ الآيات ٦١ ـ ٦٣ سورة هود .

وكتابي هذا في فصوله اللاحقة سيكون بعون الله تعالىٰ مكرساً لمستلزمات منهج البحث العلمي عن المعتقد الأمثل في المفهوم القرآني ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حيي عن بينة وما يريد ربك ظلماً للعباد وإنما هو أرحم بأشد المخلوقين ظلماً لنفسه من الأم الكبيرة علىٰ وحيدها الرضيع . . !

اللهم صل وسلم وبارك علىٰ أحب الخلق إليك المبعوث بأقوم المناهج وأكملها وعلىٰ جميع من والاه إلىٰ يوم الدين كما يليق بشأنه عدد ما تعلم أنه الأكثر والأدوم ، ربنا لك الحمد والشكر والثناء حق قدرك كثرة ودواماً في الدينا والآخرة .

شاكر عبد الجبار شاكر
العزاوي

بغداد ـ ذو الحجة ١٤٠٣ هـ
تشرين الأول ١٩٨٣ م

أجهزة التحصيل العلمي

السـمع

جهاز السمع المثبت في رأس الإنسان جليل القدر بين الأجهزة التي زود بها الجسم ، لأن حياتنا السوية بدون هذا الجهاز تضمحل وتكاد لا تساوي شيئاً يستحق الذكر . . !

هل رأيت إنساناً أصم لا يسمع منذ ولادته . . ؟

إني لم أر طوال حياتي أحداً مثل هذا وقد يكون حالة تحصل على وجه الندور والإستثناء القليل وأحسبه على افتراض وجوده مخلوقاً يرثى لحاله إذ يكون في الغالب أبكم لا يستطيع النطق وترى البلاهة تحيط به من كل جانب ، إنه عبء ثقيل على نفسه وعبء أثقل على الآخرين وفي أحسن الأحوال يكون غير نافع إلا بقدر ضئيل جداً بالقياس إلى الإنسان السوي هذا لو حظي بمن يتعهده بالتدريب الطويل والتفهيم الشاق والتأهيل العسير .

إن اعمى العين مصيبته تهون إزاء الأبكم وكذلك فاقد أي حاسة أخرى كاللمس والشم والذوق فإنه لا يجد تعثراً في حياته كالذي يعانيه فاقد السمع منذ ولادته .

بل إن اعمى العين قد ينبغ في علم خطير من أرقى العلوم على الرغم من مصيبته في عينيه . . !

وبأي وسيلة ينبغ هذا الاعمى . . ؟

بالسـمع . . !

كل الحواس يمكن الاستعاضة إلىٰ حد ما عن فقد احداها وتلافي أكبر قدر من النقص الذي يحدثه ذلك إلا فقد السمع في وقت مبكر فإنه يحدث اختلالاً في حياة المرء تتعذر معه موازنتها .

وإذا كانت سلامـة السمـع بهذا القـدر من الأهميـة فلأن وظـائفـه في حيـاة الإنسان تشكل أخطر اعمدة الكائن السوي العاقل المستفيد من اعقد العلوم والمشيد لأرقىٰ الحضارات .

كيف يفهم القرآن دور السمع في حياة الإنسان . . ؟

التلقـي سـماعاً

يقـول تعـالىٰ «**وأنـا لما سمعنا الهدىٰ آمنا به فمن يؤمن بر به فلا يخاف بخساً ولا رهقاً**»(١) .

هؤلاء النفـر من الجن استمعـوا إلىٰ آيات قرآنية كان يتلوها الرسول ﷺ في صلاته خارج مكة(٢) فتلقفتها من آذانهم العقول وراحوا يفكرون في مضمونها بإمعان وعمق ودقة ويتدبرون ماكسيته من حلي القول العذب وما احتوته من عمق المعنىٰ الثر ومـا أوتيتـه من اعجـاز متنـوع شامـل وما امتلكته من قوة تأثير واقناع فآمنوا به بعد أن اتضح لهم أنه كلام خالق هذا الكون الهائل الفخم وليس كلمات مخلوق ضئيل عاجز

«**وإذ صرفنـا إليـك نفـراً من الجن يستمعـون القـرآن فلما حضروه قالوا : انصتوا فلما قضىٰ ولوا إلىٰ قومهم منذرين**

---

(١) - الآيـة ١٣ سـورة الجن .

(٢) - تنظر تفاصيل الحدث في روايات البخاري ومسلم والبيهقي وآخرين .

. . قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسىٰ مصدقاً لما بين يديه يهدي إلىٰ الحق وإلىٰ طريق مستقيم»[٣] .

ورجعوا إلىٰ قومهم فقالوا إن أسماعنا قد التقطت كلاماً يبعث علىٰ العجب لرقي ألفاظه وغنىٰ معانيه وسمو مقاصده في وقت كنا نظن فيه أن العالم خالٍ من بصيص هدىٰ طافح بالظلمات والضلال واليأس فتبين لنا أن نوراً ممن خلق الوجود قد غشي الدنيا فاستضاء به الضائقون ذرعاً بالأحوال السوداء الداكنة .

هذا الإيمان إنما حصل لهؤلاء القوم بتأثير علم بحدث جديد اقتحم بلا استئذان اعماقهم عبر نافذتي السمع ومن ثم راح يتفاعل في اغوار العقل وسائر أجزاء الكيان إلىٰ أن تفجر ينبوعه إيماناً .

وحتىٰ عند حملهم البشارة إلىٰ قومهم قالوا لهم «سمعنا» لأن العلم المتلقىٰ شفاهاً وما يتبعه من بصائر وهدىٰ إنما يأخذ سبيله إلىٰ العباد من عتبة السمع حتىٰ إذا توغل في اعماقهم بلا عوائق فعل اعاجيبه .

لم يقولوا لقومهم (توقعنا) أو (ظننا) أو (استقرأنا) بل ذكروا السمع إفهاماً للمقابل بأن شيئاً من خارج الكيان قد دخل فعلاً وأن الأمر ثابت وواقع وملموس وهو ليس ادعاء لأن تفاصيل الموضوع برمتها تجعل من السمع شاهداً قوي الدليل والحجة والبرهان . . !

فلو لم يكن هؤلاء النفر ذوي سمع لفاتهم أمر عظيم يتوقف عليه مصيرهم في الدارين لأنه مناط الهدىٰ والخير في الدنيا وسبيل الفوز العظيم في الآخرة . . !

وهناك فضيلة كبرىٰ للسمع هي أن العلم المتلقىٰ قراءة بالعين واللمس لايتيسر لكل العباد ، أما العلم المسموع فتلقيه أقل مؤنة وأكثر شيوعاً لأنه يدخل في قدرة المتعلم والأمي وقدرة البصير والاعمىٰ وقدرة الكبير والرضيع ، وعند التلقي

(٣) ـ الآيتان ٢٩ و ٣٠ سورة الأحقاف .

سماعاً تضاف رقابة العين فهي تارة تؤكد المسموع أو تدحضه ونجدها تارة أخرىٰ تقوم بتعضيد المتلقىٰ سماعاً بالمتلقىٰ مشاهدة ، أما عند التلقي قراءة بالعين واللمس فالسمع لا يكون رقيباً علىٰ المقروء ولا يتدخل بتأكيد صحته أو دحضها ولا يقوم بتلقي شيئ مسموع معاضدة لتلقي شيئ مقروء في وقت واحد بل إن هذا لو حصل لكان ثمة تشويش علىٰ المقروء واضطراب الاستفادة من المسموع وفوات تحصيل الفائدتين معاً علىٰ قدر كامل . . !(٤) .

وليس وجود السمع لدىٰ المرء ملزماً له قهراً بأن يفعل هذا الأمر ويدع ذاك وإنما هو جهاز موضوع في خدمته يقدم له كل ما يتأدىٰ إليه من علم بأمانة فإن شاء انتفع به وإن لم يشأ رماه جانباً . . !

ولكن الخالق عز وجل لم يعط عبده مثل هذا الجهاز ليتصرف به كما يحلو له وإنما لكي يستفيد منه كما ينبغي ، فأولئك النفر الذين استمعوا لآيات كان يتلوها الرسول ﷺ لو لم يخرجوا بالنتيجة التي آل إليها شأنهم لكان الله تعالىٰ قد أقام أقوىٰ الحجة علىٰ ضلالهم المتعمد لإعراضهم عن الهدىٰ بعد أن سمعوه ولحاسبهم أعسر الحساب علىٰ أمانة هي السمع أودعها لديهم فاستخدموها في كل شيئ بما فيه الإصغاء لأتفه السخافات ولم يتخذوها وسيلة لنجاتهم والتعرف علىٰ خالقهم والتماس مراضيه . . !

الإستماع الجيد

يقول تعالىٰ «**إنما يستجيب الذين يسمعون**»(٥) .

---

(٤) - ولعل ما نجده في القرآن الكريم من تقديم السمع علىٰ البصر بشكل مقصود في أكثر الآيات المتضمنة لذكر الحاستين تدليلاً علىٰ التشريف والأهمية يعود إلىٰ أن فضائل السمع تفوق فضائل البصر قدراً ، وأن ما توصل إليه علماء التشريح والفسيولوجيا في العصر الحديث بأن جهاز الأذن أعتقد وأهم من جهاز العين هو واحد من شواهد عدة . . !

(٥) - الآية ٣٦ سورة الأنعام .

فمن يستمع بإمعان يدلل علىٰ رغبته في التفاعل من بعد مع ما سمعه بوعي وذكاء وفطنة ومن ثم رغبته في الوقوف أمام حصيلة التفاعل بشعور عالٍ بالمسؤولية وحرص واهتمام ، ومثل هذا المرء يتلقف من داخله الإيمان أمانة كأعز ما تكون وأغلاه فيبادر إلىٰ الإستجابة لداعي الحق وسلوك سبيله رغم كل العوائق .

وعكس هذا استماع من يساوره الضيق والتذمر والكره والإستثقال ابتداء فإنه مادام مكبلاً بهذه المشاعر المسبقة لا يتفاعل مع ما سمعه إلا بوعي ضعيف وذكاء رافض وفطنة الهوىٰ ، وإذا تمخض الإستماع بهذه القيود المرهقة عن حصيلة فهي شوهاء لامحالة ينبغي رميها علىٰ قارعة الطريق بلا مبالاة ، ومن الغرابة أن يجري التصرف بها عكس المرجو إنصافاً وذلك عند اتخاذها قناعة والتمسك بحذافيرها . . !

فرق هائل بين استماع واستماع ، رغم أن المسموع لدىٰ هذا الإنسان هو إياه المسموع لدىٰ الآخرين ولكن مؤدىٰ استماع هذا يكون إلىٰ ثمر طيب ومؤدىٰ استماع ذاك يكون إلىٰ حنظل مر لأن تلقي الأول كان جيداً فأعطىٰ حاصلاً من جنسه أما الثاني فكان تلقيه رديئاً وقد اعطىٰ حاصلاً يماثله .

والمنهج العلمي يتمثل بوضوح وصرامة وإنصاف لدىٰ من أجاد الإستماع فوعىٰ ثم خرج من ذلك بموقف يتناسب مع قدر المسموع ويوفيه كل حقه . . وبخلاف هذا نجد منهج الهوىٰ فإن صاحبه عابث يستبق الأشياء بموقف الكاره الضجر أو المحب الأعمىٰ بدل أن يتلقاها بروية وتجرد وصفاء وبدل أن ينتظرها حتىٰ تتفاعل جيداً في أغوار عقله وتمر علىٰ ميزان العلم والخبرة والدليل حتىٰ إذا جاء الناتج سيئاً علىٰ شاكلة التلقي زاد الطين بلة بأن يتخذ من هذا السوء الناتج قناعة يضاهي بها مكابرة أشرف القناعات ويتطاول بها جهالة علىٰ من أضناهم التماس القناعات المثلىٰ . . !

التعسف بالسمع

يقول تعالى **«إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم»**(٦) .

يرفضون سماع القول الحق اصلاً لأنهم لا يريدون ابتداء الإيمان بهذا الحق فهم كمن يغلق أذنيه نابذاً سماع أي كلام . . ! إنهم لا يريدون التحقق ولا يحاولون التثبت ولا يستهويهم الإقتناع ولا يهمهم الصواب . . !

ولو أنهم سمعوا دعوتكم ماستجابوا لكم ، وهذا افتراض جد صحيح لأنهم في حالة سماعهم إن لم يلقوا عنهم جانباً مشاعر الضيق والتذمر والكره والإستثقال فإنهم لا يزدادون بهذا السماع إلا عناداً وغروراً فكيف تنتظر منهم بعد ذلك استجابة . . ! ؟

إنه سماع غير طبيعي لأنهم يحولون بالحكم المسبق على المسموع دون التلقي بصفاء وتجرد وأناة ، كيف إذن يتأتى بعد ذلك أن يتفاعل المسموع بإيجابية في أغوار العقل مروراً بميزان العلم والخبرة والدليل . . ! ؟

فالعقل عندئذ يكون شبه مشلول والميزان منزوع الكفتين ولا مناص في هذا الجو النفسي المقلوب أن يسفر المخاض عن قناعة كالغول يفترس ويدمر كل شيء يصادفه ولا يبالي . . !

وفي الآية إيماء وتعليم ، تومئ إلى أن الإنسان لا يستفيد من شيء ولو كان دعوة الحق إن لم يسمع مختاراً ، وتعلم المؤمن بوجه خاص أن لا يتعجل إسماع الآخرين دعوة الحق قبل أن يقدم بين يديه ما يساعد على السماع الطبيعي جهد المستطاع .

---

(٦) - الآية ١٤ سورة فاطر .

فمـا يسـاعـد علىٰ السـاع الطبيعي القيـام أولاً بتبـديـد مخاوف الآخرين وأوهـامهم تجاه الأمـر المطلوب تبليغـه إليهم وكـذلـك تجويـد وسـائـل التبليغ كالقول الـرصـين والفعـل الجـذاب والتأني الحـاذق والأسلوب الحكيم وكل المتيسر من الخلق الحسن كصدق الحديث ولين العبارة وأدب الحوار وهكذا .

تماثيل بشرية

يقول تعالىٰ «**إنك لاتسمع الموتىٰ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولـوا مدبـرين . . وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون**»(٧) .

من عرض عليه نداء الحق فولىٰ مدبراً فعلىٰ نفسه تجنىٰ ولا لوم علىٰ ناقل الرسالة إذا أدىٰ الواجب إعذاراً أمام الله تعالىٰ بل عليه أن لا يأسف لأن المولي مدبراً هو أحـد ثلاثـة ، إمـا متشبـه بالميت رغم ما أوتيه من سمع قوي يتسقط ما يعنيه وما لا يعنيـه ، وإمـا متشبـه بالأصم رغم أنـه إذا دعي لتوافه الأمور يتسمع نداءها من بعيد كالمتحـرق شوقـاً ، وإمـا متشبـه باعمىٰ يتخبـط في ظلمات الأقاصي والفلوات رافضاً هدايـة الـدليـل المنقـذ ، فهؤلاء لا يستحقون الأسف عليهم لأنهم جاحدون لفضل الهادي البصير عاكفون علىٰ ضلالاتهم لا يرضون بسواها أي بديل ولو كان هو روح الله يتنزل لإحياء الموتىٰ أو حبل الله يمتد لانتشال الصم أو نور الله يمنح العمي الإبصار . . !

إنـما يسمـع نداء الحق بوعي وحـرص واهتمام امرؤ إذا تليت عليه آيات الله البينات عرف قدرها لأنه يزن الأمور بالقسط فيحترم ما يترجح فضله ويزدري ما تتبين رداءته .

---

(٧) ـ الآيتان ٨٠ و ٨١ سـورة النمل .

السمع هو المعول عليه ابتداء ، فإذا التقط صاحبه بشكل طبيعي دون مصاحبة ضيق أو تذمر أو كره أو استثقال فإن العقل المستلم للمسموع سيعمل هو أيضاً بشكل طبيعي في التمحيص والوزن والتقويم ثم تكون النتيجة أن يترجح الراجح ويتردىٰ الرديء .

ولذلك نجد الخطاب القرآني عندما يحرص علىٰ مدلول السمع فكأنه يريد أن يذكرنا بغرضين ، الأول هو ضرورة الإستماع بلا مواقف مسبقة لأنها تؤثر علىٰ عملية العقل ، والثاني هو أن نقبل نتيجة الإستماع الجيد المنصف التزاماً بمنطق الصواب وتعبيراً عن الرضوخ للحق .

مثل للمستمعين

يقول تعالىٰ **«يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب»**(٨) .

يقول «فاستمعوا له» رغم أن الذباب مما تشاهده العين ورغم أننا نرىٰ عياناً وقوع الذبابة علىٰ الطعام فليتات بما يعلق بأطرافها من جراثيم تسلب صلاحيته للتناول والإنتفاع به ، ذلك لأن هذا المثل موجه لكل الناس السامعين سواء منهم الاعمىٰ والبصير ، ولأن ما ورد في المثل يحتاج التقاطه إلىٰ استماع جيد ومن ثم اللجوء إلىٰ تحكيم العقل والعلم والخبرة بشأن أخطر قضية ألا وهي الفصل فيمن هو أولىٰ بالعبادة أهو الله تعالىٰ خالق كل شيء ومدبره أم الذين اتخذهم البعض انداداً من دونه وهم عديمو القدرة علىٰ خلق ذبابة ولو اجتمعوا له فكانوا علىٰ صعيد عقل علمي واحد هم وجميع من علىٰ الأرض . . !

---

(٨) - الآية ٧٣ سورة الحج .

بل إنهم ضعاف إزاء مخلوق بادي الضعف يستنكفون هم اتخاذه شاهداً في حديث مهما كان مستواه كيف إذا جاء بذكره مناوئهم لتحقير أقدس مقدساتهم كشفاً لضلالتهم بشكل يسقط الحجة ويعقد الألسنة . . ! ؟

مثل يحتاج إلىٰ استماع حسن منصف ليكون التفكير حسناً ومؤداه إلىٰ الأمر المنصف ، ولذلك فلا ينبغي أن يؤثر علىٰ استماع المستمع كونه :

أولاً ـ يحب الأنداد مسبقاً .

ثانياً ـ يكره ابتداء أن ينفرد إله واحد بعبودية الناس له بسبب ما ألفه من تعدد الآلهة .

ثالثاً ـ يمتعض من التفكير بالذباب لا سيما في أمر عظيم يختص بتقرير الألوهية لمن .

رابعاً ـ لا يرضىٰ أن تمس قدسية الأنداد استهزاء بأي شكل ولأي غرض .

خامساً ـ انزعاجه من اتهام الأنداد بعجزهم تجاه الذباب إذا سلبهم شيئاً .

وليست هذه المستلزمات شروطاً لإرهاق المستمع وإنما هي متطلبات التفكير الحسن في مثل كالوارد في الآية وصولاً في النهاية إلىٰ أجود موقف عقلي منه ، ومن منا لا يرضيه حسن التفكير أولا يروم جودة الرأي باستثناء أناس يدعون القيود ترهق سمعهم فيجانبون التفكير الصائب وبالتالي لا يظفرون بالرأي السديد وهم يحسبون أنهم قد أحسنوا الاستماع والتفكير واستخلاص الرأي وما هم هكذا إن هم إلا يتخبطون شعروا بخطئهم الكبير في الإستماع الرديئ أو لم يشعروا .

أفضل الإستماع

يقول تعالىٰ «**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب**»[٩] .

---

(٩) ـ الآية ١٨ سورة الزمر .

اصحاب العقول الجيدة لا يكتفون بالاستماع الحسن المنصف للقول وإنما تحملهم جودة عقولهم على اتباع أمثل ما يسفر عنه التفكير المحص للمسموع ، وهذا هو الفرق بين الذي يساق إلى الإستماع يثقله الضيق والتذمر والكره واستثقال المسموع وبين الذي يبادر إلى الإستماع سعياً منه إلى طلب الحسنى والإرتقاء بوضعه إلى أرفع مرتبة وأسمى مقام .

فاصحاب العقول الجيدة يرون أنهم المستفيد الأول والأخير من المسموع إن ظهر لهم حسنه فعضوا عليه بالنواجذ أو إن ظهر لهم خبثه فألقوا به وراء ظهورهم ، ولذلك فهم يعتنون كما ينبغي بالاستماع مراعاة لمصلحتهم من وراء ذلك تاركين للمسموع حرية ما ينتهي إليه في أغوار العقل وسط العلم والخبرة .

وبخلاف التعامل الرشيد هذا يرون أنهم الخاسر الأول والأخير إن أساؤوا الإستماع واستلموا نتائج التفكير شوهاء لأن العمل بالرأي غير الصائب إنما يقود إلى إفساد القناعات الأخرى الصائبة ويجعل عاقبة أمر الإنسان إلى ضياع وتيه وضلال . . !

قدوة المستمعين

يقول تعالى «**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**»(١٠) .

إنما تحصل الذكرى بمواعظ الله تعالى لمن أوتي القلب الحي السليم الذي لاتقيده الأهواء ولا تنخره الشهوات ، وكذلك فإن الذكرى تنفع من ألقى السمع وهو شهيد .

«ألقى السمع» كأنه رفع يده عن التدخل فيما يمر عبره ، أي أن لا يؤثر السامع على المسموع بشئ يعكر بلوغه إلى العقل لئلا يتأثر العقل بالشوائب المعكرة ،

---

(١٠)- الآية ٣٧ سورة ق .

ولما كان ملقي السمع شهيداً علىٰ الإستماع فهو إذن حارس أمين علىٰ ما يتلقاه . . !

وليس مطلوباً منه أن يحرس العمل العقلي وإنما هو إذا وفىٰ حق الحراسة علىٰ السمع بكل أمانة أي أن لا يلصق بالمسموع شوائب معكرة لمجرىٰ التفكير يكون قد اعان أفضل إعانة علىٰ أن ينجز العمل العقلي التفاعل مع ما بحوزته من مسموع علىٰ أكمل وجه . . !

* * *

ذلك هو قبس من المفهوم القرآني لدور السمع في حياة الإنسان أحسبه يغني اللبيب كما يغنيه قبس الضوء عن كل الضوء .

لقد ورد الفعل سمع ومشتقاته في القرآن الكريم في تسعة وسبعين موضعاً الأمر الذي يدل علىٰ مبلغ الحرص الحاني من الخالق الرحيم لكي يعلم عباده أجود الوسائل واصح الطرق في الاعتقاد حتىٰ يتيسر لهم بعد ذلك إيفاء العقيدة المثلىٰ المحفوظة بين دفتي القرآن حقها بحسن التلقي والقبول وأقوىٰ الإلتزام . . !

والتعليم القرآني الخاص بكيفية التعامل مع حاسة السمع والإستفادة منها في التماس الهدىٰ إنما هو اهتمام بواحدة من وسائل المنهج العلمي للاعتقاد الأمثل تعتبر من أخطرها دون التقليل من قيمة الوسائل الأخرىٰ .

العيان

وإعطاء السمع سبق الأهمية لا يقلل من مكانة النظر العيني والدور الموكول إليه في حياة الإنسان ، فعندما تراجع العيان تجاه السمع خطوة إلىٰ الوراء بقي محاذياً له في النهوض باعباء الاستيعاب العلمي وامتاع الإنسان بما أبدعه الخالق جل جلاله في هذا الكون العظيم .

ليس سواء إنسان بصره حديد يستشرف البعيد ويستقصي الرقيق ويستقطب الشارد ويختزل الزمن اللازم للاستيعاب وآخر عديم البصر لا يرىٰ الصور إلا وحي خيال وهو في أحسن أحواله عندما توصف له المرئيات يجهد السمع واللمس وسائر الحواس عله يقترب بالصور الموصوفة إلىٰ أدق أوضاعها فلا يستطيع لأن الناظر بأم عينيه ليس كمن لا أم لعينيه .

نعم . . إن وردة ـ مثلاً ـ لو أبدع أقدر الواصفين في نقل صور ملامحها الجميلة لكفيف البصر وملأ سمعه بكل ما يمكن التقاطه من روائع ،ولنفترض لو أن هذا الواصف لم يدع شيئاً يتعلق بالوردة إلا استقصاه ثم أسمع الاعمىٰ التفاصيل كلها باعذب وأغنىٰ اللغات الشعرية يبقىٰ من يرىٰ ليس كمن يسمع فقط ، فالرائي لو أطلق لعينيه العنان امعاناً في جمال الوردة لما احتاج إلىٰ عناء وصفي من غيره ولما احتاج إلىٰ تخيل الألوان علىٰ غير حقيقتها .

كيف يفهم القرآن دور العيان في حياة الإنسان . . ؟

استخدام العينين

يقول تعالىٰ «ألم نجعل له عينين»[1] .

الإنسـان يغـتر أحيـانـاً بما هو عليه من قوة وتمكين فيغفل عن ربه ويوغل في طريق الغـرور إن لم يسـترشـد بقبس هدىٰ فيقف علىٰ جادة الحق . . وهنا تذكرة من الله «ألم نجعل له عينين» . . ! ؟

أيها الإنسان لم تعط عينيك من الخالق البارئ المصور حتىٰ تستعين بهما علىٰ التماس الغـرور والغفلة عمن أوجدك فوق الأرض وأتـاح لك نعـماً لا تعد ولا تحصىٰ وإنما لأجل التعرف علىٰ الإله الأحد وعبادة الرب الصمد . . !

إنـه عز وجـل لم يخلقـك لتتقوىٰ بنعمه علىٰ انتهاج سبيل يباعد بينك وبينه وبـالتـالي تنسـاه وتنكـر علىٰ عبـاده العـارفـين فضل عبادته علىٰ يقين وتزدري شأنهم وتستخف بهم مداراة للإنحراف وتعزيزاً للضلال وكسباً للمؤيدين . . !

نعم ، إنـه الإنحـراف والضلال ليس غير . . فالعين إذا رأت بدائع خلق الله تعالىٰ وأبصرت نعمه في هذا الكون لاشك أنها ستتأكد جزماً أن ثمة خالقاً يدين له كل الوجود بالعبودية ، فإذا لم تعط أنت هذه الحقيقة استحقاقها من التلقي والإلتزام والتوقير وأدرت لها ظهرك كيف سيكون شكل الإنحراف عن صحة الاعتقاد . . ! ؟ وأي ضلال أشد من هذا . . ! ؟

إن مثل من أوتي عينين فلم يسترشد بهما كمن أوتي مصباحاً وسط الظلمة فلم يلتمس الأمـان لموطئ قدمـه والخـلاص لكيـانـه المهـدد وإنـما راح يستعين بضوء المصبـاح علىٰ طلب الحفـر الخطـرة والدنو من جحور الحيات والتوغل في الديجور بحثاً عن المهالك وهو يحسب أنه يحسن صنعاً أو يقوم ببطولة . . !

---

(١) - الآيـة ٨ سـورة البـلد .

ياحسـرة علىٰ المصبـاح ، إنـه دليل نجاة وأحوج ما يكون غارق في الظلمة تتر بص به المخـاطـر أن يتخـذه هدىٰ ورحـمـة ، ولكن هناك من إذا ظفر به ركب رأسه وانقاد لطيشه جاعلاً منه شر نعمة تؤدي به إلىٰ الهاوية سريعاً . . !

لو حرم هذا الضـال الغـارق في الظلمـة ذلـك القبس وسقط حبواً في حفرة الهـلاك وهـو يحسب أن طريقـه آمن لأشفقنـا عليه ، أما أن يتهيأ له نور ساطع فينطلق راكضـاً يقفـز فوق الحفر عبثاً ويستفز الحيات سخفاً ويتطلع إلىٰ أكبر الدواهي متوغلاً في الديجور كالمجنون فذلك أسوأ كارثة تحل بالإنسان لأنه يسعىٰ الىٰ حتفه بظلفه . . !

وعينا الإنسان ليستا كالمصباح يجده المرء علىٰ قارعة الطريق أو يقتنيه بثمن زهيد فيحمله وينطلق إن شاء انتفع به وإن شاء ازداد ضلالاً . . العينان أغلىٰ أمانة ممن خلق الإنسـان فهـو إن انتفـع بهما في الإهداء إلىٰ أقوم السبل يكون قد أكرم أمانته وأبـرأ ذمتـه أمـام الخـالق ، أمـا إن لم ينتفع بهما وضل بلا مبالاة لا هثاً وراء الهوىٰ فإنه سيـلاقي الحسـاب العسير عما ائتمن عليه والويل له مما اقترف حيث لا يقبل منه عذر ولا اعتذار .

والعقـاب الشـديـد علىٰ تفـريط الإنسان بما استودع من أمانة إنما هو جزاء وفاق لأنه اعطي أيضاً سعة عمر بأيام حسنة الطول كثيرة العدد كل منها مليءٌ بالفرص المتاحة للهدىٰ والإقبال علىٰ الله تعالىٰ انقياداً لحصائل العينين تلك الحقائق السافرة التي لا تموه ولا تكذب ولا ترد فلم يبال .

الحياة الدنيا لا تتكرر ، إنها واحدة ، باختتامها يكون قد اسدل ستار العمل إلىٰ الأبـد ليبـدأ الحسـاب والجـزاء . . والإنسـان إذا لم يستفـد من توالي الأيـام وهي فسيحة لمن نشد الحسنىٰ وإذا لم يستفد من تعاقب الليل والنهار وهما يشعر انه بتقلص شوط الرحلة وإذا لم يستفد من انتقاله أثناء حياته من حال علم وخبرة إلىٰ ما هو أنضج وأمكن فلا فائدة ترجىٰ اطلاقاً إن اعطي معاودة الدنيا .

تكرار الحياة الدنيا يعني مجاراة عابث بحياته لا يحفل بخسران تؤ ول إليه ، الأجل هذا يعطىٰ التكرار . . ! ؟ بل ينبغي أن ينتهي عمر إنسان أمكنه أن يستقيم

علىٰ طريق الله تعالىٰ مرات بلا عدد في طول دنياه وعرضها فلم يفعل ولو علىٰ سبيل التجريب . . !

لماذا لم يفعل . . ! ؟

لا شك أنـه قد رأىٰ بعينيـه مدىٰ الجـد في الخلق فلماذا لم يتعـامـل هو أيضـاً بشيء من الجد مع حقائق الكون التي رآها واضحة عياناً . . ! ؟

لو كان في تعـاقب الليـل والنهـار ـ مثلاً ـ وبزوغ الشمس وحركة القمر وأي فعل من أفعال الحياة شيء من عدم الجد أو أي قدر من الهزل والعبث واللامبالاة لربما ساغ له أن يتصرف تجاه الحقائق المنظورة بهزل وعبث ولا مبالاة . . !

بل لجاز له أن يسخر من حقائق الوجود كما يحلو له دون استنكار من أحد . . !

ولكنه يتعامل مع كون يقول ربه عز وجل :

«وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين»(٢) .

أي لا مكان للعبث في هذا الوجود . . !

ربنا سبحانه وتعالىٰ قد تنزه عن ذلك فلماذا نعبث إزاء مسألة المصير واللائق بالعاقل أن يجد كل الجد في التعامل معها . . ! ؟

فمن أراد أن يلعب ويهـزل ولا يبـالي عليـه إذن تحمل تبعات ثقيلة هو سعىٰ إليها وقد كان منها في عافية لو أنه رأىٰ فتأمل ووعىٰ ثم لو أنه آمن فعمل وأحسن .

عيون لا تبصر

يقول تعالىٰ **«ولهم اعين لا يبصرون بها»(٣)**

---

(٢) ـ الآيـة ١٦ سـورة الأنبياء .

(٣) ـ الآيـة ١٧٩ سورة الاعراف .

اصحـاب جهنم هؤلاء كانت لهم اعـين في دنياهم ، أي لم يكـونوا محرومي النظر بل كانوا في تنعمهم بها كسائر الخلق ولكنهم ما أرادوا الإبصار المضيء لدواخلهم المظلمـة ، ما أرادوا اكتسـاب فائـدة الإبصـار ، فهم تارة لا يتجاوزون بنظرهم سطح المنظـور لا يكلفـون أنفسهم عنـاء استطـلاع الجـوانب والاعـماق عنـدما يتعلق الأمر بتكـوين عقيـدة وحسم الـرأي وإحكـامـه بخصـوص الحقائق الكبرىٰ المبثوثة في هذا الـوجـود ، وهم تارة أخـرىٰ ينظـرون بأنـاة وإمعـان وذكـاء استطلاعاً لدقائق الأشياء ولكنهم غير متجـردين وإنـما يحكمهم الهـوىٰ ، فكيف يمكنهم التـماس الحق وهم له كارهون ابتداء . . ! ؟

الحصيلة في حال كهذه لا غرو تكون إيغالاً في الضلال بتوظيف مؤدىٰ النظر العيني لتـزيـين الإتجـاه السيء والعمل غير الصالح ونفوراً من الحق ولو كان أصرح من النهار ومقتاً للمتمسكين به ولو كانوا منار أهل الأرض في العلم والخبرة والفضل والصلاح . . !

ولا ظلم للنفس والأشياء أفدح من هذا . . !

إن وجـود العـين لدىٰ الإنسـان حجـة تكفي لإدانتـه إن هو زاغ لأن الخالق سبحانه يعلم جيـداً منـذ أن شق للإنسان عينيه متفضلاً بنعمة النظر أن المرء لا يضل طريقه إلىٰ الحق طوال حياته إلا إذا هو تعسفَ في استعمال نعمة النظر غير عابئ بطول العمـر وتتـابـع الأيـام ومـا يمر عليه خلالها من تذكير لا ينقطع يلفت نظره إلىٰ صورة الحق ومن زوايا عديدة ويكشف له سخف الباطل تفصيلاً .

يالهـا من رحمـة أن يعطي الله تعـالىٰ الإنسـان عيناً ويبدع خلقاً من حوله لا ينغلق فهمه علىٰ نظر وكذلك يمهد له الدرب القويم نحو الحق المبين ثم يكافئه علىٰ التزام هذا النهج برضوانه الكريم في الدنيا والآخرة . . !

ويـا له من عدل أن يتيـح الله تعالىٰ للإنسان نعماً كبر يات وفرصاً رحبة فإذا أصر هذا المخلوق علىٰ مقابلة الإنعام بالإساءة وعدم الإفادة من الفرص المتجددة بكر الليل وتوالي النهار أخذه حسبما حذره مراراً وبكثرة إلىٰ عقابه الشديد جهنم يصلاها وساءت مصيراً . . !

العالم المنصف والجاهل المنكر

يقول يتعالىٰ «**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو اعمىٰ إنما يتذكر أولو الألباب**»(٤) .

أفمن يمتلك العلم المؤهل لليقين الداعي للجزم بأن هدىٰ الله المنزل علىٰ سيدنا محمد ﷺ هو الحق كمن لا علم له ولا يقين ولا جزم وإنما هو يخبط في عشواء ويسير في عماية . . . ! ؟

إن المتهاون بالتماس العلم واليقين بحق الله تعالىٰ إنما هو اعمىٰ كيف يجوز إذن مساواته مع البصير . . ! ؟

هل يتساوىٰ من يرىٰ الوردة عياناً فيطلع علىٰ كل لمسات الجمال وأسراره فيها مع مغمض العينين منذ ولادته لم ير وردة ولم يبصر لوناً ولم يعهد تمازج الأشكال في صورة ولم يخبر تراصف الأجزاء المتباينة في الاشياء . . ! ؟

واختلاف كهذا بين العالم بحق الله المبين والجاهل به الغارق في الأوهام لا يدرك مميزاته علىٰ حقيقتها أحد مثل أولي الألباب الذين حازوا العلم والخبرة والبصائر والهدىٰ .

لا يستوي النقيضان

يقول تعالىٰ «**وما يستوي الاعمىٰ والبصير**»(٥) .

---

(٤)- الآية ١٩ سورة الرعد .

(٥)- الآية ١٩ سورة فاطر .

لا يستـويـان قطعـاً ، لأن ما يراه البصـير في عالم العيان يزيده تمكناً فتكون عيناه خير عون له علىٰ النهوض العالي باعباء الحياة ، أما الاعمىٰ إذ لا يرىٰ شيئاً في عالم العيـان فلا تمكن له إلا بمسـاعـدة من سواه ولا نهوض له باعبـاء الحياة إلا بقدر ما يساعده الآخرون مما لا يشابه بحال المبصر إطلاقاً للبون الشاسع بينهما . . !

ليس سواء تمكن ذاتي من مواجهـة المحيـط بفضل البصر وشبه تمكن ضئيل يرجىٰ بواسطة الغير لاستحكام العمىٰ ، وليس سواء نهوض عالٍ باعباء الحياة بفضل استطـلاع العينـين مجال الحـركـة جيـداً أمام اليد والقدم ليكونا علىٰ بينة وسط أوضح رؤ ية ، ونهوض بسيط باعباء الحياة لعدم تحرك اليد والقدم علىٰ بينة وسط اعتم رؤ ية إذ لا قدرة للعينين البتة علىٰ استطلاع مجال الحركة وإنما كل ما يتم يحصل بدلالة دليل في أحسن الأحوال وإلا فالجمود أو الخبط في عشواء . . !

كيف يستويان . . ! ؟

ظلام دامس ونـور وضـاح . . الأول قطعـة سوداء لا ترىٰ لها ملامح سوىٰ لون الفحمـة الـداكن ، والثاني عالم مشرق لكل شيء فيه ملامح بارزة للعيان بأوحىٰ السمات والظلال والخصائص . . !

لا يستويان بحال . . !

أما المقارنة فهي لإظهار مدىٰ تميز الضدينّ . . !

الأحجام والأبعاد

الإلتفـات إلىٰ المحسـوس المشـاهـد يعني أن فيه ما يستدعي النظر لالتقاط جواهر معانيه وبدائع جماله ونفائس أسراره . . والإلتفات من المرء إلىٰ أشياء الكون المحيـط به يعني قبل جلالـة مضامينها وروعة أشكالها وعظمة إبداعها أن الناظر إليها إنسـان لا يمـر علىٰ الكنـوز الغـاليـة مر البهـائم وإنما هويتحرىٰ النظر انقياداً لداعي العقل وابتغاء للصواب كدأب العالم الشديد الحرص في موضوع ومواد ومفردات اختصاصه .

والعـالم في اختصـاصـه يتطلع إلىٰ كل الأشيـاء لا يستثني منها أضأل صغير لأنه يعرف أن نفاسة العلم وقيمة الشيء وضالة الناشد لا تقاس بحجم . . ونحن في هذا العصـر لما نزل منـذهلين بالـذرة التي لها استخدمان ، بأولهما يكون الخير العظيم وبثانيهما يحصل الشر العظيم وهي لصغر جرمها لم ترها العين حتىٰ الآن لا بمجهر ولا بسواه .

لو كان جهد العلماء يلهث وراء ضخامة الأحجام فحسب لرحنا نتطلع إلىٰ مجرات قد تكون خلف الحسبان وتركنا الكثير الهائل من دقائق الأشياء العظيمة القدر التي تحيـط بالإنسـان فوق الأرض وهـو أحوج إليها في حياته وسلم رقيه الحضاري من رصـد مجرة تبعـد عن كوكبنـا مئـة مليـار سنة ضوئية مثلاً وسرعة تباعدها عن مجرتنا في الثانية تعتبر الآن أشبه بالخيال . . !

الإهتمام بالأقرب إليك أولاً تقودك منافعه في العلم والخبرة والتفكير إلىٰ أن تهتم فيما بعد بكل شيء يشاركك الوجود في هذا الكونْ بما في ذلك أبعد مجرة وأقصىٰ ذرة إن استطاع العقل الإنساني بثرائه العلمي وملكاته في التفكير أن يطال من الأمكنة أبعدها ويختزل الأزمنة إلىٰ أخصرها .

وإذا لم يبـد منـك اهتـمام نحـو الأقـرب إلىٰ تنـاولك لا سيما المألوف منه فلا تعتقد أن اهتمامك بالأبعد سيكون علىٰ وجه صحيح ومفيد ورصين .

إنها قاعدة علمني إياها القرآن ، وأجدها أحكم ما تكون القواعد ، كيف لا وهي من عنـد الخـالق بارئ هذا الكـون بكـل ما يحتـويه ومبدع كل شيء فيه والقائم بتدبير شؤونه سواء كان مجرة أو اضأل مخلوق لا يرىٰ إلا بالمجهر يعيش في اعماق البحر بين اعتىٰ الوحوش والكواسر في ظلمات رهيبة يأكل رزقه رغداً ليؤدي دوره في الوجود مرتـاح البـال بأن أحـداً غير الله تعالىٰ مهما تبلغ قوته لن يستطيع أن يعيق ذلك الدور ولن ينقص من موعـده دقـائق ، بل إن عشـر معشـار الثانية منه لا يتقدم ولا يتأخر إلا بتقدير الله القوي العزيز الحكيم .

تعال ننظر . .

التفاتة إلىٰ المألوف

نعم ، تلك قاعـدة علمني إيـاهـا القرآن بحثه الكثير المتنوع للإنسان علىٰ النظر إلىٰ المألوفات في حياته والتفكير فيها . . فنظرتك العميقة إلىٰ المألوف كالطعام مثـلاً الـذي تراه في الـوهلة الأولىٰ بسيطـاً لا يستحق التفكير تقودك إلىٰ خالق الوجود رب كل شيء . . . !

أجـل . . مألـوف تظلمه طويلاً بالنظر السطحي العابر وتنسىٰ التفكير فيه يقودك إلىٰ الحقيقة العظمىٰ إذا أنت أوليته النظر العميق الجيد . . !

وسترىٰ وتتأكد بنفسك عندما تحاول . . !

خالقك تعالىٰ يوجهك هادياً فيقول :

«فلينظر الإنسان إلىٰ طعامه»[٦] .

ألم يستلفت نظـرك أيهـا الإنسـان هذا الطعـام المتبـاين المـذاق بلا إحصـاء والمختلف الشكل بلا حصر والمتنوّع الفائدة بلا حد ، إنه يسقىٰ بماء واحد ومتاح لكل طاعم بلا استثناء ، أم أن ألفك إياه منذ الولادة قد أنساك نظرة التفكير في زاد الحياة . . ! ؟

وإذا لم يستلفت نظرك هذا القوت وهو لا استغناء عنه ولا محيد إلىٰ سواه إلا بالموت ، فلا شيء كبير أهمية يستلفت نظرك بتاتاً ولك أن تتحقق بنفسك من صحة هذا القول وتقارن بمقياس العلم والإنصاف بين قيم الأشياء التي تثير اهتمامك لترىٰ أنـك بعـدم تكلفـك عنـاء نظرة التفكير فيما يستلفت اهتمام عقلاء الناس وعلمائهم لا تنظر إلا إلىٰ قشور الأشياء وساقط القيم . . !

إنه تحدٍ شريطة الإحتكام إلىٰ مقياس العلم والإنصاف . . !

إذا كنت تزعم أن نظـرك لا يستلفتـه إلا كبـير أهميـة في الـوجـود فإن عدم التفاتك إلىٰ طعامك يكذب هذا الزعم لأن أهمية الطعام لا يخفىٰ قدرها علىٰ

---

(٦) ـ الآيـة ٢٤ سورة عبـس :

عاقل . . !

فلينظر الإنسان إلىٰ الطعام نظرة العين ونظرة العلم ونظرة العقل معاً قدر ما يمكن ، فنظـرة العـين تستلفتها نواحي العجب والإعجاز البادية ظاهراً في الطعام ونظرة العلم تستلفتهـا نواحي العجب والإعجـاز الكـامنة تكويناً في الطعام ونظرة العقل تستلفتها نواحي العجب والإعجاز المتحصلة خلقاً في الطعام . . !

ولو لم تكن ذا قدم راسخة في العلم فإن نظرة العين ونظرة العقل لهما قادرتان علىٰ إغنائك في الخلوص إلىٰ مايقتضيه حسن النظر بالعين والعقل وهو التعرف علىٰ حقيقة الخالق الماثلة اسطع من الشمس وراء النظر إلىٰ الطعام . . !

ومثلما ساوىٰ الله تعـالىٰ جميـع الناس في الأيجاد والخلق والتدبير فإنه كذلك أتاح لهم عموماً سبيل التعرف عليه ماداموا ذوي عقل ، أما مسألة العلم الوفير فهي لإغناء معرفتنا بالخالق وتقوية إيماننا وترسيخ يقيننا .

وهنـا ينبغي أن نلاحـظ أن هدىٰ الله الـوارد في القـرآن يخاطب الناس جميعاً أثنـاء ضلالهم كي يتعـرفـوا علىٰ ربهم لا يستثني منهم جاهـلاً ولا يخص عالماً حتىٰ إذا استقر الإنسان في ساحة الإيمان دعاه المنهج القرآني بقوة إلىٰ التماس العلم علىٰ أوسع نطاق كي يعبد الله الكبير المتعال علىٰ بصائر ويبلغ في القرب منه أعلىٰ الدرجات .

ولو اشترط عليهم ابتداء وفرة العلم قبل الإيمان لفهمنا من ذلك أن حقيقته تعالىٰ يقتصر اداركها علىٰ العلماء فقط ولأرهق الكثيرون في التعرف عليه إذ لا يتسنىٰ العلم الوفير للجميع وهو إن ناله عدد قليل فإنما بعد زمن قد يطول .

ولكن أرحم الـراحمـين بدل هذا السبيـل المـرهق في التعـرف عليه قد جعل إشـارات هاديـة ودلائـل واضحـة وبـراهين قوية في كل ما خلقه إطلاقاً في هذا الكون واعطىٰ البشـر من الحـواس والعقـل ما هو كفيل بفهم تلك الإشارات ومعرفة الدلائل وإكبار البراهين حتىٰ لو لم يكونوا خريجي جامعات ولم يعايشوا حضارات ، بل حتىٰ لو كان أحدهم أمياً يرعىٰ بضع شياه في جوف الصحراء . . !

أليس كل إنسان يأكل ما يقيم أوده . . ! ؟

وأليس كل إنسان يعرف ما هو الطعام . . ! ؟

إذن فلينظر الإنسان إلىٰ طعامه . . !

أي إنسان لينظر . . . !

وإذا نظر بموضوعية وعقل حر وإنصاف فلا محالة يظفر بحصيلة كبرىٰ يشترك معه فيها أوائل المؤمنين وأواخرهم ، إنها واحدة لا تتجزأ ولا تتبدل ولا تختلف ، إنها الإقرار بخالقية الخالق ومن ثم عبادته وفق نهجه المرسل .

تشابك المألوف

يقول تعالىٰ «**فلينظر الإنسان إلىٰ طعامه . . أنا صببنا الماء صباً**»(٧) .

ألست ترى . . ! ؟

فلتنظر إذن إلىٰ الماء بأي قدرة تكون وصار ضرورياً لحياة كل مخلوق علىٰ الأرض . . ! ؟

وانظره كيف ينتقل من جهة إلىٰ جهة بنظام لا يختل ولا يتوقف بل هو صارم ودقيق مراعاة لحوائج الخلق كلهم وتلبية لمطالب الحياة برمتها . . !

أما مسألة الترابط بين الماء والطعام فينبغي أن توليها ما تستحق من النظر لأنها عجيبة الشأن في تداخل الكثير من وظائفهما خاصة علىٰ صعيد الأحياء الأرضية وفي مقدمتها الإنسان .

الطعام علىٰ اختلاف اصنافه ابتداء من بذره حباً في التراب وانتهاء باكتمال عملية الهضم في المعدة يسقىٰ بماء واحد له خواص إن تبدلت فقد اسمه وصار شيئاً آخر . . !

---

(٧) ـ الآيتان ٢٤ و ٢٥ سورة عبس .

والأنهار تنقل ماءها إلىٰ مواضع معلومة ليست هي كل بقاع اليابسة ، إذن لابد أن تنال الأماكن المحتاجة نصيبها هي كذلك ، كيف . . . ؟

أن يتحصل الماء من الأرض بخاراً كي يتصاعد بسرعة ويخف حمله في الهواء ويسهل علىٰ الرياح سوقه إلىٰ أبعد المواضع الملهوفة ، وهكذا ينزل المطر ماء قد استعاد التكاثف وهو صفته التي فارقته بالتبخر ليكون رحمة للإنسان وسائر أحياء الكوكب . . !

أرأيته كيف يصب علىٰ الأرض ويساق إلىٰ الحبوب والجذور وهي مدفونة فيرويها ولولاه لكسرها العطش وصارت هشيماً فأتاحت لها القطرات المصبوبة صباً أن تمد اعناقاً إلىٰ فوق . . ! ؟

«ثم شققنا الأرض شقاً»(٨) .

بعد أن ترتوي الحبة بقطرات الماء المصبوبة يحدث أمر هائل حقاً ينشد إليه النظر باعجاب شديد ذلك هو تشقق التربة بفعل انفلاق الحبة وخروج عنق منها يمتد إلىٰ فوق . . !

أي قوة في ذلك العنق الطري الغض تجعله يقاوم تماسك التربة وصلابتها بل ويشققها وفق ما يناسبه ويزيح من فوقه كدساً ثقيل الوطء عليه دون أن يصاب العنق الطري الغض بأي خدش ولو كان صغيراً رغم هذا الإمتداد (العنيف الهادىء) . . ! ؟

أذكر أني أردت بذر حب من البطيخ والخيار في تربة بلغ من صلابتها أن حاولت حفرها بإصبعي فما استطعت ولم يمكنني البذر إلا باستخدام مجرفة ، وبعد أيام قليلة إذا بذلك الحب الرقيق الناعم يندفع إلىٰ فوق مقتحماً خشونة التراب وتماسكه مصدعاً سجنه المظلم المسدود ملقياً سقفه فتاتاً علىٰ جوانبه . . !

تبارك الله فالق الحب والنوىٰ . . !

---

(٨) ـ الآية ٢٦ سورة عبس .

وقطـرات ترتـوي منهـا الجـذور فترتفع إلىٰ الأغصان زلالاً يتحول هو أيضاً إلىٰ سوائـل أي منهـا مختلف الطعم يمتـد في عروق الثمار ، فثمرة سائلها قليل الحلاوة وأخـرىٰ سائلهـا حلو وثـالثـة سائلهـا أحلىٰ ، وفي كل منهـا تمتـزج الحـلاوة بقـدر من الحموضة يقل في ثمرة ويكثر في سواها . . !

وحتىٰ لون السـائـل الممتزج بخليط من الحلو والحامض يختلف شكلاً بقدر ضئيل من ثمرة لأخرىٰ ، ثم إن الثمار المكتنزة بالسائل الخاص بها تختلف شدة وليناً في كل ثمرة . . !

لماذا كل هذا الإختلاف بين واحدة وأخرىٰ . . ؟

لو كانت آلة صنعناها نحن بأيدينا وقدر لها أن تنتج ثماراً لكان الحاصل كله متشابهاً يتشهاه صنف واحد قليل العدد من الناس لأنه يوافق مزاجهم المحبذ له ويسد حاجـاتهم إليـه إشبـاعـاً لنقص غذائي ، فيـما يحرم منه سائر الناس وهم كثرة أصناف ووفرة عدد . . !

أما الشجرة التي لم نصعنها نحن ولم تكلفنا أي قدر من المواد الخام كما تتطلب الآلة ذلك اللهم إلا الماء وتناله أحياناً دون واسطة منا فإن ثمارها معدة لجميع الآكلين وليس لصنف واحـد فقـط حيث يجري تحضـير نصيب كل الأصناف تلقائياً وهي بعد عالقة بالأغصان وحسبما يروق لأمزجة الجميع ويشبع الحاجات علىٰ اختلافها . . !

كل هذا والماء واحد . . !

ألم تر ذلك . . ! ؟

ألايستلفت النظر . . ! ؟

سبحانك ربي وبحمدك . . !

كم شجرة في الأرض ذات ثمر ذلك صنيعها . . ! ؟

وكم واحدة أميتت بعد أن أدت ما أريد منها . . ! ؟

وكم واحدة أنهضت بدلها لتكمل الدور . . ! ؟

وكم واحدة ستأتي علىٰ هذا الطراز العجيب . . ! ؟

أكثر الناس لم يسألوا أنفسهم مرة :

هل إن أول البشر وآخرهم لو كانوا جميعهم بعقل واحد قادرون على صنع شجرة . . ! ؟

لو فكروا بوعي وحكموا بإنصاف لما وجد عاقل منهم غير هذا الجواب القاطع :

بل إنهم اعجز عن خلق ورقة . . !

صورة وصورة

إن عيناً ترى تلك المشاهد المبثوثة حواليها ولا يستدعي النظر منها أي تفكير بالخلق واعجازه والخالق وعظمته فقل لي بربك أي مشاهد تستجيش التفكير لدى صاحبها . . ! ؟

أليست تفاهة بلا مثيل أن يهتز إنسان للوحة صماء فيها صورة أراد راسمها أن يحاكي بعض مشهد في حياتنا وهو إذا ألقى نظره على المشاهد الحية في آفاق الكون الرحبة يمر بلا مبالاة وكأن لم ير شيئاً يستدعي التفكير . . ! ؟

إن هذا يحصل بكثرة في زمننا . . !

كم لوحة صماء على ذلك النحو نالت إشادة المغفلين ونظر إليها كثيرون منهم بكل الاعجاب . . ! ؟

وكم صاحب لوحة مجد من قبل المغفلين بما لم يمجدوا به خالق المشهد المرسوم عليها . . ! ؟

وللتمثيل أذكر أن امرأة عرضت لوحة رسمت فيها صورة حصان قد اطراها المغفلون على (بديع فنها) و (رقي لمساتها) و (جمال حصانها) بقدر يفوق إطراء المؤمنين لخالق الحصان . . ! !

مشهد حي رائع ومعجز

يقول تعالىٰ «**فأنبتنا فيها حباً**»[٩] .

بعد صب الماء وانشقاق التربة يخرج النبات متفتحاً بإذن ربه ليؤدي بعد ذلك ادواراً لا تحصىٰ ويقوم بوظائف عديدة في حياتنا فنجد الحصيلة بعد الإنبات «**عنباً وقضباً . . وزيتوناً ونخلاً . . وحدائق غلباً . . وفاكهة وأباً . . متاعاً لكم ولأنعامكم**»[١٠] .

والعنب المأكول وعصيره من دبس وخل وشراب هو ما هو في حياة الناس في مختلف بقاع الأرض علىٰ تعاقب العصور . . !
والقضب ما أكل من النبات رطباً كالقثاء والخيار وهو ما هو كذلك . . !
والزيتون المأكول وزيته المعتصر هو ما هو أيضاً . . !

والنخل بتمره المأكول وعصيره من دبس وخل ونواه المتخذ علفاً والمعتصر زيتاً والملتمس بذراً وبسعفه المعمول أوعية وبسطاً وأسرة وأقفاصاً والداخل في صناعة الورق وبجذعه النافع في بناء البيوت والمفيد وقوداً وبفسائله التي يتكاثر بها النخل وينتشر وسوىٰ هذا وذاك من فوائد هو ما هو . . !
وحدائق غلباً أي ذات اشجار ضخمة وهي ما هي بهجة وعطاء علىٰ أوسع نطاق وأمكن حال . . !

وفاكهة أخرىٰ كثيرة مما يستطاب لدىٰ قوم ويستغني عنه آخرون ويتوفر لهؤلاء ويندر لدىٰ أولئك ويزخر به بلد فيما يكاد لا يعرفه بلد سواه . . !

---

(٩) ـ الآية ٢٧ سورة عبس .
(١٠) ـ الآيات ٢٨ ـ ٣٢ سورة عبس .

والأب هو مرعىٰ البهائم من العشب . . !

وهنا ملاحظة . . إن النص القرآني قد حدد أغذية نباتية بأسمائها وأجمل أخرىٰ ، والمحددة كالعنب والقضب والزيتون والنخل هي ما يكاد لا يستغني عنه إنسان ويحرص علىٰ الإلتذاذ به كل شخص ويحمل إلىٰ بلاد بعيدة لا تجود تربتها منه بما يكفي سكانها علىٰ أنه مواد أساسية في الغذاء عموماً . . !

أما الحدائق الغلب والفاكهة والأب فمما يستغني عنه كثيرون ولا يحرص الجميع علىٰ الإلتذاذ به وهي لا تدخل في التجارة نقلاً إلىٰ بلاد بعيدة إلا بقدر ضئيل نسبياً ، وفي أحسن الأحوال لا ترقىٰ إلىٰ ما عليه العنب والقضب والزيتون والنخل لأنها مواد كما يبدو ليست أساسية في غذاء الإنسان عموماً باستثناء العشب الذي هو غذاء أساسي للبهائم ، ولكن هذه الحيوانات لا تتوفر لدىٰ كل إنسان ولا بأس إن استغنىٰ عنها كثيرون لأن الطيور والأسماك والدواجن تعوض . . !

وهناك ملاحظة أخرىٰ . . فقد قال سبحانه «ونخلاً» ولم يقل «وتمراً» مماثلة لما ذكر في الآية «وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً» وقد تسألني : لم لم يقل كرمة مثلاً بدل ذكر ثمرها وهو العنب . . ؟ ذلك لأن نفع العنب هو الغالب في الكرمة إن لم يكن الأوحد . . ! أما التنويه بالنخل بدلاً من الإقتصار علىٰ التمر فلعله أوضح دلالة علىٰ أن النخل لا يقتصر عطاؤه علىٰ التمر لأنه ذو منافع جمة ، فالتمر ليس هو النفع الأوحد في النخل وإنما هناك أيضاً الجذوع والسعف والكرب والفسائل . . !

أين هم الناظرون حقاً إلىٰ الإبداع والجمال من هذه المشاهد القريبة من الحس تملأ العينين صباح مساء . . ! ؟

أين هم المتأملون في لوحة صماء ومشاهد الحياة والكون تفيض حولهم من الحكمة اعلاها للمتفكر ومن الرحمة ألصقها بالنفس ومن الغنىٰ ما لايجود به إلا مالك الملك الغني الحميد . . ! ؟

رؤية المألوف بوعي وتفهم

وفي الخطاب القرآني حث قوي للإنسان كي ينظر إلىٰ مألوفات كثيرة في

هذا الكون ويتفكر في شأنها ويقيم معها صلة تفهم دائمة لا أن ينسيه ألفها الإلتفات إلىٰ إشاراتها الواضحة ودلائلها القوية وبراهينها الساطعة لأن هذا النسيان صفة المغفلين وهو لا يليق بعاقل يتحسس المعاني ويسبر أغوارها وينقاد لمؤداها . . !

أنظر . . يقول تعالىٰ :

«قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق»[11] .

«أفرأيتم ما تمنون .. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون»[12] .

«أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين»[13] .

«ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم»[14] .

«ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً . . والله أنبتكم من الأرض نباتاً . . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . . والله جعل لكم الأرض بساطاً .. لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً»[15] .

---

(١١) ـ الآية ٥٩ سورة يونس .

(١٢) ـ الآيتان ٥٨ و ٥٩ سورة الواقعة .

(١٣) ـ الآية ٧٧ سورة يس .

(١٤) ـ الآية ٦٥ سورة الحج .

(١٥) ـ الآيات ١٥ ـ ٢٠ سورة نوح

«الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترىٰ في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترىٰ من فطور . . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير»(١٦) .

«ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلىٰ أجل مسمىٰ وأن الله بما تعملون خبيراً»(١٧) .

«ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون»(١٨) .

«ألم يروا إلىٰ الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون»(١٩) .

«ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترىٰ الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكادسنا برقه يذهب بالأبصار»(٢٠) .

«وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترىٰ الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»(٢١) .

---

(١٦) - الآيتان ٣ و ٤ سورة الملك .

(١٧) - الآية ٢٩ سورة لقمان .

(١٨) - الآية ٨٦ سورة االنمل .

(١٩) - الآية ٧٩ سورة النحل .

(٢٠) - الآية ٤٣ سورة النور .

(٢١) - الآية ١٤ سورة النحل .

«أفــرأيتم النــار التي تورون . . أأنتم أنشأتم شجـرتهـا أم نحن المنشئون»[٢٢] .

«أو لم يروا أنــا خلقنــا لهم مما عملت أيـدينـا أنعـاماً فهم لها مالكـون . . وذللنـاها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون»[٢٣] .

«ألم يروا كم أهـلكنــا من قبلهم من قرن[٢٤] مكنـــاهم في الأرض مالم نمـكـن لكـم وأرسلنــا عليهم السـماء مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين»[٢٥] .

رؤية غير المألوف مقارنة

وفي الخطـاب القـرآني تنبيـه للإنســان إلى غير المألـوف لأجل أن يقارنه مع المألـوف المنظـور ومن ثم يتفكـر في الخلق واقتدار الخالق على أن ينتزع من عباده أجل نعمه ويحل بدلها نقائض هي نقم لا تطاق .

---

(٢٢) ـ الأيتان ٧١ و٧٢ سـورة الواقعة .

(٢٣) ـ الأيات ٧١ ـ ٧٣ سـورة يس .

(٢٤) ـ أمم كثيرة بقيت آثارها ماثلة للعيان ، وقد دأبت دول عديدة في العصر الحديث على حفظ هذه الأثار في متاحف خاصة لتصان وتحفظ وتمكن رؤ يتها لأكثرية الناس في الحاضر والمستقبل . . !

وهذا الأمر يجعل التعبير القرآني «ألم يروا» أفضل كثيراً من «ألم يسمعوا» فلو علم الله تعالى أن آثار الأقوام السابقين ستندرس لقال «ألم يسمعوا» ولكنه علم أنها ستبقى فقال «ألم يروا» ورؤ ية آثار قوم عاشوا قبلنا بآلاف السنين أبلغ من الإقتصار على سماع أخبارهم التي قد نتشكك في صحة نقلها وبالتالي لا ننتفع . . ! !

(٢٥) ـ الأيـة ٦ سـورة المائدة .

أنظر . . يقول تعالىٰ :

«ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . . وما ذلك علىٰ الله بعزيز»[٢٦] .

«أفلم يروا إلىٰ ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب»[٢٧] .

«ألم تر إلىٰ ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً»[٢٨] .

«قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلىٰ يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلىٰ يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون»[٢٩] .

«أفرأيتم ما تحرثون . . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . . لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون»[٣٠] .

«أفرأيتم الماء الذي تشربون . . أأنتم أنزلتموه من المزن أم

---

(٢٦) - الآيتان ١٩ و ٢٠ سورة ابراهيم .

(٢٧) - الآية ٩ سورة سبأ .

(٢٨) - الآية ٤٥ سورة الفرقان .

(٢٩) - الآيتان ٧١ و ٧٢ سورة القصص .

(٣٠) - الآيات ٦٣ - ٦٥ سورة الواقعة .

نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون»[٣١] .

«قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين»[٣٢] .

«قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين»[٣٣] .

استكبار علىٰ البينات

والخالق عز وجل يعلم ابتداء أن هناك قسماً من البشر يرون بأعينهم جيداً ولكنهم لاينزلون عند مقتضىٰ الحق المستبين وقد عرض في كتابه الكريم لمحات عنهم هي :

إخبار بما سيكون عليه سلوك البعض .

وتحذير لصادق النية من السقوط .

وإدانة للإستكبار علىٰ البينات .

وفضح لتهافت هذا النهج الضال .

وتوعد رهيب للمستكبرين بأسوأ منقلب في الدنيا والآخرة .

أنظر . . يقول تعالىٰ :

«أو لم يروا إلىٰ الأرض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم . . إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين»[٣٤] .

---

(٣١) ـ الآيات ٦٨ ـ ٧٠ سورة الواقعة .

(٣٢) ـ الآية ٣٠ سورة الملك .

(٣٣) ـ الآية ٤٠ سورة الأنعام .

(٣٤) ـ الآيتان ٧ و ٨ سورة الشعراء .

«أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون»[٣٥] .

«وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم . . فذرهم حتىٰ يلاقـوا يومهم الـذي فيـه يصعقون . . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولاهم ينصرون»[٣٦] .

«وإن يروا كل آيـة لا يـؤمنـوا بها حتىٰ إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين»[٣٧] .

«ولقـــد أرينـاه آيـاتنـا كلهـا فكـذب وأبىٰ . . قال أجئتنـا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسىٰ»[٣٨] .

«ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون»[٣٩] .

«قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم علىٰ بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً»[٤٠] .

«خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون»[٤١] .

---

(٣٥) - الآيـة ٦٧ سـورة العنكبوت .

(٣٦) - الآيات ٤٤ ـ ٤٦ سـورة الطور .

(٣٧) - الآيـة ٢٥ سـورة الأنعام .

(٣٨) - الآيتان ٥٦ و٥٧ سـورة طه .

(٣٩) - الآيـة ٨١ سـورة غافر .

(٤٠) - الآيـة ٤٠ سـورة فاطر .

(٤١) - الآيـة ٣٧ سـورة الأنبياء .

«سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه علىٰ كل شيء شهيد»[٤٢] .

«وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون» [٤٣] .

«وأن أتلوا القرآن فمن اهتدىٰ فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين . . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون»[٤٤] .

* * *

ولقد بلغ ماورد من الأفعال عاين ونظر ورأىٰ ومشتقاتها في القرآن الكريم حوالي ألف وبضع وثمانين كلمة كي يفهم الإنسان بذلك الإرشاد الرباني أنه باستهداء عينيه يستعين بمنفذ هائل للاستيعاب العلمي الصحيح يؤدي به دون شك إلىٰ التماس الاعتقاد الأمثل .

وكلما أحسن المرء استخدام عينيه استطاع ملازمة الصواب بشكل أوثق مجانباً الضياع في المتاهات ومبتعداً عن هدر جهوده سدىٰ ومختصراً الوقت الطويل في البحث وبالغاً الهدف من أنور المسالك .

---

(٤٢) ـ الآية ٥٣ سورة فصلت .

(٤٣) ـ الآية ٤٨ سورة الزخرف .

(٤٤) ـ الآيتان ٩٢ و٩٣ سورة النمل .

العقل

العقـل هو بمثـابة الدليل فلولاه لما أجدىٰ سمع ولما أغنىٰ بصر ، فسمع بلا عقـل هو لحمـة صماء ، وبصـر بلا عقـل هو جنـون مطبق ، وتستطيـع أن تجعـل هذا الدليل يؤدي مهامه علىٰ أحسن مايرام باتباعك لوازم معينة مثل :

حسن التلقي للمسموع والمنظور والمحسوس .

والتفكير بحرية دون تأثير من الهوىٰ .

والحرص الشديد علىٰ ثمرة الأداء العقلي .

واغناء هذا الجهاز بالعلم المتواصل .

وتستطيع أن تجعله لايؤدي مهامه بشكل طبيعي بمجانبتك اتباع تلك اللوازم .

وحتىٰ إذا أدىٰ العقـل مهـامـه علىٰ أحسن ما يرام واعطاك حصيلة التفكير بمسألـة ما فإنـك قد تقف أمـام خيارين : أولهما أن تنزل عند مقتضىٰ الحصيلة تعاملاً منك مع الأشياء بحرص وموضوعية وسداد ، وثانيهما أن ترفض النزول عند مقتضىٰ حصيلة التفكير اصغاء لبقية هوىٰ وتأثراً ببريق شهوة .

ففي الخيار الأول تكون متبعاً للحق بإقدام لاتبالي معه بشيء ولو كان نفيساً لأنه لا أنفس من اتباع الحق ، وفي الخيار الثاني تكون مفضلاً الذي هو أدنىٰ علىٰ ما هو خير وهذا ضلال مبين .

أما اعاقة دور العقل فهي معضلة يوقع المغفلون أنفسهم فيها حاسبين أنهم قد أحسنوا التصرف فتراهم لا يسمحون لعقولهم باستقبال شيء من المسموع والمرئي والمحسوس إلا بعد تعكيره كأن يتلقونه محاطاً بحكم مسبق غير صحيح أو محملاً بقدر معين من مشاعر الضيق والتذمر والكره والإستثقال .

وإنسان كهذا هل يبقىٰ غافلاً بسبب إعاقته دور العقل . . ؟

كلا بالطبع . . !

كيف يظهر له إذن فيما بعد أن حصيلة التفكير العقلي كانت شوهاء . . ؟

أولاً ـ إنه يعلم ابتداء في دخيلة نفسه بالتأثير الذي مارسه علىٰ عقله فأعاق دوره وجعل الحصيلة تأتي غير سليمة .

ثانياً ـ يتبين له اختلال حصيلة التفكير اثناء اعتمادها في التطبيق العملي إذ يكتشف أنها تزيد الإعوجاج سوءاً .

ثالثاً ـ تذكير الناصح وارشاده يكونان كالمرآة تظهر لمعيق التفكير الوضع كما هو فيرىٰ الخطأ بكل ملامحه ويقف علىٰ الصواب بكل سناه .

ويكون الغافل هنا إزاء خيارين أيضاً إن شاء تدارك الخطأ وأصلح الإختلال فيغدو كالمتوهم بعد زوال الوهم عنه وإن شاء الإصرار علىٰ حاله رغم مايعتورها من أخطاء ورغم مايهددها من مخاطر كان ملقياً نفسه في الهلاك بعناد .

وفي القرآن الكريم تصور كامل لأهمية العقل الإنساني وطبيعة المهام التي يؤديها والتبعات المترتبة علىٰ حصيلة التفكير سواء كان حسناً أم غير حسن أو إن أخذ بحصيلة هذا التفكير أم ذاك أو لم يأخذ بها .

كيف يفهم القرآن دور العقل في حياة الإنسان . . ؟

آيات لقوم يعقلون

يقـول تعـالىٰ «**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**»(١) .

لقـد أودع الله تعـالىٰ هذا الكون العظيم آيات تدل عليه وتشهد أنه الخالق المبدع المدبر الذي لا إله إلا هو ، ففي خلق السموات والأرض دلائل لا تحصىٰ منها البعيد جداً والقريب الملاصق ولكن عالم السماوات والأرض واسع جداً وكثير المحتوىٰ فكيف نتفكر فيه . . ؟

هنـا تدخـل الخـالق سبحـانـه فعـرفنا نماذج للظواهر الجديرة بالتفكير وهي وحـدهـا أمثلة تملأ حواس الإنسـان وهـو إذا تفكـر فيهـا بإمعـان هزت اعـماقـه هزاً ، فاختـلاف الليـل والنهـار وحـده آيات لذوي الألباب وكذلك السفن الجارية في البحر تنقـل النـاس وتحمـل أثقـالهم وكذلك الماء المنزل من السماء فتحيىٰ به الأرض الجدباء القاحلة وكذلك إيجاد الدواب وتوزيعها في مختلف الأماكن وكذلك نظام حركة الرياح وكـذلـك السحـاب المحمـل ببخـار المـاء المتصاعد من منطقة تستغني عنه ليساق إلىٰ منطقة تتلهف إليه عطشاً .

ومن رحمـة الـرحمـان الرحيم أن طلب منا التفكير بآيات لايستعصي التبصر فيها علىٰ كل إنسان عاقل قل علمه أو كثر ، فقليل العلم يجد ضالته في معرفة الخالق

---

(١) ـ الآيـة ١٦٤ سـورة البقرة .

سهلة المنال ، وكثير العلم يجدها كذلك ولكنه يكون أخبر بها وجد واعرف وأشد إيماناً وأرسخ يقيناً وأخشىٰ للخالق .

فالعقل هو مناط التفكير بكل ظواهر الخلق والإبداع والتدبير المتاحة للإنسان ، ومن ذا الذي يزعم أن تلك الظواهر بعيدة عن تناول الإنسان وهي تملأ حواسه كلها وتلتصق بحياته كالتصاق تعاقب الليل والنهار وما فيه من منافع للحياة وكالتصاق انتقاله بحراً من جهة إلىٰ أخرىٰ فوق الأرض ابتغاء العيش الأصلح والفوائد الأجزل وكالتصاق المطر بحياة الإنسان والزروع التي يأكل ثمارها ويتاجر والحيوانات التي منها يأكل ويشرب ويلبس ويدخر وعليها يركب ويصول ويزهو وينتقل وبها يثري ويتنعم ويتمكن ويعز وكالتصاق الدواب بحياته وكالتصاق الرياح وكالتصاق السحاب .

فمن فكر واهتدىٰ فهو مكرم العقل ومن لم يفكر فشأنه كالبهائم تأكل وتشرب وتلتذ لا تدري ما يصير إليه شأنها في نهاية المطاف ، ومن فكر ولم يهتد فهو أضل من البهيمة إذ أنه فكر ولكنه لم ينتفع بها عقل فراح يأكل ويشرب ويلتذ وهو لا يعبأ بسوء العاقبة .

آيات ألصق بالنفس

يقول تعالىٰ **«وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ماتشكرون . . وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون . . وهو الذي يحي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون»**(٢) .

---

(٢) - الآيات ٧٨ - ٨٠ سورة المؤمنون .

أما تفكرتم بالسمع كيف أنشىء بهذا الإبداع المحسوس لديكم بكل تفاصيله . . ! ؟

أمـا لاحظتم كيف يؤدي وظـائفه . . ! ؟ أما قادكم ذلك إلىٰ أن تتفكروا بخالق هذا الجهاز . . ! ؟ أم أن هناك خالقين كثراً لأمثاله ولما هو أحسن منه . . ! ؟

والبصـر كيف أنشىء . . ! ؟ أم ليس فيـه ما يستـدعي التفكـر بانشـائـه . . ! ؟ لو توقف عن أداء وظـائفـه لسقـط الإنســان في حفـرة الظلام لا يرىٰ ما هو خارجها إلا بوصف من غيره سماعاً أو وحي خيال ودون الإحساس بموحيات الرؤ ية لا سيما مظاهر الجمال . . ! إن إصابة العين بأدنىٰ ضرر تبين مدىٰ أهمية بقائها سالمة . . !

والفـؤاد بها يختـزنـه من مشـاعـر ومعانٍ وقيم وما يتحسسه من ملامح وصور وأشياء وما يتصرف به من هذه وتلك في أحواله كلها خلال الوضع المعتاد وأثناء الموقف المفـاجىء ، ذلـك كله أمـا يدعو العاقل إلىٰ التفكر في هذه العجائب وهي تتفاعل في لحمة بين جوانحه هو . . ! ؟

لو تفكـر الإنســان في هذه النعم وحملهـا علىٰ الـوجه الصائب لشكر الخالق المنعم المفضل ولكن «قليلاً ما تشكرون» . . !

وهـو سبحـانه الذي بثكم فوق الأرض وقد هيأها لحياتكم وجعل تكوينكم الإنساني متوافقاً كذلك مع كل ما احتواه الكوكب ومن ثم بعث الرسل بهداياته لينظر كيف يعمل الناس ، ويا أيها الإنسان اعمل ما شئت فإنك إليه صائر في النهاية فتحشر يوم الحســاب لتأخـذ ما تستحقـه دون ظلم بل للإحســان خير مكـافأة في الجنان ونعم الجزاء وللإساءة شر عقاب في جهنم وبئس المهاد . . !

وهـــو جل جلالـــه المحي والمميت ، فكم حيـاة تحدث لمخلوق في اللحظـة . . ! ؟ وكم إمــاتـة تحدث لمخلوق في اللحظـة . . ! ؟ والبشـر بأجمعهم مهـما بلغ اقـتـــدارهـم أيـتسنىٰ لهم خلق نملة . . ! ؟ ورغم ما يتأتىٰ لهم من قوىٰ وتمكن هل بمقدورهم انتزاع الحياة من حي اللهم إلا التسبب بإماتته . . ! ؟

واختلاف الليل والنهار المشابه لاختلاف الحياة والموت هل يقدر عليه أحد سوىٰ المتفرد بالخالقية . . ! ؟ إذا كان ثمة من يقدر سواه عز وجل علىٰ مثل هذه الأفعال فها هو ذا الليل آتٍ إليه والنهار مقبل عليه فليحدث فيهما أي فعل يبرهن علىٰ عدم وجود حامٍ يدفع عنهما الضرر . . ! ؟

وله أن يفكر ويدبر مع كل البشر بكل ما اعطوا من علوم وقدرات ويسألوا أنفسهم هل أن شيئاً من ذلك يمكن حدوثه لظاهرتي الليل والنهار . . ! ؟

«أفلا تعقلون» . . ! ؟

إذا تفكرتم في كل الظواهر الكونية الأكثر التصاقاً بالنفس وتأدىٰ إليكم أن خالقاً لا إله إلا هو مبدعها ومبدعكم ويتولىٰ تصريف كل الشؤون في هذا الكون الهائل ألا تؤمنون . . ! ؟

لا جرم أن العاقل يؤمن بلا تأخير . . !

وإذا لم تنقادوا إلىٰ إله تلك بعض ملامح اقتداره وتلك بعض مخلوقات ملكه فلمن أنتم تنقادون . . ! ؟

أفلا تعقلون . . ! ؟

لقد أوتيتم عقولاً فأين ذهبت عقولكم ياعقلاء . . ! ؟

نموذج للطغيان العقلي

يقول تعالىٰ «**قال فرعون وما رب العالمين . . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . . قال لمن حوله ألا تسمعون . . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون**»[٣] .

(٣) ـ الآيات ٢٣ ـ ٢٨ سورة الشعراء .

«وما رب العالمين» . . ؟ إنه تساؤ ل لا يخلو من سخرية واستهزاء ، فكيف يعقل أن حاكماً وليس واحداً من عامة الناس لم يعرف بعد رب العالمين . . ! ؟

فأتـاه جواب قوي من موسىٰ يبـدد السخـريـة والإستهـزاء ويدمغ المتسائل بأقبح الجهل والغفلة ، قال له موسىٰ إن رب العالمين هو «رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين» فالسماوات والأرض وما بينهما كون منظور تطاله العين منذ أوائل عهدها بالحياة وهو مجال رحب لمن يبغي الإيمان بالخالق سبحانه ويلتمس اليقين . . !

الآن تتساءل عن رب العالمين يا هذا . . ! ؟

ألم تمتد عيناك إلىٰ ظواهر الكون طويلاً وبكثرة . . ! ؟

فأين ولىٰ عقلك المفكر وأنت ترىٰ آياته . . ! ؟

إنه الجواب المفحم . . !

فالتفت فرعون إلىٰ من حوله متلافياً الإرتباك وهو يقول «ألا تسمعون» . . ! ؟

موسىٰ لم يكتف بملاسنتي وأنا ربكم الأعلىٰ وإنما راح يعلمني سبيل الدين الصحيح ويشخص بالربوبية إلىٰ مقام يعز نواله علىٰ بشر مهما كان . . !

وقبـل أن يفيق فرعـون من الصـدمـة جاءته أخرىٰ أشد وأعنف عندما تابع موسىٰ جوابه قائلاً :

«ربكـم ورب آبائكم الأولين» . . !

إنه ربكم جميعاً وليس فرعون هو الرب كما يزعم ظلماً بل هو أيضاً واحد من عبيـده . . ! أمـا زعم فرعـون الآخـر بأنـه توارث الـربـوبية عن آبائه فهو ادعاء غير صحيح كذلك لأن الله تعالىٰ «رب آبائكم الأولين» . . !

مادت الأرض تحت أقـدام الطـاغية حيث لا جواب يسعفه بعد أن شعر أنه لا يسـاوي جنـاح بعـوضـة ، وهنـا لم يملك إلا الكلام الرخيص ، قال لمن حوله «إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون» علهم لايصدقون موسىٰ وخوفاً من أن تفعل قوة الحجج التي ساقها إليهم فعلها فتزلزل كيان فرعون السياسي والمعنوي .

وراح موسىٰ يستكمل جوابه غير ملتفت إلىٰ تهور فرعون قال «رب المشرق والمغـرب ومـا بينهـما إن كنتم تعقلون» إنـه يأتي بالشروق في موعد لا يختلف ولا يتقدم وكذلك الغروب فتستوي الحياة بهذا النظام الكامل الذي ترونه ، هل تقدرون علىٰ مثله . . ! ؟

يا فرعـون ليس لك من الملك إلا الشعب المصـري تتسلط عليه ظلماً وليس لك إلا رقعة وادي النيل تستثمرها بالباطل أما تستحي أن تنازع الربوبية من هو خالق السماوات والأرض وبيده مقاليد كل شيء . . ! ؟

«إن كنتم تعقلون» . . !

لو استفـدتم من عقـولكم لما تجاهلتم رب العـالمين وآياته تملأ الكون المحيط بكم ولما أطقتم الصبر علىٰ ادعاء فرعون الربوبية ولما صدقتم أنه سليلها . . !

وإن كنتم تعقلون فهذه حجج قدَ ألقيت أمامكم وقد رأيتم كيف أفحم بها الطاغية فلم لا تستهدون بها بعد أن جاءكم الحق المبين . . ! ؟

أم أنكم لا تريدون أن تعقلوا . . ! ؟

«إن كنتم تعقلون» . . قالها موسىٰ وتركهم إلىٰ تدبر شأنهم فمن عقل منهم فهو الإنسان ذو السمت العالي ومن لم يعقل متشبثاً بمصالح صغيرة يقدمها علىٰ رضا الله تعالىٰ وخائفاً من سطوة فرعون بدل أن يهاب الخالق الكبير المتعال فهو وشأنه . . !

متاع الحياة وزينتها

يقـول تعـالىٰ **«وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقىٰ أفلا تعقلون»**(٤) .

---

(٤) - الآيـة ٦٠ سورة القصص .

ما اعطاكم الله تعالىٰ من نعم وأفضال وتمكن فمتاع الحياة وزينتها . . . !
فلا ينبغي أن تولـوا المتـاع الـزائـل ببر يقـه الذاهب أكثر مما يناسبه لئلا يؤدي الإهتمام الزائد إلىٰ تخريب الإهتمام بمسألة حسن المصير التي تستحق أن يكرس لها كل العمر . . !

وضبـط هذا السلوك باعطـاء متاع الحياة وزينتها الإهتمام المناسب لا يتسنىٰ إلا باتبـاع هدي الـرسـل وتطبيق المنهج الإلهي ، أمـا بغير هذا الإسترشاد فالإنسان يضيع بعد أن يستحوذ عليه حب المتاع الفاني ويبلغ منه حد التهالك علىٰ حفنات هي جد تافهـة مهـما تزن في معيـار المتـاع وزينتـه لأنهـا لابـد فانية ، بل الأدهىٰ والأمر أن يضحي بحياته كلها لنيل حفنة أي حفنة مهما كان وزنها في متاع الحياة وزينتها فهي لا تساوي شيئاً يذكر . . !

ماذا تفعل بالحفنات ياهذا وأنت سائر إلىٰ الموت وتاركها وراءك . . ! ؟

لا جواب . . !

لأنه لم يفكر فيما أقدم عليه ولم يزن الأمور بعقل رشيد . . !

فهو لو التجأ إلىٰ تفكير واحتكم إلىٰ عقل لما سقط في تلك العماية . . !

ثم إن المنهـج الإلهي يبـين للنـاس أن ما عنـد الله خير وأبقىٰ ويقنعهم بهذا أشـد الإقنـاع حتىٰ يوصلهم إلىٰ الاعتقـاد بأن متـاع الحيـاة الـدنيا كله لايساوي حبة خردل إن لم يكن مأخوذاً بحق ومستعملاً بحق وغير مفضل علىٰ النعيم الأبدي . . !

العاقل يقتنع بأن ما يعطيه المنهج الإلهي من منافع خير وأبقىٰ سواء كان في الحياة الدنيا أو في الدار الآخرة ، المتاع الدنيوي المتنعم به بفضل تطبيق المنهج الإلهي هو حلال طيب في الـدنيـا يتبعـه جزاء كريم خالـد في الآخـرة ، أمـا المتـاع الـدنيوي المتحصـل بتطبيق المنـاهـج البشـريـة فهـو حرام خبيث في الـدنيا يتبعه حساب عسير وعذاب شديد في الآخرة . . !

«أفلا تعقلون» . . ! ؟

إنها حقائق واضحة لا يتردد العاقل في تفهمها والتمسك بها . . !

فما المانع من تصرف سليم تجاه تلك الحقائق . . ؟

إنه العبث بالعقل وتعويقه عن الأداء الطبيعي . . ؟

أفلا تعقلون . . ! ؟

إنه تساؤ ل عنيف حاد وثقيل يهز الاعماق . . !

فهو ضروري هكذا عله يوقظ الغافل ويقمع العبث ويرد المهزوم ويذكر المرء بجسامة الإهمال وفداحة التمادي وسوء العاقبة . . !

أفلا تعقلون . . ! ؟

تساؤ ل مهما احتوىٰ من قسوة فهو فياض بالرحمة . . !

الطبيب يحنو علىٰ المريض ويعطف ويكون به رحيماً ، ولكنه عندما يرىٰ بؤ رة يتفشىٰ منها الداء إلىٰ سائر انحاء الجسم مهددة بالخطر حياة المريض لايتردد في أن يمسك بالمشرط ويجتث تلك البؤ رة بحسم . . !

أما الله تعالىٰ فهو أرحم الراحمين ، إنه خالق الرحمة ورب الرحماء . . !

إنه عز وجل يعالج مرض العقل المهدد لكل الكيان الإنساني بكلمات فيها الهداية والنور والسلامة ، فالحريص علىٰ قيمة العقل معافىٰ لايفرط بالإرشاد الرباني ومن لم يبال بتفاقم المرض فهو لا يستحق الأسىٰ . . !

لا تأس علىٰ إنسان يطمس عقله تمادياً . . !

أفلا تعقلون . . ! ؟

إن عقلتم فبها وإن لم تعقلوا فيكفيكم خزياً اصراركم علىٰ طمس العقل وهو نعمة جلىٰ قد ميزكم الخالق بها علىٰ مخلوقات كثيرة . . !

الدنيا أم الآخرة ؟

يقول تعالىٰ «**وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون**»(٥) .

---

(٥) - الآية ٣٢ سورة الأنعام .

كيف لا تكون الحياة الدنيا دار لعب ولهو قياساً إلىٰ الآخرة . . ؟

فالدنيا كم عمرها . . ؟

أهو محسوب بعمر الأرض . . ؟

أم أنه بعمر البشرية . . ؟

لا تذهب بعيداً وراء الأرقام أيها الإنسان فما شأنك وملايين السنين أمضتها الأرض حتىٰ تكونت مستقراً يصلح لحياتنا . . ! ؟ وما شأنك وآلاف السنين أمضتها البشرية عيشاً فوق الأرض ومازالت . . ! ؟

ما يعنيك من عمر الدنيا هو سنوات تمضيها أنت في ساحتها لا تزيد في الغالب علىٰ مئة . . !

مئة سنة . . !

ثلثها نوم . . !

وثلثها سعي لأجل القوت . . !

أما الثلث المتبقي فجزء منه يذهب في خدمة البدن كالتنظيف والوقاية وجزء يحتله المرض ومعاناة الآلام وجزء يستهلك اهتماماً بالبيت والأسرة وجزء ينصرم حلاً للمشاكل والخصومات وجزء تستغرقه التجارب الكثيرة وجزء يتطلبه التكوين التربوي للإنسان وتحصيل العلم والثقافة وهكذا إلخ . . !

فقل لي بربك :

كم يخلص للإنسان صفاء بلا كدر من هذا العمر . . ! ؟

أهو أيام . . ؟ أسابيع . . ؟ أشهر . . ؟ سنة . . ؟

ولأجل سنة هي زمن قصير نقضي الدنيا سدىٰ . . ! ؟

ولأجلها نخسر وجودنا كله في امتحان المصير . . ! ؟

كيف يكون اللعب إذن . . ! ؟

وبأي شكل يكون اللهو . . ! ؟

بل حتىٰ لو عاش الإنسان مدىٰ الحياة الدنيا في اللعب واللهو والغفلة فهو غابن لنفسه . . !

لأن عمر الدنيا وإن بلغ آلاف السنين وملايينها لا يساوي شيئاً يذكر قياساً إلىٰ الدار الآخرة حيث الخلود والأبدية . . !

دار كلها معاناة واختبار إلىٰ جانب اللهو واللعب لا تشبه دار حساب وجزاء لا عمل فيها ولا استدراك ولا تعب . . !

الدار الآخرة عند الأتقياء خير من الدنيا . . !

الأتقياء نظروا وفكرت عقولهم ووازنوا ثم اختاروا الحسنىٰ رغم بريق الدنيا وكثرة إغراءاتها وشديد ضغوطها . . !

فضلوا اجتياز الامتحان رغم ما فيه من ثقل وعسر وصعاب علىٰ الركون إلىٰ عمر الدنيا القصير لأنهم تأكدوا أن الدنيا وإن طال أمدها فهي فانية وأن دار الجزاء لابد آتية حيث التكريم وحسن المآب . . !

«أفلا تعقلون» . . ! ؟

كل إنسان عاقل يرىٰ ضآلة الدنيا وعظم الآخرة . . !

وكل إنسان عاقل يرىٰ حسن اختيار الأتقياء . . !

فهل إن غير المبالي بما يراه العقلاء وغير المكترث لما يختاره الأتقياء يريد أن يتصرف كمن لا عقل له . . ! ؟

ليته صريع الجنون بدل هذا السلوك . . !

أوليته يدعي الجنون في كل شأنه لا أن يتصرف كالمجنون تجاه حقائق الكون وهو يستعين بعقله علىٰ اللعب واللهو والضلالة والتضليل . . !

عز الدنيا والآخرة

يقول تعالىٰ «**لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون**»(٦) .

---

(٦) - الآية ١٠ سورة الأنبياء .

لا قيمة لنعيم بلا عز ، وأي ممتلك لذرة من العقل يجد طعم النعمة مراً إن هو استبيحت كرامته ، لذا تكون حيازة العز مطلباً جد مشروع شريطة أن يكتسب ويستعمل بحق وبلا عدوان .

ولما كان العز مطلباً تتطلع إليه النفوس وقد تضيع الدنيا وتخسر الآخرة كذلك بسبب السعي لحيازته بالباطل واستعماله بتعسف فإنه تعالىٰ يخبرنا «لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم» .

إن كنتم تلتمسون العز حقاً ففي القرآن الكريم كل العز لا يضاهيه بديل إن تدبرتم معانيه وطبقتم نظامه كاملاً ، فيه :

العز بعبادة الخالق المتفرد بأعظم الأسماء والصفات . . !

وعز النفس أمام الهوىٰ فلا تذل له وتستبعد . . !

وعز الفئة إزاء العدو وإن قل عددها ونقص حديدها . . !

وعز القوم وإن داهمتهم الخطوب والرزايا . . !

وعز الأمة وإن تربصت بها كل الأمم لاجتثاث شأفتها . . !

وعز السلطان لا يعلوه سلطان بشري لأنه سلطان الله تعالىٰ . . !

وعز السيادة في الأرض كلها قيادة للناس بالعدل وإعماراً للكوكب بالصلاح . . !

فمن التمس العز حقاً وجد في العز القرآني ضالته علىٰ أكبر وأوسع وأسمىٰ ما تكون . . . أما من أعرض عن العز المنزل من عند الله تعالىٰ فليس هو بطالب عز وإنما يتخذ من هذا الإدعاء تمويهاً ليعمي عن أغراضه التي تزخر بالذل يغرق به صاحبها ويغرق به من بعده كل مخدوع . . !!

وكم سمعنا ورأينا ولمسنا في عصرنا ولدىٰ الأمم التي سبقتنا أن الله تعالىٰ ما أنزل منهجاً ليستمسك به العباد فتركوه جانباً ملتجئين إلىٰ سواه لالتماس الخير والرفاه والعدل والحرية والتآخي والقوة والنصر والسعادة ، الخ . . إلا عاقبهم الله تعالىٰ بما صنعته أيديهم لا محالة :

أولاً ـ أن يذوقوا بدل الخير شراً لأنهم لا يتحرون الخير لهم كما يتحراه ربهم ولا يجانبون الشر كما تعهد ربهم بذلك إن هم اتبعوا منهجه .

ثانياً ـ أن يذوقوا بدل الرفاه ضنكاً لأنهم لا يعرفون طرق الرفاه ولا يقدرون علىٰ حيازته كما وعد الله الرزاق القدير عباده إذاهم اقتفوا هداه .

ثالثاً ـ أن يذوقوا بدل العدالة ظلماً لأن أحدهم إذ لا يبالي بظلم نفسه عندما لا يحجزها عن الضلال فهو لظلم غيره اسرع واجلب ، أما الله تعالىٰ وقد خلق وساس كوناً لا ترىٰ له حدود فتحاشىٰ الظلم ولو كان بأضأل مقدار فهو سبحانه أقدر علىٰ تمكين عباده من العدل لو أنهم طبقوا منهجه .

رابعاً ـ أن يذوقوا بدل الحرية استعباداً لأن الخالق الذي منح الكائن البشري حرية الوجود بعد أن لم يكن شيئاً ثم سيق بقدره إلىٰ رحم أنثىٰ لم يكن يعرفها من قبل لتكون له أماً وأبر به بعد الله ثم راح يتخلق في أحشائها وينتقل من طور إلىٰ آخر بقدرة رب العالمين حتىٰ غادر هذا السجن إلىٰ رحاب الحياة بلا قيد ولا ثقل ووجد أن خالقه قد هيأ له كل شيء بما في ذلك حنان الأم وعطف الأب وود المحيط ، هذا الخالق العظيم أعرف بتحصيل الحرية التي تناسب الإنسان وتصلح له ، أما سواه إن وعده بقسط من الحرية فلا يتأدىٰ إليه إلا استعباداً يكاد يحصي عليه الأنفاس لو استطاع وكأنه هو مانح النسمات . . !

خامساً ـ أن يذوقوا بدل التآخي تناحراً لأنهم يشاكسون أحياناً أقرب الناس إليهم علىٰ متاع زهيد في حين أرانا الله تعالىٰ أنه بعد أن خلق الإنسان أنعم عليه بالإخاء البشري ثم رزقه من الإخاء ما هو أوثق ألا وهو إخاء العقيدة فصلحت أحواله نعم الصلاح عند الإستمساك بهذا الإخاء المحكم الروابط والوشائج والأسباب .

سادساً ـ أن يذوقوا بدل القوة ضعفاً ، فالخالق سبحانه مكن عباده من الوجود حتىٰ صاروا ذوي استواء هذا رجل وتلك امرأة وهو قائم علىٰ مدهم بكل لوازم الحياة والتمكن كيف يجيء من هو محتاج إلىٰ خالقه مثل أخيه الإنسان

لينازع الخالق على الإنعام بالقوة قائلاً إن الدين لا يشيع قوة في المجتمع وإنما يشيع تمزقاً وضعفاً وإن مادبجته من أفكار بإمكانه أن يتلافى هذا الخلل ويمد المجتمع بقوة عظمى فدعوا دين الله واستمسكوا بأفكاري . . !

سابعاً ـ أن يذوقوا بدل النصر هزيمة لأن الله تعالىٰ هو مالك الأرواح يمنحها الحياة متىٰ شاء إلىٰ أجل معلوم ويتوفاها متىٰ شاء عند أجل معلوم أيضاً وهو المنعم علىٰ أصحابها بكل أسباب الحياة كيف يتصور إذن أنه عز وجل لا يقدر علىٰ منح النصر وإحلال الهزيمة في حين يتصور أن مخلوقاً جد ضئيل في ملكوت الله العظيم يستطيع أن ينتزع نصراً لا يقدر علىٰ تحقيقه منهج الله ويستطيع تحاشي هزيمة لا يقدر علىٰ تحاشيها منهج الله . . ! ؟

وهنا يترك الله تعالىٰ الإنسان لقواه فتكون الهزيمة ويحرم النصر وقد كان منه قريباً لو أنه استمسك بحبل الله المتين . . !

ثامناً ـ أن يذوقوا بدل السعادة شقاء فالله هو خالق السعادة والشقاء والقادر علىٰ أسبابهما كيف يمكن الإدعاء أن منهجه لا يحقق سعادة ويذيق الناس شقاء وأن منهجاً لأحد المخلوقين قادر علىٰ أن يكسبهم السعادة ويجنبهم الشقاء . . !

هنا كذلك يدع الله تعالىٰ هؤلاء العميان في هذا الظلام ، فماذا تكون الحصيلة . . ؟ لا محالة يكون الخبط في عشواء ، يريدون السعادة فإذا بهم يشقي بعضهم بعضاً كل منهم يريد الخلاص بنفسه وإن ادعىٰ أنه يريد إيصال المجموع إلىٰ منطقة الأمن والسعادة . . !

لو ذهبنا نستقصي الأمثلة لطال بنا الكلام ولك أن تأخذ نماذج من العصر الحديث والتاريخ الماضي كما تشاء وتطبق ادعاءات كل قوم علىٰ حصائلهم ليتبين لك القانون الإلهي أكثر وضوحاً «**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمىٰ . . قال ربي لم حشرتني أعمىٰ وقد كنت**

بصيراً . . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسىٰ . . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقىٰ»(٧) .

«أفلا تعقلون» . . ! ؟

أليست لكم عقول تدركون بها صدق التوجيه القرآني «**لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم**» . . ! ؟

إن صدق هذا التوجيه يلوح كالشمس لكل من له أدنىٰ ذرة من عقل فأين يا ترىٰ عقولكم . . ! ؟

أفلا تعقلون . . ! ؟

إن كنتم لا تعقلون قولوا للناس إذن إنكم غير سليمي العقول وإن خللاً قد أصابها فأصبحتم مجانين حتىٰ لا يلهث وراءكم غافل ومخدوع وصاحب حاجة متشبث بالقشة والجذع . . !

وصايا

يقول تعالىٰ «**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**»(٨) .

---

(٧) - الآيات ١٢٤ - ١٢٧ سورة طه .

(٨) - الآية ١٥١ سورة الأنعام .

هذه المحرمات لا يرتكبها أحد إلا متجاوز لعقله ذكرها الله تعالىٰ هنا بتحديد كل واحدة بإسمها المعروف لدىٰ الناس طالباً من رسوله الكريم ﷺ أن يبلغهم إياها فهي علىٰ قدر عظيمٍ من الأهمية .

أولاً ـ **«ألا تشركوا به شيئاً»** . . إن الإحساس بالخالق أمر لا يغيب عن أحد من مخاليقه شاء الإعتراف بذلك أم أبىٰ فكيف يشرك به . . ؟ يشرك عندما لا يتوجه الإنسان نحو استكمال المعرفة بالخالق ويبقىٰ مستعيناً باللبس علىٰ مخالفة التوحيد متصوراً أنه قد أخلي أمامه الطريق . . !

فيلجأ إلىٰ منهج دبجه هو من وحي الأهواء والشهوات أو يلجأ إلىٰ مثل هذا المنهج مدبجاً من قبل الآخرين يمنحه كل إنقياد وكل الاحترام وكل الطاعة بل ويفديه بأغلىٰ ما لديه . . !

هذا خطأ كبير لأن المشرك أحس بالخالق ثم توجه إلىٰ سواه رغم الفارق بين إله العالمين ودعي الألوهية ، وهو لم يفد منهج الله بشيء من نعم تفضل بها عليه بينما يفتدي الشريك المزعوم بأغلىٰ النعم وهو لم يخلق أصلها ولم يتفضل عليه بشيء .

من تحاشىٰ هذا الخطأ يكون قد عقل فعلاً . . !

ثانياً ـ **«وبالوالدين إحساناً»** . . كما لا يليق مع الله تعالىٰ إلا الإخلاص لأنه الخالق كذلك لا ينبغي للإبن إلا الإحسان بوالديه لأنهما سبب الإيجاد والتنشئة ويعانيان الكثير لأجل رعاية ابنهما وإسعاده دون مبالاة بتعب وشدائد ومنغصات وآلام سعياً إلىٰ إحاطة الإبن بالراحة والأمن والنعيم والعافية . . !

هكذا الوالدان . . !

أترىٰ يليق معهما غير الإحسان . . ! ؟

كلا . . !

بل إن الإساءة لا تليق جزاء لمحسن بعيد قل إحسانه أو كثر . . !

ومجتمع لا يحسن ابناؤه لآبائهم حتىٰ تغدو إساءة أولئك لهؤلاء، تصرفاً غير مستهجن لهو مجتمع فاسد القيم منخور البناء يوشك أن ينهار . . !

الإســاءة إلىٰ الآبـاء فساد قادم من أوسع الأبواب وتخريب اجتماعي بأضخم معول وانهيار سريع يكفيه أقصر وقت . . !

وليس المطلوب أن تعاملهما بالإحسان إجمالاً بل «**فلا تقل لهما أف**»(٩) . . يالـه من إيقـاف لتيـار ذلك الشر المتفاقم بسد كل منافذه دون الإستهانة بصغير ولو كان كلمة تأفف . . !

إنـه تعليم نتربىٰ فيـه أيضـاً علىٰ الوفاء للخالق سبحانه فهو أقرب إلينا من والـدينـا ومن فضله كان الإيجـاد والتنشئـة والـرزق والـرحمـة بما فيها اهتمام الـوالـدين وعطاؤهما الجزيل السخي حتىٰ نقابل هذه الأفضال وسواها كثير لا يحصىٰ بكل ما نستطيع من رعاية لحقوق الله تعالىٰ . . !

فمن لزم الإحسان لوالديه يكون قد عقل فعلاً . . !

ثالثاً ـ «**ولا تقتلوا أولادكم من إمــلاق نحن نرزقكم وإيـاهم**» . .

أولادنـــا لم نخـلـقـهـم نحـن فلم نتـصـــور أن ما يلزمـهـم من رزق يتــوقـف علينا . . ! ؟ إن قتلهم خشية الفقر خطأ كبير يدلل علىٰ قصور اعتقادي نحو خالقيـة الخـالق ، لو حسن اعتقـاد الإنسان بربه وأمعن النظر بأنه يرزق أحياء الكون كل مستلزمات الوجود وأن اللقمة والكساء والحماية ليست أهم من نسمة الهـواء وليست أهم من جعـل اعضـاء الجسم بكل خلاياه تعمل بتدبير منه عز وجل لتستمر حياة الإنسان إلىٰ أجل تنتهي إليه وليست أهم من تكفله بكل ما يوعد به المرء في حياته لما فكر في أن يتخلص من مسؤولية الأبناء بقتلهم ولرأىٰ غلظ الجرم في هذا العمل الطائش . . !

«**نحن نرزقكم وإيـاهم**» . . ما أحسنـه من توجيـه . . ! يا هؤلاء نحن قد تكفلنـا برزقكم أنتم منـذ نعـومة أظفاركم وطوال عمركم فالشأن جارٍ مع كل مخلوق يعطىٰ الحياة ولا يغرنكم أن المرء يأتي ضعيفاً إلىٰ الدنيا فإنه يدرج بحول خالقه اشتد ساعده أو لم يشتد وينال الرزق المقدر له كاملاً حتىٰ آخر لحظة من عمره . . !

---

(٩) ـ الآيـة ٢٣ سـورة الإسراء .

إن قتل الأبناء كالإساءة إلىٰ الآبـاء باب واسـع للفسـاد وخراب المجتمـع ، قل لي بربـك : هل يتـورع قاتـل ابنتـه وهي فلذة الكبـد عن قتل سواها . . ! ؟ لا والله ، بل إنه يكون لغيرها أقتل . . ولذلك أحكم ربنا سد هذا الباب . . !

فمن امتنـع عن قتـل الأبنـاء اعتقـاداً منـه بأن الخالق أوجدهم وهومتكفل برزقهم يكون قد عقل فعلاً . . !

رابـعاً ـ «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن» . . تذكر الفاحشة فيتبـادر الـزنىٰ إلىٰ الذهن رغم أن معناها العام هو الذنب الغليظ ، فالشرك فاحشة وإيذاء الوالدين فاحشة وقتل الأبناء، فاحشة وإزهاق النفس بغير حق فاحشة وهناك الكثير من الفواحش .

ولو قصرنا معنىٰ الكلمة علىٰ جريمة الزنىٰ لوجدناها منطوية علىٰ فواحش عديدة وليست واحدة ، فالتبرج المثير للأغراب سواء كان بالعطر أو الكلمـة أو اللبـاس أو الحـركـة هو جملة فواحش والتهتـك الميقظ للغرائز بأي صورة وأسلوب هو جملة فواحش والإختـلاط دون حيـاء وضوابط وروادع هو جملة فواحش . . !

وفي كل هذه الفـواحش هنـاك ما ظهـر ومـا بطن ، فما ظهـر يلوح سافـراً أمـام العيـان ، ومـا بطن هو حالة التشهي الجياشة في الصدور لمواقعة الزنىٰ في لحظة تسنح ، وهو أشد خطرًا من الأول لأنه تمهيد نفسي واستعداد لاستقبال المرغوب المرتقب . . !

ومثلما أنـك تغض البصـر عن الفـواحش الظـاهـرة عليك أن تلزم الكـره النفسي ، كيف . . ؟ ادع الله تعـالىٰ كثـيراً أن يحبب إليـك الإيـمان ويـزينـه في قلبـك وأن يكـره إليك الكفر والفسوق والعصيان وأن يجعلك من الـراشـدين ، وتصـور دائـماً أن الوقوع علىٰ الفاحشة يعني الوقوع في النار ،

ولقد تيقنت أن الله تعالىٰ يعين محب الحلال وكاره الحرام عوناً أي عون . . !

وما أحسن التعبير «**ولا تقربوا**» لأن هذه الفواحش لها جذب يشتد كلما اقترب منها المرء والدنو من مقدماتها من شأنه أن يوصل إلىٰ حومتها . . !

أي مجتمع قذر ذلك الذي لا يتورع أفراده عن الفواحش حتىٰ تشيع وتنتشر . . ! ؟ إنه المجتمع المنحدر إلىٰ الهاوية ، وشواهد التاريخ كانهيار الحضارات الإغريقية والرومانية والفارسية والغربية تنتظر علىٰ الطريق إياه تنبىء بالمصير الآتي لأمم تنخر فيها الفواحش . . . !

وأي نظافة مجتمع تلك التي يحققها عدم الإقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . ! ؟ إنها طهر علوي أرشد إليه ربنا العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور «**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**»(١٠) . . ! ؟

فمن ابتعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن يكون قد عقل فعلاً . . !

خامساً ـ «**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**» . . النفس الإنسانية ملك خالقها وهو عز وجل أرادها لخلافته في الأرض وإعمارها من خلال كيفيات تضمنتها رسالات أنزلها علىٰ عشرات الألوف من الرسل والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام ليبلغوا الناس ويعلموهم أشرف المبادىء وأحكمها .

فقتل النفس التي حرم الله هو اعتداء علىٰ ملك الخالق وعلىٰ استخلافه الإنسان في الأرض وعلىٰ كل الأهداف المبتغاة من هذا الإيجاد العظيم ، ولا غرابة أن يبلغ جرم قتلها حد الإعتداء علىٰ عموم الجنس

---

(١٠) ـ الآية ١٤ سورة الملك .

البشـري ويبلغ نقيضـه حد صيـانة هذا الجنس كله «**أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**»(١١) .

ولكن النفس علىٰ حرمتهـا الهـائلة تكـون رخيصـة جداً في حال واحدة فقط عندما يقرر شرع الله تعالىٰ أنها حليلة الدم فحينئذ تستباح بهذا الحق وحده ، بل يكون قتلها حماية للمجتمع من وباء الإفساد وحفظاً لعموم الجنس البشري من استشراء الهلاك . . !

فمن تحامىٰ قتل النفس إلا بالحق يكون قد عقل فعلاً . . !

سادساً ـ «**ذلكم وصـاكم به لعلكم تعقلون**» . . ما أحسن التنـويـه هنـا بالعقـل والتعقـل بعـد تلك الـوصـايا العظائم فهي تحتاج إلىٰ حسن الفهم وجودة التبصر وسلامة القبول وسداد الإيمان ورشاد التطبيق ومتانة الإلتزام ، ولا شك أن كل واحدة من هذه الخصال لا تؤتي مفعولها بدون مسكة من عقل .

فالعـاقـل المتعقل المتزن الواعي العميق لا يسقط في حفرة الشرك وإنـه يأنف من رذيلة إيـذاء الـوالـدين ويستبشـع قتـل االأبناء، خشية الفقر ويعاف الإقتراب من الفواحش ويهوله قتل النفس بغير الحق .

أمـا الإنسـان غير المتعقل فهو طائش متخبط يقدس الشرك ويذم التـوحيـد يؤذي الـوالـدين ويستثقـل الإحسان لهما يبر رقتل الأبناء ولا يهتز للبراءة يرتكب الفواحش ويستحلي خبائثها يزهق النفس ويشعر بالزهو . . !

* * *

---

(١١) ـ الآيـة ٣٢ سورة المائدة .

ولـو أنـك استعـرضت آيـات القـرآن الكـريم آيـة آيـة ووقفت على حدها التشريعي وغورها العقيدي وكسائها اللغوي وإعجازها التعبيري وهداها الرباني ولا حظت قوة تأثيرهـا في المخـاطب واستمـرار تفـاعلهـا مع الحيـاة واستعصـاءهـا على التحـريف والإنـدثار لدللت بذلك كله على أن لديك عقلاً هو أسلم العقول وأذكاها قد أغني بالعلم وصقل بالخبرة وازدان بالإنصاف وامتلك الجرأة . . !

والقرآن الكريم يكبر شأن العقل الرصين لأنه يعرف جيداً قدر آياته ، يقول تعـالى «**وتلك الأمثـال نضـربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**»(١٢) والمـرء إذا التمس تقـوى الله تعـالى وتحراها تجده يعنى كثيراً بعقله ليتسنى له الاعتقاد الأمثل والفهم الأدق لكلام فاطر السماوات والأرض وبالتالي مقابلته بما يليق بشأنه من توقير «**إنما يخشى الله من عباده العلماء**»(١٣) «**وما يذكر إلا أولو الألباب**»(١٤) .

المنهـج القـرآني بخـلاف ظنـون الجهـلاء لا يخشى العاقل العالم المتزن وإنما يتمنـاه مطلعـاً على مفـرداتـه ، فلمثل هذا يتبين بجلاء مدى عظمة هذا المنهج ومدى سخف المناهج البشرية التي تنازعه حق التشريع والإنقياد والتوجيه . . !

وإن توجس المنهـج القـرآني خيفـة من أحد فليس إلا من بليد العقل بطيء الفهم لأنـه يتعـامـل مع جواهـره كالمجنـون يركـل بقدميه نفائس اللؤلؤ يحسبها من حصى الطريق . . !

---

(١٢) - الآيـة ٤٣ سـورة العنكبوت .

(١٣) - الآيـة ٢٨ سـورة فاطر .

(١٤) - الآيـة ٢٦٩ سـورة البقرة .

القلـب

القلب غير العقل في المصطلح القرآني[1] .

إذا كان العقل يتلقىٰ المسموع والمنظور والمحسوس ويفكر في شأنه ويمحص الـرأي من كل الـوجـوه فإن القـرار النهـائي لا ينتظر منه في القبول أو الرفض وإنما من القلب ذلك المستودع الكبير للأحاسيس والمشاعر والميول .

العقل مستشار يسدي النصائح والقلب قائد يمسك الزمام ويوجهه . . !

مثـلاً . . العقـل ينصـح الأم أن لا تهرع إلىٰ رضيعها عند بكائه لئلا يعتاد فيتباكىٰ دون سبب إلا بقصد أن تحمله ، أما قلب الأم فيأبىٰ عدم الإكترات لبكائه فتهب لاحتضانه وقبل أن تتحرىٰ سبباً تلقمه ثديها . . !

نصيحة العقل سقطت في بحر الأمومة القلبي فغرقت . . !

---

(١) ـ عديـد من معـاجم اللغـة والكتب العلميـة في القديم والحديث تعتبر القلب والعقل بمعنىٰ واحـد ، وهـذا مثـير للإستغراب حقاً ، ولقد كان بمقدور مؤلفيها الإلتفات إلىٰ تمييز القرآن الكريم بين القلب والعقل فهو كتاب أحكمت آياته من لدن عليم حكيم هو الخالق سبحانه . . !

ومثـل آخـر . . أنت تنصح الزاني أن يرعوي فيعف وتذكر له فضائل العفة وتعدد له رذائل الزنىٰ ، فإذا رأيته يكبر العفة ويستقبح الزنىٰ عقلياً لا تسلم بأنه تغير إلا بإشـارة من قلبـه تفهم منهـا أنـه قد أحب العفة ومقت الزنىٰ وأن سلوكه بفعل هذه المشاعر بدأ يتغير . . !

وكثـير من شاربي الخمـرة يتحـدثـون عقـلا عن أقبح مساوئها ويمتدحون مجتنبيهـا علىٰ حسن صنيعهم فهـل أنهم تركـوهـا لمعـرفتهم هذه بحقيقتها . . ؟ إنه تصور عقلي لا يغني شيئاً مادامت القلوب عامرة بحب أم الخبائث . . !

ولا يحصـل الإمتنـاع عن شربهـا إلا في حال كرههـا استجـابة للأمر الإلهي مثلاً . . ! وغير الكره المتحصل استجابة للأمر الإلهي فإنه لا ينفع لأن الإمتناع عن شربهـا بسبب اعتـلال الصحـة أو تلف المال أو فقد المصالح مثلاً غير مضمون النتيجة وهـو إن تم علىٰ نطـاق فردي فإنـه لا يتنـاول المجتمـع ليحميـه كذلك ومن ثم لا يتم القضاء علىٰ هذا الوباء كلية . . !

ومن هذا يتبـين أن ميول الإنسـان رهن أحـاسيسـه وهي عالم رحب واسع وإذا كان العقل وهو يمحص رأياً يتجه يميناً أو شمالاً بفعل كلمة لها مفعول قوي فإن القلب لا يبالي بكلمة وإنما هو يخضع لإطار عام يستفتيه ويتحرك بموجب ما يشير به .

والإطار العام لأحاسيس القلب إن كان عقيدة صدر أي قرار وفق ما تقتضيه وإن خلا هذا الإطار العام من العقيدة فمعنىٰ ذلك أن شتاتاً من القيم والآراء تتنازع القلب ليعطي قراراً بشأن أمر يعرض ولذا يجيء هذا القرار أحياناً جد موافق للصواب بشكل غير مقصود وأحياناً يجيء جد معاكس له فيكون صاحبه متناقضاً في تصرفاته غير ثابت علىٰ اتجاه واحد .

القلب خزان كبـير للقنـاعـات تتفـاعل داخله وتتشذب وتتشكل باستمرار حتىٰ تستقر علىٰ إطار عام نهائي يتفق مع مجمل اهتمامات المرء في وقت معين ثم بعد فترة يتزعزع استقرار الإطار العام إذا تحركت تلك الإهتمامات نحو آفاق جديدة ، أما إذا كان الإطـار العـام عقيـدة بنـاؤهـا محكم فإن الآفاق الجديدة لا تعمل علىٰ تهديد استقرارها وإنما تضفي عليها حللاً جميلة تزيدها قوة وبهاء .

ما المفهوم القرآني لدور القلب في حياة الإنسان . . ؟

مخاطبة القلب

يقول تعالىٰ «**إقرأ باسم ربك الذي خلق . . خلق الإنسان من علق . . إقرأ وربك الأكرم . . الذي علم بالقلم . . علم الإنسان ما لم يعلم**»(٢) .

كلمات موجهة إلىٰ عقل الإنسان ليتأمل ويفكر ولكنها تخاطب القلب في الصميم . . !

كيف . . ؟

لأنها تتضمن حلقات قوية لإطار عام مثل «ربك» و«خلق الإنسان» و«ربك الأكرم» و«علم بالقلم» و«علم الإنسان ما لم يعلم» كلمات تنزل كالصاعقة علىٰ الإطار العام للقلب غير المؤمن بالله تعالىٰ فتكسره حالاً وتزعزع القناعات القلبية كلها فيه لتبدأ عملية التفاعل من جديد ، فإما ترميم مهلهل للإطار العام المكسر وإما استبداله بإطار عام جديد يكون أمنع وأقوىٰ وأرشد وأزكىٰ .

ولا يخفىٰ ما في ذلك من تحضير للقلب كي يستقبل آراء العقل المستخلصة من تلك الآيات بالإقتناع والقبول والإستحسان . . !

فإن لم يفعل من الوهلة الأولىٰ لسبب غير موضوعي فإنه سينوء تحت أنقاض إطار عام مكسر ويواجه تلهفاً إلىٰ بديل لهذا الإطار ويكون من ثم متطلعاً إلىٰ ضالة أفضل . . !

وما أن يزول السبب غير الموضوعي يعود الإنسان مصيخاً لرنين تلك الكلمات الربانية فيعاود عقله التفكير بـ «ربك» إنه خالقك وهو مربيك بالنعم ولست وحدك «خلق الإنسان» فكل بني البشر خلقهم كما خلقك وهو يربيهم بنعمه كما يربيك فهو «ربك الأكرم» لا رب يساويه في هذا الوجود ، أنت مدين له بل أنت محكوم بإرادته

---

(٢) ـ الآيات ١ ـ ٥ سورة العلق .

ماذا تمن عليه . . ! ؟ لا شيء هو يمن عليك فلقد اعطاك نعماً لا تحصىٰ ولا تستطيع أن تجازيه عليها وهي من قبيل «علم الإنسان ما لم يعلم» ماذا يساوي الإنسان بدون هذا العلم والتعليم . . ! ؟ وما قدر نعمة أوتيها الإنسان كهذه . . ! ؟

وما أن يستلم القلب بصفاء حصيلة العقل عبر هذا التفكير حتىٰ يتلقفه بلهفة ويبدأ وضع لبنات العقيدة علىٰ أرسخ قاعدة ، وما أحسن الأساس صلباً . . ! وما أحسن العقيدة أكثر صلابة عندما تكون من صنع خالق الإنسان . . !

عندها أي عقيدة تكون . . ! ؟

أو قل أي إنسان نرىٰ . . ! ؟

أو قل أي فارق في تصرفاته نلمس . . ! ؟

الطفل الرضيع إن بكىٰ وأمه في الصلاة لا تنفلت من صلاتها استجابة لنداء الأمومة القلبي وإنما هي محكومة القلب بعقيدة أكبر من الأمومة ، فإن أباحت لها عقيدتها أن تهرع إليه بالإنفلات من الصلاة خوفاً عليه من الضرر فعلت استجابة لترخيص العقيدة وحرص العقيدة علىٰ سلامته ولو أن عقيدتها لم تبح لها ذلك لتركته يبكي حتىٰ يموت[٣] دون أن يحملها نداء الأمومة علىٰ شيء يخالف وقوفها بين يدي الله تعالىٰ مصلية . . !

وفي قصة أصحاب الأخدود الواردة في سورة البروج فإن امرأة ألقت بنفسها وسط النيران وهي ترمق طفلها بنظرات الوداع مقبلة علىٰ الإستشهاد انتصاراً لامتحان العقيدة دون أن تتراجع استجابة لنداء الأمومة لأن هذا النداء يدعو إلىٰ التنازل عن عقيدة استقرت في قلب المرأة وصارت عندها أغلىٰ قيمة في الوجود . . !

ولم تكن واحدة ، فلقد التهم الأخدود المشتعل كثيرات أبىٰ إيمانهن إلا أن ينتصر للعقيدة فلا تطأطئ الرأس لمبطلين رغم نداء الأمومة وبريق الحياة وتأجج النيران وهول الفتنة . . !

---

(٣) - الإسلام يراعي المصالح المشروعة طبعاً . . ينظر (الوجيز في أصول الفقه) للدكتور عبد الكريم زيدان .

وفي العصـــر النبـــوي كانت سمية رضي الله تعـالىٰ عنهـا تتحمـل أقسىٰ العـذاب وتـرىٰ أمـامها الإبن البار والزوج الكريم يصب عليهما العذاب الشديد فلم تستجب لإلحاح الكفرة في حملها علىٰ التراجع عن إيمانها بعد أن ذاقت حلاوته ، ولم يكن نداء الأم والزوجة في قلبها ليزعزع ذلك الموقف الإيماني الصلب الذي قادها إلىٰ الإستشهاد . . !

والقلب يكـره الـزنىٰ بعد العقيدة الجديدة ولذا فإن صاحبه لا يقع فيه رغم المشـوقـات المنقـولـة إليه من العقل عبر السمع والبصر والحواس الأخرىٰ ما دام الكره المستمـد من عقيـدة التـوحيد قائماً . . أما إن أحب القلب الزنىٰ لخلل في الاعتقاد أو لضعف في الإيـمان بالمعتقـد فإن صاحبـه قد يواقعـه إذ سيدأب السمع والبصر والعقل علىٰ إيصاله إلىٰ ذلك المحبوب . . !

لو كان العقـل وليس القلب هو مالـك الإختيـار وصاحب الزمام لوجدنا أن الأم المـــؤمنـة تفضـل الإستجـابـة لنـداء الجسـد الحـريص علىٰ الأمن والحيـاة بدل الإستجابة لنداء الإيمان غير المبالي بالعذاب وحلول الموت . . !

ولـوجـدنـا المـؤمن يميـل إلىٰ الإلتذاذ بشهوات الحرام والإبتعاد عن تحمل العبادات بدل أن يفوت التمتع بتلك اللذائذ ويعاني تلك التبعات . . !

الإيمان قلبـي

الإيـمان الصـادر من القلب هو الإيـمان الحقيقي أمـا الكـاذب فهـو ما ردده اللســان وقـد يزينـه العقـل وتنفـذه الجـوارح ولكن بغـير اتصال قلبي ، يقول تعالىٰ **«قـالت الأعـراب آمنـا قل لم تؤمنـوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم»**(٤) .

إيـمان لم يفض من الاعـماق وإنـما هو محض أقـوال لا تعبر عن إيمان حقيقي حتىٰ عند اقترانها بعمل ما لم يخضع القلب للعقيدة صدقاً ويسلم لها القياد فعلاً . . !

---

(٤) ـ الآيـة ١٤ سـورة الحجرات .

فبالإسلام القلبي وحده يكون القلب مسكوناً بالإيمان الحقيقي ، أما أن يردد اللسان ألفاظاً مصبوغة بالإيمان حتىٰ لو نمقها العقل ومقرونة بأعمال حتىٰ لو كساها العلم فهذا لا يكفي تدليلاً علىٰ إيمان وما أسرع أن ينكشف زيفه بعد حين لا محالة كما حصل لفئة عاشت في المدينة أيام النبوة «**الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم**»(٥) «**يرضونكم بأفواههم وتأبىٰ قلوبهم وأكثرهم فاسقون**»(٦) .

القرآن الكريم لا يقيم وزناً لإيمان لم ينبع من القلب وإذا كان البشر يقبل بعضهم من بعض إيماناً لا يتجاوز الألفاظ ومظاهر الأفعال إلىٰ اعماق القلوب لأن أحدهم يعجز عن معرفة الدخائل لدىٰ طفل صغير فإن خالق الإنسان يطلع علىٰ أبعد واعمق سرائر القلب البشري ويقيس علىٰ ما يجول فيها صدق إيمانه .

وفيما يشكل الإيمان القلبي ركيزة عظمىٰ فريدة يتميز بها منهج الله تعالىٰ حيث يقوم الإنسان رقيباً للعقيدة علىٰ تصرفاته هو نجد المناهج البشرية باقتصارها علىٰ الإيمان المظهري مزعزعة الأركان إذ يقتنص الإنسان في ظلها الفرص ليستبيح بعيداً عن الأنظار كل شيء يقدر عليه . . !

ماعز بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه زنىٰ فجاء إلىٰ الرسول ﷺ طالباً إقامة الحد عليه ليتطهر من الذنب ويلح علىٰ الرسول الكريم متوسلاً أن لا يدرأ عنه الحد بشبهة ، ولما تأكد عليه الصلاة والسلام أن الرجل قد ارتكب الزنىٰ فعلاً ولا شبهة تحول دون الحد أمر برجمه حتىٰ الموت . . !(٧) .

وبعده جاءت الغامدية رضي الله تعالىٰ عنها تطلب إقامة الحد عليها معترفة بالزنىٰ فأمرها الرسول الكريم أن تذهب حتىٰ تضع وليدها إذ كانت حبلىٰ

---

(٥) - الآية ٤١ سورة المائدة .

(٦) - الآية ٨ سورة التوبة .

(٧) - ينظر (صحيح البخاري) و (الأصول) لأبي بكر السرخسي الجزء الثاني ص٨٥و١٢٦

فغـربت ثم عادت بعـد أقـل من عام تحمل رضيعاً طالبة أن يقام عليها الحد فأمر عليه الصلاة والسلام أن ينحىٰ الطفل جانباً وأقيم عليها الحد وهو الرجم حتىٰ الموت . . ![8] .

أمـا في المنـاهـج البشـريـة فلقـد سمعنـا الكثـير في عصـرنا عن قادة جرت تنحيتهم عن مواقـع الحكم والمسـؤ وليـة ومنهم من سيق إلىٰ السجن ومنهم من قتـل لأنهم استهـانـوا بتعـاليم المنهج أما بسرقة أموال أو استلام رشاوىٰ أو بإثراء الأقارب أو التعسف بالسلطة بأي شكل أو التجسس لحساب العدو . . . إلخ ، وهؤلاء لم ينحوا إلا لكونهم ضعفاء أما الأقوياء منهم فيستمرون في إخلالهم بعقد الأمانة لأن أحداً من رعـايـاهم لو استجـرأ علىٰ غمـزقناتهم أو الإشارة فقط إلىٰ عيوبهم ولو من طرف خفي فإنهم يقتلونه بأردع عقاب . . !

ولقـد سمعنـا أن جواسيس أمضـوا عشـرات الأعـوام في صفـوف اعدائهم وهـؤلاء غير شاعـرين باندساسهم ، بل إن جاسوساً من ألمانيا الشرقية ظل يتدرج في سلم الحـزب الحـاكم في ألمـانيـا الغربية حتىٰ أصبح أوائل السبعينات، من هذا القرن أميناً لسر رئيس الحزب فيلي براندت عندما كان يشغل آنذاك وظيفة المستشار أي رئيس الحكومة . . !

ولم ينكشف أمر هذا الجاسوس إلا بعد أن أدىٰ دوره كاملاً . . !

الإيمان بمنهج واحد

القلب لا يخلص إيمـانـه إلا لمنهـج واحد وما أعطي الولاء لأكثر من منهج إلا أدىٰ بصاحبه إلىٰ التذبذب والنفاق والضياع ، يقول تعالىٰ «**ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه**»[9] .

هل يمكن لأحد أن يدعي قدرته علىٰ الإحتفاظ بقلبين يخلص هذا لتوجيه وذاك لتـوجيـه . . ! ؟ حتىٰ لو أمكن الإحتفـاظ بقلبـين فالمـرء لا يسلم من تصـادم

---

(٨) ـ ينظر (صحيح البخاري) و (أحكام القرآن) لأبي بكر الجصاص المجلد الثالث ص ٢٥٧ .

(٩) ـ الآيـة ٤ سـورة الأحزاب .

القلبين في الإتجاه المعاكس . . !

وليتصور الإنسان أي تنازع يحصل في القلب الواحد عندما يتقاسمه توجهان كل واحد منهما يناقض الآخر ولا يحتمل وجوده . . !

وأغرب محاولة تلافٍ لهذا الوضع القلبي الصعب أعني تعدد الولاء لأكثر من منهج لدىٰ الإنسان الواحد هو ما نراه في العصر الحديث لا سيما في كثير من أقطار العالم الإسلامي ـ المتخذة من الإسلام اسمه فقط ـ عندما يحاول المرء أن يمزج ولاءه لمنهج الله تعالىٰ بولائه للمنهج البشري السائد في بلده معتقداً أنه بهذا المزج يحفظ إيمانه بمنهج الله ويتقي شر المنهج البشري . . !

فياله من جرم . . ! لأن هذا الجبان المتهالك قد حاول بفعله المنكر هذا أن يدلل من حيث يدري أو لا يدري علىٰ :

أولاً ـ أن منهج الله تعالىٰ ناقص يحتاج إلىٰ استدراك من غيره .

ثانياً ـ أن المنهج البشري سديد يتلافىٰ نقص التشريع الإلهي .

ثالثاً ـ الرضا بجعل منهج الله تابعاً للمنهج البشري السائد .

رابعاً ـ توظيف منهج الله لتحقيق مآرب المنهج البشري .

عندما يعمىٰ القلب

إذا استحكمت الأحاسيس الفاسدة في قلب لم يقبل دلالة من العقل يحملها إليه اقتباساً من مسموع أو مرئي أو محسوس ما دامت تتعارض مع تيار هذه الأحاسيس .

وهل يبقىٰ هذا القلب سادراً في عماه أبداً لا يبصر . . ؟

إن لم يستفد من الدلائل تأتيه عن الطريق العقلي الميسور السهل فالمنتظر أن يترافق ذلك مع رجات تهز حياته لكي يتدبر أمره بشكل جاد ومن ثم يتحقق من صحة الدلائل العقلية وهي تتواتر عليه تدفقاً . . !

وأثناء الهزة أو بعدها قد تحدث الصحوة فيكون القلب مهتماً بكل دلالة يقلبها علىٰ وجوهها المختلفة ومن ثم يستفيد من نورها ، وقد تكون الأحاسيس

الفاسدة في هذا القلب قد استحالت إلىٰ ما يشبه الصخر صلابة فلا ينفع معها دلالة ولا نور ولا ضربة معول . . !

«ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون»(١٠)

«فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين»(١١) .

«لهم قلوب لايفقهون بها»(١٢) .

أي لايريد أصحابها أن يفقهوا الحق بها لتعارضه مع أحاسيسها الفاسدة . . !

واذا القلب لايفقه كيف إذن يسترشد الإنسان . . ؟

لاجرم يتيه . . !

«فإنها لاتعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور»(١٣) .

القلب إذا عمي لاتنفع أبصار مفتحة ، فلتلتقط الأسماع والأنظار والحواس ما شاءت من حقائق وليحملها العقل بأبهىٰ زينة إلىٰ الاعماق ، فما الجدوىٰ إن لم

---

(١٠) - الآية ٧٤ سورة البقرة .

(١١) - الآية ٢٢ سورة الزمر .

(١٢) - الآية ١٧٩ سورة الأعراف .

(١٣) - الآية ٤٦ سورة الحج .

يصغ لها القلب وإن لم يرها على حقيقتها وإن لم يمنحها قيمة تستحقها بقرار ينصفها فيه . . ! ؟

أين موضع الإصابة بالعمى . . ؟

البعض يتلمس عينيه فيطمئن إلى أنهما سالمتان . . !

لا . . العمى ليس في العينين ، إنه هناك في القلوب . . !

القلوب التي موضعها في الصدور . . !

لا تعجب فالقلب يبصر رغم كونه بين الجوانح ويهدي صاحبه لو فعل إلى سواء الصراط وبما لا يقدر على هذا العينان ، وهو إذا عمي لا ينفع الإنسان عشر عيون لو أوتيها في اظهر مناطق جسمه . . !

إقفال القلب

القلب الذي تساق إليه البصائر بسهولة ويسر فلا يستضيء بها لهو أشبه بصندوق مقفل ، وهذا الطراز من الناس عجيب ، لأن العاقل يلهث وراء الحقيقة وقد لايظفر بها إلا بشق النفس فلا يبالي بجهد وتعب وإرهاق لأنه يريد أن ينعم بنور الحقيقة ويستقر ، أما مقفل القلب فتأتيه الحقائق أحياناً دون عناء ولكنه لا يدع منفذاً تتسرب منه البصائر إلا أحكم سداده . . !

يقول تعالى **«أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»**(١٤) .

القرآن الكريم كالشمس فأي تدبر لآياته يلقي نوراً على القلب ويزيح عنه الظلام ، أفلا يتدبرونه . . ؟ إنه ليس ببعيد عن متناولهم ، ولو كانوا صادقي النية لوجدوا فيه كل ما يحتاج إليه العقلاء . . !

---

(١٤) - الآية ٢٤ سورة محمد .

«وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون»(١٥) .

هذا أغرب تعليل لرفض استقبال البصائر . . !

يقول اليهود لرسول الله ﷺ بعد أن دعاهم للإسلام كف عن محاولة هدايتنا لأن قلوبنا مغلقة فلا يصل إليها شيء مما تسوقه إلينا من بينات . . !

أرأيت . . ! ؟

إنهم أغلقوا الباب بأيديهم وأحكموا إغلاقه ثم ادعوا أنهم عاجزون حيال هذا الوضع الذي يستنكرونه ظاهراً في حين أنهم قد رتبوه بخبث ولو شاؤوا التماس الخير فلا يحوجهم ذلك إلىٰ أكثر من اصغاء وتدبر وإنصاف . . !

خبث علىٰ ما فيه من مكر وحيلة فهو متهافت مفضوح . . !

إذا كان هذا الخبث يمر علىٰ الناس فهو مكشوف أمام خالق الناس فلما أن قالوا «**قلوبنا غلف**» جاءتهم اللعنة «**بل لعنهم الله**» أي أن خالقهم لم يناقش عذرهم لأنه لا يحتاج إلىٰ نقاش . . !

وقال آخرون لرسول الله :

«قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون»(١٦) .

أما هؤلاء فوضوح عنادهم مقصود . . !

قالوا إن قلوبنا في أغطية فلا تستطيع يا صاحب الدعوة الوصول إليها وبذلك تعجز عن طرق أبوابها فهل تنتظر أن تفتح لك علىٰ مصاريعها . . ! ؟

ما الداعي لهذا الموقف . . ؟

أولاً ـ الإمعان في الوقاحة .

ثانياً ـ تيئيس الرسول من دعوتهم .

---

(١٥) ـ الآية ٨٨ سورة البقرة .

(١٦) ـ الآية ٥ سورة فصلت .

ثالثاً - كف تأثير كلمات الهدىٰ عنهم .

رابعاً - الإنصراف إلىٰ مآربهم الخاصة بلا تعكير .

خامساً - إيهام جماهير الناس بأنهم ما وجدوا دعوة محمد ذات بال .

وما واجهه الرسول ﷺ من نماذج سواء من قلوب اليهود (المغلفة) أو من قلوب المشركين (المغطاة) يظل يناوئ الدعوة إياها ويقف في طريقها إلىٰ يوم القيامة ، بل ويضفي اللاحقون علىٰ أساليب السابقين كل جديد في هذا المجال استفادة من تراكم الخبرات .

الدين الذي جاء به رسول الله مادام ثابت المعالم بلا تغيير فإنه يبقىٰ يواجه ذلك العناد لأن القلب البشري لا تتغير خصائصه ما بقي إنسان علىٰ الأرض . . !

والقرآن عندما يسوق إلينا تلك النماذج فليس بقصد أن يحكي عن حالات وقعت آنذاك فحسب وإنما هو يخاطب أساساً القلب البشري بمختلف أصنافه وبشتىٰ أحواله منذ مجيء الإسلام وإلىٰ يوم القيامة . . !

لا نملك القلب كله

وإذا أقفل المرء قلبه امتناعاً عن استقبال الهدىٰ أيستقل بهذا عن سلطة الخالق . . ؟

هو إن امتنع عن قبول الهدىٰ فهذا شأنه ويكون مختاراً للضلال **«فمن اهتدىٰ فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها»**(١٧) ولكن لا يعني ذلك أن الخالق لا يستخدم قلب الضال في تصريف شؤون الحياة وفق ما يريده هو جل شأنه . . !

فلو ترك قلب الضال يتصرف في الحياة كلها وفق معتقده الفاسد ودون تدخل من رب العباد إذن لغطىٰ الفساد الحياة برمتها ولفاتت أغراض كثيرة أوجد الله تعالىٰ الحياة لتحصيلها . . !

---

(١٧) - الآية ٤١ سورة الزمر .

قلب الضـال عنـدمـا يختار معتقده الفاسد فهذا يقع بمقدوره ومحض إرادته وإذا راح يتجنىٰ علىٰ نفسه بكل معطيات الضلال فهذا له أيضاً ، أما المساس بحياة الآخرين ومقدراتهم وأحوال الحياة وشؤ ونها فأمر يقع في اختصاص الخالق ولا يحدث منه أي قدر إلا بمشيئته هو وحده . . !

وللإيضاح دعنا نتأمل هذا المثال الوارد تفصيلاً في القرآن :

فرعـون ضال مضـل اعتـزم ذبح أطفال الإسرائيليين ، ولكن لم استثنىٰ من قراره الشـامـل الصـارم طفلاً هو موسىٰ عليه السلام حمله الموج إلىٰ اعتاب قصره فإذا بفرعون بدل أن يذبحه بلا جهد ملاحقة وتفتيش يتخذه ربيباً يدرج في قصر الملك . . ! ؟

لأن الله تعـالىٰ أراد ذلـك كي يكـون الطفـل فيـما بعد رسولاً ينقذ قومه من الظلم والـذل ويحطم دولـة الفسـاد ويبسـط الهدىٰ والعدل والنور بين عباد الله رغم أن فرعون لم يرد إلا ذبح الطفل خوفاً من هاجس وحرصاً علىٰ الحياة . . !

وصدق الله العظيم «**إن الله يحول بين المرء وقلبه**»(١٨) .

لقد حال الله تعالىٰ بين فرعون وقلبه عند ما صمم علىٰ ذبح كل مولود من بني إسـرائيـل فاستثنىٰ طفـلاً رغم أن وضعه مريب حيث كان محمولاً في صندوق معد جيداً ليقاوم تيار اليم وأمواجه فوصل إلىٰ قصره هو الذي انتشر جنوده في طول البلاد وعرضها باحثين بلهفة عن أي طفل ليذبحوه فوراً ولو أمام والديه . . !

رباه . . ماذا كان يحصل للناس والحياة لولا تدخل منك كهذا . . ! ؟

لا شك أن حكاماً ضالين أمثال فرعون كانوا سيفنون كل اعدائهم المهتدين فينفسح المجال لمزيد من الضلال ولا تظل للحق قائمة فوق الأرض فتفسد الحياة . . !

ثم إن مقاصد الخالق عز وجل في الناس والحياة ما كانت لتتحصل لو لم يحل الله تعالىٰ بين المرء وقلبه وبقدر لا يتدخل في اختياراته التي يتحمل هو تباعتها أمام ربه

---

(١٨) ـ الآيـة ٢٤ سـورة الأنفال .

في الـدنيـا والآخـرة كاختيـار طريق الهـدىٰ أو اختيـار طريق الضلال وكاختيار الاعمال الصالحة أو اختيار الاعمال السيئة .

وثمة تدخل آخر يحول به الخالق بين المرء وقلبه عندما يزيد المؤمنين به هدىٰ ويحبب لهم تكاليف منهجه ويملأ قلوبهم إقداماً علىٰ من عاداهم فيما يزيد الكافرين به ضلالاً ويجعـل صدورهم ضيقـة بشأنهم ويملأ قلوبهم رعبـاً من مقـاتليهم وبالتالي لن يجعل الله للكافرين علىٰ المؤمنين سبيلاً .

يقول تعالىٰ فيما يخص المؤمنين به :

«ويزيد الله الذين اهتدوا هدىٰ»(١٩) .

«واعلمـوا أن فيكم رسـول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون»(٢٠) .

«قـاتلوهم يعـذبهم الله بأيـديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفـ صدور قوم مؤمنين»(٢١) .

«إذ يوحي ربـك إلىٰ الملائكـة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الـذين كفـروا الـرعب فاضـربـوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان»(٢٢) .

---

(١٩) ـ الآيـة ٧٧ سـورة مريم .

(٢٠) ـ الآيـة ٧ سـورة الحجرات .

(٢١) ـ الآيـة ١٤ سـورة التوبة .

(٢٢) ـ الآيـة ١٢ سـورة الأنفال .

«هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً»[٢٣] .

ويقول تعالىٰ فيما يخص الكافرين به :

«فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين»[٢٤] .

«فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس علىٰ الذين لايؤمنون»[٢٥] .

«ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفىٰ الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً»[٢٦] .
«ولن يجعل الله للكافرين علىٰ المؤمنين سبيلاً»[٢٧] .

---

(٢٣) ـ الآية ٤ سورة الفتح .
(٢٤) ـ الآية ٥ سورة الصف .
(٢٥) ـ الآية ١٢٥ سورة الأنعام .
(٢٦) ـ الآيتان ٢٥ و٢٦ سورة الأحزاب .
(٢٧) ـ الآية ١٤١ سورة النساء .

تمحيص لخزنة القلب

وإذا آمن المرء بالله تعالىٰ واتبع منهجه لا يحسب أن أمر الإيمان قد خلص له لأن القلب بحر عميق تحتاج كل قطعة من كنوزه إلىٰ تمحيص ومعرفة قدرها ، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد وإنما يتعداه إلىٰ اصلاح أي خلل يطرأ علىٰ الإيمان وإكمال أي نقص اعتقادي وتجويد الحسن باستمرار وهذا كله يتطلب بقاء الإنسان في حالة امتحان مادام علىٰ قيد الحياة .

يقول تعالىٰ **«وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور»**(٢٨) .

الله تعالىٰ عليم بذات الصدور ولا يحتاج إلىٰ ابتلاء خفايا الإنسان وتمحيصه في الإمتحان وإنما ذلك تيسير منه لإبلاغ عبده درجات السمو العليا وإنالته الحسنىٰ بأروع أسباب الجدارة والإستحقاق عندما يلتقي عمل ورشد من المرء مع كرم وتوفيق من الله المنعم المفضل . . !

كرم بإصلاح العمل وإلهام الرشد وتوفيق إلىٰ سواء السبيل والفوز بالرضوان في الدنيا والآخرة ذلك عندما يطلع الله علىٰ صدق نية في قلب العبد وإخلاص توجه . . .!

وفيما نرى الترهل والفتور والضعف يصيب تابعي المناهج البشرية كلما تقدم الزمن بهم وينفضح أمرهم مدانين بأكبر المثالب وأخس الأفعال نجد تابعي منهج الله مع اضطراد ، الزمن أرسخ عقيدة وأقوىٰ إيماناً وأشد عزيمة يتلهفون للتضحية بأغلىٰ ما يملكون . . !

ذلك أن قلوب تابعي المناهج البشرية لا تهاب سلطة من أحد عليها فقد أوكل أمرها إلىٰ ذمم فاسدة لا يقام لها أي وزن ولا يراعىٰ نحوها أي اعتبار . . أما تابعو منهج الله فقلوبهم متصلة بخالق الكون الذي يعلم الخبء في السماوات

---

(٢٨)- الآية ١٥٤ سورة آل عمران .

والأرض ويعلم السر وأخفىٰ فهم يحسون رقابته في كل لحظة لهم فيها جفن يطرف . . !

قلوب أولئك الضالين يمحصها اختبار مظهري يتولاه إنسان لا يعلم ما يدور تحت جلد غيره ويجهل طوية الجوانح ويقف محتاراً أمام خفايا الصدور ، أما قلوب المهتدين فتمحصها اختبارات هائلة لا تنقطع علىٰ صعيد الباطن والظاهر يتولاها من . . ؟ خالق الإنسان والحياة والكون . . !

فلا غرابة إذا صار الضالون بسلوكهم أسوأ من الصدأ المتراكم . . !

ولا غرابة إذا صار المهتدون بسلوكهم أصفىٰ من الذهب الخالص . . !

المؤمن وغير المؤمن

أولاً ـ القلب المؤمن مشرع الأبواب يستقبل بلا خوف أو استثناء كل ما يتأدىٰ إليه من حصائل السمع والبصر والحواس الأخرىٰ عبر العقل ومن ثم يزنه فيحدد بإنصاف الحسن الجدير بالقبول والسيئ القمين بالإبعاد .

أما القلب غير المؤمن فنقيض ذلك انغلاقاً علىٰ الضلال وغفلة عن الحقائق واجحافاً في الحكم .

ثانياً ـ القلب المؤمن مصدر تثبت من قيمة الأشياء قبل الحكم عليها ، يقول تعالىٰ **«ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً»**(٢٩) .

أما القلب غير المؤمن فيقتصر غالباً علىٰ اتباع الظن وما تهوىٰ النفس .

ثالثاً ـ فيما نجد القلب المؤمن يصغي للحقيقة وينصفها نجد القلب غير المؤمن يتكبر علىٰ الحقيقة ويتجبر مجادلاً بغير دليل أو برهان **«الذين يجادلون في**

---

(٢٩) ـ الآية ٣٦ سورة الإسراء .

آيـات الله بغـير سلطـان أتـاهـم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله علىٰ كل قلب متكبر جبار»(٣٠) .

رابعـاً ـ «**الــذين آمنـوا وتطمئن قلوبهم بذكـر الله**» (٣١) تطمئن قلوبهم بذكـر خالق الكـون احسـاسـاً بعظمتـه وأنسـاً بصلته واعتزازاً بحمايته ، أما القلب غير المـؤمن فيـلازمه الإنقباض والقلق والحيرة وهوكالريشة تتطاير في يوم عاصف . . !

خامساً ـ القلب المؤمن سليم أي هو خالص لله تعالىٰ وحده لا يتعلق بمال ولا ببنين ولا بشهـوة ولا بدنيـا «**يـوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم**»(٣٢) .

أمـا القلب غير المـؤمن فهـل يقـدر علىٰ التجـرد من ذلك المتاع العارض الزائل . . ! ؟ وإذاً تجرد فلمن . . ! ؟ لغير الله تعالىٰ طبعاً لمن لا يساوي شيئاً يذكر أمام رب العالمين . . !

* * *

وبعد . .

فأهميـة القلب(٣٣) لا تضـاهىٰ قيـاسـاً إلىٰ العقـل وأي من الحواس ، لأن السمع والبصر والحواس تقوم بالتقاط المتلقىٰ والتأكد منه ثم تدفعه إلىٰ العقل ليشذ به ويضيف إليـه لمسـات ويلحق به كل ما يتـوفر عنه من معلومات يختزنها تكفي لتقديمه موضــوعـاً إلىٰ القلب ، ومـا أن يصـل المتلقىٰ إلىٰ مركـز القيـادة هذا يدخـل مرحلة استحصال القرار النهائي بشأنه فإما قبول وإما رفض .

---

(٣٠) ـ الآيـة ٣٥ سـورة غافر .

(٣١) ـ الآيـة ٢٩ سـورة الرعد .

(٣٢) ـ الآيـة ٨٩ سـورة الشعراء .

(٣٣) ـ ذكره القرآن في ١٨٧ موضعاً .

ياله من دور . . !

وفي الحـديث النبـوي (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[٣٤] .

مضغة ، ولكنها الإنسان . . !

أنظر :

«يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم» .

آورد سبحانه القلب هنا ليعرف الإنسان بأهم ما في كيانه حتىٰ يصرف إليه جل اهتمامه فليس المهم أن يقبل الإنسان علىٰ ربه باكتناز لحم وجمال مظهر وشدة بأس وحيـازة دنيـا ، المهم هو صلاح القلب ، فبـه يفـوز الإنسـان كله وبسـوء القلب يخسر الإنسان كل الوجود . . !

---

(٣٤) - متفق عليه .

إمكانات التلقي والإستيعاب

لأجل أن يتلقىٰ المرء المحسوسات علىٰ وجه صحيح وبالتالي يفيد منها بشكـل سليم ينبغي له بالتصـور القـرآني تحصيـل حسن الفهم وجودة التفكـير وعمق التـدبـر ابتـداء ، وعلىٰ قدر حصيلتـه من هذه الركائز الثلاث ينتفع بالتقاط المحسوسات .

حسن الفهم

والقرآن لا يريد من الناس أن يلتمسوا حسن الفهم كما يشاؤ ون هم في حدود إمكاناتهم وإنما يتدخل في هذا الأمر آخذاً بأيديهم ضمن برنامج تربوي ثابت خالد هو مجموعة من الآيات ثم يقرر أنهم حسنو الفهم إن هم أحسنوا التلقي والتجاوب .

وإليك التصور القرآني لمسألة الفهم متعرضاً لأهم نواحيها في حياة الإنسان :

حث على الفهم

يقول تعالى «**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون**»(١) .

---

(١) ـ الآية ٦٥ سورة الأنعام .

في الكـون المحيـط بالإنسان آثار عديدة تدلل بوضوح علىٰ قدرة الخالق عز وجل وإذا كان البعض لا يريد أن يتفهم هذه الآثار الجليلة القدر فماذا ينتظر . . ! ؟ هل يريد برهاناً علىٰ القدرة أن يبعث الله تعالىٰ عليه عذاباً من فوق رأسه كأن تتساقط علىٰ الأرض الشهب والنيازك والأجرام الأخرىٰ كالمطر فتقطعها إلىٰ أوصال متناثرة في السماء . . ! ؟ أم يريـد أن تتـزلـزل الأرض وتتشقق فتبتلع كل شيء علىٰ ظهـرها حتىٰ يجد للإيمان ما يبرره آنذاك . . ! ؟ أم يريد عذاباً طويل الأمد لا يؤخذ الناس به سريعـاً كأن يدع الله تعـالىٰ النـاس يتمـزقـون فرقـاً كثـيرة تتنـاحر وتتقاتل فيعذب بعضهم بعضـاً طوال سنـوات أو عقـود ولأهداف تافهة لا تستحق من العاقل أن يبذل لأجلهـا قلامـة ظفـر وليس أن تسفـك دماء ملايين الأنفس وتهدم آلاف المدن وتقتحم المآسي كل بيت وأسرة . . ! ؟ .

ولـو تأمـل المـرء بأنـاة كل حقب التاريخ الماضي لوجد ذلك القانون الإلهي واضحاً ، فكل هجر لمنهج الله تعالىٰ كان يقابله أن تعم فتنة كبرىٰ يذوق فيها الناس مرارات التمـزق والتنـاحر والاقتتال جرياً وراء شعارات رفعها إنسان متسلط أو تحقيقاً لمطامع إنسان متسلط أو مجرد خضوع لآراء إنسان متسلط . . !(٢) .

ولا يسلم من الفتنة عندما تصيب قوماً سوىٰ أناس ابتعدوا عن موجة الشر والضـلال وراحـوا يتميزون عنها بتطبيق منهج الله تعالىٰ بكل مايسعهم الجهد والواقع لأنهم علىٰ علم بأن أي تنـاغـم أو موادعـة أو رضىٰ يصـدر منهم تجاه متخذي منهج الله تعالىٰ ظهرياً يعني أن تصيبهم الفتنة هم أيضاً بكل عذاباتها . . !

المـؤمن الصـادق الإيـمان امرؤ عاقل فهو يرىٰ أن ما يصيبه من مشاق نتيجة الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر حتىٰ يكـون متميزاً عن قومه المبتلين بالفتنة بسبب ابتعـادهم عن منهـج الله تعـالىٰ هذه المشاق لا تكاد تساوي شيئاً يذكر قياساً إلىٰ وبال الفتنة وسخط الرب .

---

(٢) - حـربـا داحس والغـبراء والبسـوس في الجـاهليـة الأولىٰ وحـربا العالم الأولىٰ والثانية في القرن الحالي شواهد لمن يتأمل هي غيض من فيض . . !

فليس سواء أن تتحمل عذاباً من بشر في وقت محدود وأن تتحمل فتنة من رب البشر في الدنيا ثم تنقلب إلىٰ أخلد العذاب وأفظعه في الآخرة ، ليس سواء سخط إنسان مهما بلغ قدره واقتداره وسخط رب الإنسان الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد وإذا أخذه لم يفلته . . !

إن آيات يصرفها الله تعالىٰ لعباده في القرآن الكريم كهذه لجديرة أن تمدّ الإنسان بطاقات عظمىٰ من الفهم الحسن وتجعله يمر علىٰ آثار الخالق في هذا الكون مرور المتيقظ الحواس السديد العقل المنتفع القلب يبصر القشة فيرىٰ فيها آيات علىٰ الاقتدار الرباني ويبصر الأعظم منها فيرىٰ فيه الأعاجيب . . !

أما إن لم تتفتح مغاليق الفهم لدىٰ البعض بآيات كتلك فياويله . . !؟

إنه لا يريد أن يفهم حتىٰ لو سقطت السماء كسفاً فوق رأسه وحتىٰ لو انشقت الأرض وابتلعته . . ! ولماذا يعجل له الموت هكذا بسرعة . . ! ؟ إن هذا الصنف من الناس يحتاج إلىٰ أن يتمزق ويتناحر ويتقاتل ويعذب بعضه بعضاً بل وأن يذيق بعضهم نفسه مر العذاب متخبطاً لا يدري ما يفعل كالريشة في مهب الريح ، ولقد صادفت أفراداً من هذا الطراز يفخرون بوضعهم القلق المتفجر ويتباهون جهاراً بأن عقولهم (الجبارة) لم تتوصل بعد إلىٰ (تكيف إنساني سديد) . . . !

ولقد كنت أذهل عجباً لأمرهم أحياناً ، فأحدهم يقرأ ويتعلم الكثير ولكنه كلما اكتسب ثقافة كلما ازداد بعداً عن الحق الإلهي فيسقط تحت طاحونة البلاء الموعود ، تارة هو يعذب نفسه برذائل التصرفات وتارة يتلقىٰ من الناس المحيطين به أقسىٰ العذاب وتارة يتجرع غصصاً من نكد الدنيا تجعله يضيق ذرعاً بكل لحظة من العمر . . !

كل هذا ولا يريد أن يفهم بل يبقىٰ كما لاحظت إلىٰ آخر نفس مشيحاً بوجهه عن الحق الإلهي وهو يعلم أنه ميت بعد أيام لا محالة وذاهب إلىٰ (العالم الآخر) فلا يبالي . . !

أرأيت . . ! ؟ كم طرق رأس هذا بمر العذاب والمعاناة فما ازداد إلا اعوجاجاً . . ! ؟ كان ممكناً أن يتخطفه الموت السريع إلىٰ جهنم وبئس المصير ، ولكن لا . . فالأنكىٰ له أن يبقىٰ في الحياة سنوات أكثر يتاح له وقت أطول وتقام عليه

حجج أقوىٰ ويزداد من الإثم والضلال ما يرشحه لمقعد في دار الحريق يخلد فيه مهاناً . . !

العظة لمن يفهم

يقـول تعـالىٰ «وهـو الـذي انشأكم من نفس واحـدة فمستقـر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون»(٣) .

ما أكثـر آيـات الله تعالىٰ فمنها المشاهد المبثوث في هذا الكون العظيم ومنها المسطـور المفصـل في كتـابه الخالد ولكنها لقوم يفهمون باهتمام وتطلع وحرص وليست لقـوم يستلفت عقـولهم ساقـط الكـلام وتافه المتاع وحصىٰ الطريق فيما هم لا يعيرون كلام الله اهتماماً ولا يحركهم إلىٰ ما وراءه تطلع ولا يتلمسون مصيرهم الأبدي بحرص . . !

والإنسـان الـذي يفهم ويـريـد أن يفهم حقاً ينظر إلىٰ النفس الواحدة مثلاً كيف تتكاثر فخلية تستودع صلب الرجل ثم تستقر في رحم أنثىٰ فتتلاقح ويكون من بعد إنسان آخر ذكر أو أنثىٰ وفق قانون الله الضابط لتوازن الجنس البشري وبهذا المنوال يتـوالىٰ التكـاثـر فيكـون النـاس بصفات تفصيلية تتباين وتتشكل بين المرء وأبيه والأم وبنتهـا والأسـر والقبـائل والشعوب والأمم حتىٰ يكون المجتمع البشري بالنسق الذي يتناغم مع حياة الأرض علىٰ أروع طراز . . !

إنسـان ينظـر إلىٰ خلق الله كيف تكـاثر لدىٰ البشر من نفس واحدة فيحس بعظمـة الخـالق عز وجـل مولياً وجهه تلقاء منهجه استمساكاً به وخضوعاً لهو الفطن ذو الفهـم الذي يعطي الأشياء حقها . . !

أما إن لم يهز وجدانه التفكير بمسألة الخلق في النفس الواحدة لدىٰ تكاثرها إلىٰ بشـر تكـوينـاً لمجتمع إنساني فريد فأي فهم لهذا المرء يمكن الاعتداد به . . ! ؟ وأي الأشيـاء إذن يمكنـه فهمهـا . . ! ؟ ولم هو يسمـح لنفسـه بفهم أشيـاء معينـة ويمنعها عن فهم أشياء أخرىٰ . . ! ؟

---

(٣) - الآيـة ٩٨ سورة الأنعام .

إنسـان كهـذا ليس سويـاً البتة في سلوكه فهو لا يدع الحقائق تأخذ حجمها وبـالتـالي تفـرض وزنهـا عليـه وإنما ينتقي من الأشياء ما يلائم هواه ، وحبذا لو عامل الأشيـاء كما يعـامـل الطعـام فهـو عنـدمـا يأكـل لا يختـار ما يناسب ذوقه فقط وإنما ما تستـدعيـه حاجـة الجسم أيضـاً ولو أنه لم يدخل إلىٰ جوفه إلا ما يشتهيه مغفلاً عناصر يحتاجها الجسم ضرورة لأخل بصحته . . . !

وهكـذا تختـل حيـاة امرىء يختار الحقائق كما يفعل الصغار عندما يختارون اللعب وفقاً لجذب الأشكال والألوان والأحجام ، فحبة من لؤلؤ مثلاً قد لا تستهويهم كبالون طائر في الهواء . . !

وامـرؤ كهـذا كيف يتفكـر في خلق النفس الواحدة ما دام يتعامل مع الحياة بمستوىٰ هابط ضحل وهو يحسب أنه علىٰ موقف يعتد به وما هو إلا كطفل ضائع بين (لعب) عديدة ذات أشكال وألوان وأحجام . . !

يا للمسكين . . !

آيـات الله تعـالىٰ من طراز النفس الـواحـدة المتكاثرة بشراً يعمر الأرض إنما تفصـل لصنف من النـاس رفيـع ذلك لأنهم يفقهون فحياتهم واقعة تحت طائلة الفهم وحسن الفهم واتباع مؤداه بلا تدخل من هوىٰ ومزاج وشهوات . . !

ويا له من تعهد رباني بتنمية الفهم وترقيته لدىٰ أناس يحرصون عليه فعلاً ، فلفت أنظـارهم إلىٰ أمثلة في الكـون العظيم من طراز خلق النفس الـواحدة لهو كفيل بأن يصـل بفهم أولئـك إلىٰ مستـوىٰ يتنـاسب مع دقـة الخلق وسعـة الكـون ويجعـل الإنسان الضئيل مستطيعاً التلقي من الله الكبير المتعال علىٰ أحسن الوجوه . . !

فهم الدين

يقـول تعـالىٰ «**وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقـة منهم طائفـة ليتفقهـوا في الـدين ولينـذروا قومهم إذا**

رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»[٤] .

فهم الـدين بكـل مفـرداتـه أمـر ضروري لأتباعه فمن لم يتح له ذلك كيف ينتظـر منـه أن يطبق الشـرع علىٰ نفسـه وعلىٰ من يدخـل تحت رعـايتـه في البيت والمجتمع . . ! ؟ وكيف ينتظر منه أيضاً أن يبلغ الدين لأناس يريدون الوقوف علىٰ حقائق ما أنزل الله تعالىٰ . . ! ؟

وبما أن الإسلام حركة عمل ضخمة تتناول حياة الفرد والجماعة علىٰ نطاق واسع شمولي فلا بد للمؤمنين بهذا النهج أن يكونوا علىٰ بينة بكل ما يتعلق بخطاهم ضمن تلك الحركة لكي يكونوا منسجمين معها وخشية أن يؤثر أي وقع خطىٰ ناشز في عموم الحركة فيحد من فاعليتها ويخدش بهاءها . . !

ومن هنـا فإن فهم الـدين مسـؤوليـة كبرىٰ تقع علىٰ كاهل المؤمن فهي لا تتعلق فقـط بإكسـابـه الـوعي الـرصين بالمعتقد وتمكينه من التفاعل الجيد معه وإلزامه بحسن الأداء العبادي وإنما تتعلق كذلك بإظهار المدىٰ الكامل للإسلام بكل ما يعنيه وكما أراد الله تعالىٰ أن يتجسد فوق أرضه . . !

الجهـاد في سبيـل الله تعـالىٰ حق وهـو عماد لبقاء الدين عزيزاً مصان الحوزة منتشـراً ولكن ينبغي أن يتقـدم عليـه فهم للدين بقـدر كاف إذ بدونـه لا تعـرف أهمية الجهـاد ولا قدر القضـايـا التي تستدعي التضحية بالغالي والنفيس اعلاء لها ولا يعرف مدىٰ الجرم الذي يرتكبه اعداء الدين بمحاربته ولا تستشعر هيبة المعبود عز وجل كفاية ولا تعطىٰ أوامره ما تستحق من الحرمة ، ولا يخفىٰ أن الإحاطة بكل هذه الأمور تمنح المـؤمن قوة تجعـل ضربـاتـه أشـد وقعاً وتدفعه للسعي نحو أهدافه بحب غامر للمهام فيستسهل الصعاب يتلقىٰ كل التبعات بصدر رحب ونفس رضية . . !

الصحب الأجـلاء رضي الله عنهم الـذين تربـوا أطـول مدة علىٰ الفهم النبـوي للإسلام ثبتـوا يوم حنين إلىٰ جانب قائدهم ﷺ فيما انهزمت جموع غفيرة كانت معهم لأنهـا حديثـة عهـد بالـدين قد فهمتـه إجمالاً . . فرق شاسع بين امرىء يفهم الـدين تفصيـلاً فيعـرف قدره ويعتقـد أن بذل النفس رخيصـة من أجل اعلاء

---

(٤) - الآيـة ١٢٢ سـورة التوبة .

كلمته هو عطاء سهل وإن أوصله إلىٰ الجنة قياساً إلىٰ عظمة دين الله تعالىٰ ومسؤولية المؤمن تجاهه ، وبين امرىء لم يفهم الدين إلا قشوراً فلا يعرف قدره ويبخل برخيص الممتلكات عند داعي التضحية ولا يحس بثقل مسؤولية الإلتزام . . !

إن فهم الدين عمل تربوي عظيم الجدوىٰ ، فهو إذا تم علىٰ وجه صحيح يفتق الذهن بشكل لا نظير له ويرتقي به نحو العلىٰ لأن المرء يتلقىٰ أثناء ذلك مبادىء اعدها الله الخالق الحكيم مصاغة بكلام منه أيضاً . . ! ! فأي فهم بعد ذلك يكون . . ! ؟ وأي عجائب تنتظر من فهم تولاه رب **«بكل شيء عليم»**(٥) . . ! ؟

بحسن الفهم تنتفض قوانا

يقول تعالىٰ **«يا أيها النبي حرض المؤمنين علىٰ القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون»**(٦)

الحد الفاصل هنا بين الفئتين هو الفهم . . وأي فهم . . ؟

فئة تعرف بالفهم المتلقي من الله تعالىٰ . . ! فهم يتناول الوجود كله باستيعاب فكري معقول . . ! فهم يرىٰ كل شيء ما خلا الله تعالىٰ محكوماً بأمر ربه . . ! فهم يعتقد صاحبه أن خالق الكون معه . . ! فهم يرىٰ الموت انتقالاً إلىٰ حسن الجزاء في حياة الخلد مع الذين أنعم الله عليهم من الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . . !

يقابلها فئة تعرف بفهم كليل باهت يتمسك فيه المرء بأفكار من نسج خياله هو أو يتلقاها من نسج الآخرين أمثاله من البشر المتسمين بالنقص والقصور

---

(٥) - **الآية ٢٩ سورة البقرة .**

(٦) - **الآية ٦٥ سورة الأنفال .**

والضعف . . ! فهم لا يعرف معنىٰ الوجود ولا يطال الأفق الأوسع فيه كما يقول الشاعر العربي المعاصر (إيليا أبو ماضي) مصوراً حال أمثاله :

(جئت لا أعلم من أين ، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقىٰ سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟
لست أدري !

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود ؟
هل أنا حر طليق ، أم أسير في قيود ؟
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود ؟
أتمنىٰ أنني أدري ، ولكن . . .
لست أدري !

وطريقي ، ما طريقي ؟ أطويل أم قصير ؟
هل أنا أصعد ، أم أهبط فيه وأغور ؟
أأنا السائر في الدرب ، أم الدرب يسير ؟
أم كلانا واقف والدهر يجري ؟
لست أدري !

أتراني قبلما أصبحت إنساناً سوياً
كنت محواً ومحالاً ، أم تراني كنت شيأً ؟
ألهذا اللغز حل ، أم سيبقىٰ أبدياً ؟
لست أدري . . ولماذا لست أدري ؟
لست أدري !) [٧] .

---

(٧) - قصيدته (الطلاسم) . . الشهرة التي نالتها هذه القصيدة جاءت من كونها تعبر عن معاناة كثيرين وليس أنها تقدم علاجاً أو بصيص نور لهؤلاء المعذبين . . !

إنـه فهم يقف صاحبـه حيران إزاء الكثـير من أشيـاء الكـون يتوجس منها ويضطـرب ويجـده تائهـاً بين (ألغـازهـا) . . ! فهم يتعاجز عن إدراك الوجود الإلهي المطلق وهـو ماثـل صريـح بالعـديـد من ملامحه في كل ما احتواه الكون وكل ما استقاه سمع ووقع عليه بصر وتناولته سائر الحواس والجوارح ومحصه عقل وتلقاه قلب . . ! فهم يرىٰ صاحبه عجز ذاته وانقطاعها عن قوة توازي ضخامة الكون يمكنه أن يشعر بوقـوفهـا إلىٰ جواره . . ! فهم من يرىٰ أنـه ليس أكثـر من كتلة جسم ضئيـل اللحم ضعيف الساعـد . . ! فهم يرىٰ المـوت نهايـة لكـل شيء و(إن مت ظمآناً فلا نزل القطر) كما قيل . . !

الإنسان لا يتحرك بقوة الجسم والساعد فقط وإنما هناك بواعث في اعماقه لو أخذت مداها لأمكن لها أن تزوده بقوىٰ مضافة وبحيث يتفوق الواحد علىٰ عشرة كما وعد الله تعالىٰ عباده صادقي الإيمان ذوي الفهم الحسن والصبر الجميل عند ملاقاة العدو . . !

عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل رضي الله عنه كان امرأً ضئيل الجسم وراعي غنم في مكـة عنـدمـا كان يحكمهـا اصحاب التجارة والأموال ووجهاء البيوت والأسـر ودهـاقنـة الشـرك والوثنية فلما بزغ نور الإسلام واستنار قلب الرجل بقبس منه فكأن هذا الإنسان صار عشرة أو يزيد ومصداق هذا القول نجده في معركة بدر عندما كان يقـاتـل مع إخـوانـه المسلمـين صنـاديـد قريش المشهـود لهم بالفـروسية وعنفوان الشجاعة وفنون البأس فلم يخر صريعاً رغم أن عدد المشركين بلغ ثلاثة اضعاف عدد المسلمين مع تفوقهم الكبير في كمية السيوف والرماح والدروع والخيل والإبل والأطعمة . . !

وليس أنـه نجـا من المـوت فقط . . ! بل إن الصحابي ابن مسعود اعتلىٰ صدر أبي جهل قائد المشركين في المعركة وهو طريح علىٰ التراب بعد أن جرح فجرىٰ بينهما الحوار التالي :

(ابو جهل يسأل : لمن الدائرة . . ؟

قال عبد الله : لله ورسوله . . !

ثم استتلىٰ عبد الله : هل أخزاك الله يا عدو الله . . ؟

قال : وبماذا أخزاني . . ؟

وتفرس في عبد الله ثم قال له : ألست رويعينا بمكة . . ! ؟

فجعل عبد الله يهوي عليه بسيفه حتىٰ خمد)[٨] .

يا للفارق . . !

عبد الله بن مسعود ما كان يجرؤ قبل إسلامه علىٰ أن يتفوه بكلمتي تحية (عم صباحاً) يلقيها علىٰ أبي جهل أحد سادات قريش وكبرائها المشار إليهم بالبنان في المجتمع المكي ولكن بعد أن خالط الإيمان قلبه يعتلي صدر ذلك الطاغية ويحز رأسه وسط معركة تشكل القوىٰ المادية للمشركين فيها ثلاثة أضعاف القوىٰ المادية للمسلمين .

الإنسان يقاتل إذن بقوىٰ غائرة في اعماق الجسم تجعله ينازل عشرة فيهزمهم بإذن الله تعالىٰ . . قوىٰ مفتاحها الفهم الحسن ، وتحديداً الفهم عن رب العالمين . . ! !

خوف وليد سوء الفهم

يقول تعالىٰ **«لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون»**[٩] .

عندما يفهم الإنسان الأشياء علىٰ حقيقتها لا يخشىٰ أحداً في هذا الكون سوىٰ الله تعالىٰ لأنه الخالق المهيمن الكبير المتعال . . أما إذا لم يفهم الأشياء علىٰ حقيقتها فإنه لن يخشىٰ الله تعالىٰ ولكن بدل هذا سيمتلىء رعباً من كل شيء بما في ذلك ظله أحياناً . . !

واعجب ما يستوقفني هنا تساؤ ل هو :

عندما لا يخشىٰ الإنسان ربه لم إذن يشعر برهبة كبرىٰ من عباده المؤمنين . . ! ؟ الأولىٰ أن لا يخشىٰ عباده أيضاً فليس معقولاً أن يحس برهبة في قلبه

---

(٨) - ينظر (فقه السيرة) للشيخ محمد الغزالي ص٢٤٦ .

(٩) - الآية ١٣ سورة الحشر .

من الناس فيها لا يرف له جفن إزاء ربهم . . ! ؟

لعل هذه الحال تصور أي رعب يتملك القلب إذا فرغ من خشية الله تعالىٰ وتصور الواقع المرير الذي يعيشه المرء بدون فهم صحيح للأشياء . . ! إنه يغدو كالريشة وسط الرياح العاتية لا تملك شيئاً من أمرها لأن الفعل الذاتي قد انتزع منها وترك للمحيط الخارجي فتسيرها التيارات كيفما تشاء . . !

ريشة بعد أن نزعت من مكانها غدت بلا قيمة أما لو بقيت في جناح الطائر لقامت بدور مهم في عملية التحليق والطيران والهبوط ، وهكذا الإنسان بالفهم السوي وبدونه . . !

وثمة فارق كبير بين خائف من الله تعالىٰ لا يخاف أحداً في الوجود سواه وبين غير خائف من الله تعالىٰ يخاف كل شيء في الوجود سواه . . أو نعجب إن انتصر الأول علىٰ الثاني انتصاراً كاسحاً . . ! ؟

الأول يشعر أنه قوي عزيز لأن رب الوجود معه يقف إلىٰ جواره وقد وعده بإحدىٰ الحسنيين النصر أو الشهادة والثاني يشعر أنه ضعيف ذليل لأنه مذعور ممن يقاتله وهو فزع من الموت يراه كالدهليز المظلم . . !

ألا يكون طبيعياً أن يغلب واحد من عباد الله المؤمنين عشرة مهزوزين في سوح القتال لأنهم لا يفقهون جيداً لم يخافوا القوة العظمىٰ فانشغلوا بالخوف من كل شيء . . ! ؟

بالفهم نحذر التهلكة

يقول تعالىٰ «**فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لاتنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون**»(١٠) .

---

(١٠) - الآية ٨١ سورة التوبة .

المخلفون أناس لم يرتكز الإيمان في قلوبهم جيداً نراهم هنا يفرحون بقعودهم في الظلال بين أهليهم وقد كرهوا الجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله وابتهجوا أن لم ينفروا في الحر فيما رسول الله خارج في غزوة تبوك يذود عن الإسلام ويعلي رايته في الأطراف الشمالية من الجزيرة .

إنهم سيئو الفهم . . !

ولو كانوا جيدي الفهم لما تملكهم الفرح بالقعود خلاف رسول الله وهو أفضل الخلق قاطبة ولعلموا أن نار جهنم أشد حراً ولشعروا بذلة التخلف عن الجهاد بالأموال والأنفس ذوداً عن دار الإسلام . . !

لقد فاتهم شرف المشاركة في جيش يقوده الرسول في سبيل الله . . ! فاتتهم صحبته في رحلة تستغرق أسابيع وفيها يتنزل عليه من الوحي ما هو رحمة للناس وهدىٰ ونور . . ! وفاتتهم حسنات الجهاد في غزوة سَميت العسرة . . !

إنهم أوقعوا أنفسهم في التهلكة وما يشعرون . . !

ساء فهمهم فساء إيمانهم . . !

ولو أنهم فهموا الأمور علىٰ حقيقتها لأصابهم الذعر من جريمة التخلف قعوداً في الظلال كارهين البذل في سبيل الله فيما الرسول ﷺ والجمع الأعظم من صحابته يقطعون الصحراء المتوهجة بفيح يكاد يشوي الوجوه مقبلين علىٰ عدو لا يدرون ما هو صانع بهم لاجتثاث شأفة الإسلام . . !

هؤلاء تخلفوا فتملكهم الفرح لأن إيمانهم شيد علىٰ فهم سيئ . . . ولكن نفراً ثلاثة تخلفوا معهم كان وضعهم مغايراً لأنهم قعدوا في الظلال بسبب هفوة تصرف لا يصاحبها إصرار علىٰ الخطأ . . !

وبينما ازداد الصنف الأول فرحاً لأن الرسول ﷺ قبل أعذارهم نجد الصنف الثاني وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية قد شعروا أنهم وقعوا في الطامة الكبرىٰ عندما لم يعذرهم الرسول بعد أن صدقوه اسباب تخلفهم غير الوجيهة . . !

هؤلاء الثلاثة لم يفرحوا بالتخلف وقد أحسوا بالنكبة عندما لم يقبل اعترافهم بالتقاعس لأنهم يفهمون أي معنىٰ مرير يكمن وراء رفض الرسول ﷺ قبول أعذارهم وما تعنيه إدانتهم بالتخلف عن الجهاد وما يعنيه تخلفهم تعلقاً بأعذار لاوزن لها إلىٰ جانب نداء الله . . !

قوم فرحوا وهم هالكون بتخلفهم عندما يحاسبهم المطلع علىٰ السرائر سبحانه وتعالىٰ ونفر ضاقت بهم الدنيا وهم مستنكرون لتخلفهم يستغفرون الله بصدق وهم تائبون . . ! لماذا . . ؟ لأن فهم هؤلاء غير فهم اولئك . . ! وبالتالي فإن إيمان هؤلاء غير إيمان أولئك . . !

«فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لاتنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . . فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون»(١١) .

«وعلىٰ الثلاثة الذين خلفوا حتىٰ اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم»(١٢) .

وثمة مثلان يذكرهما ابن اسحاق في السيرة يصوران جيداً فهم الصحابة للحذر من التهلكة والإقبال علىٰ نداء الله عند غزوة تبوك طلباً للنجاة مهما كانت الظروف عسيرة والأوضاع مثبطة :

---

(١١) ـ الأيتان ٨١ و٨٢ سورة التوبة .

(١٢) ـ الآية ١١٨ سورة التوبة .

(مضىٰ رسول الله ﷺ ، فجعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون : يا رسول الله تخلف فلان ، فيقول : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالىٰ بكم وإن يك غير ذلـك فقـد أراحكم الله منـه ، حتىٰ قيـل : يا رسول الله قد تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره ، فقال : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

وتلوّم[١٣] أبو ذر علىٰ بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله علىٰ ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً . . ونزل رسول الله في بعض منازله ، فنظر ناظـر من المسلمـين فقـال : يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي علىٰ الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر[١٤] فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده)[١٥] .

و(إن أبـا خيثمـة بعـد أن سار مع رسول الله ﷺ أياماً رجع إلىٰ أهله في يوم حار ، فوجـد امـرأتـين له في عريشين[١٦] لهما في حائطه[١٧] قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه الماء وهيأت له فيه طعاماً .

فلما دخـل قام علىٰ باب العـريش فنظر إلىٰ امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسـول الله ﷺ في الضـح[١٨] والـريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ما له مقيم ، ما هذا بالنصف . . !

ثم قال : والله لا أدخـل عريش واحـدة منكما حتىٰ ألحق برسول الله ﷺ ، فهيئـا لي زاداً ، ففعلتـا . . ثم قدم ناضحـه[١٩] فارتحله ، وخرج في طلب رسول الله

---

(١٣) - تمكث وتمهل .

(١٤) - معناه الدعاء أي أرجو الله أن تكون أبا ذر .

(١٥) - تنظر (السيرة النبوية) لابن هشام المجلد الثاني ص٥٢٣ .

(١٦) - العريش شبيه بالخيمة يظلل ليكون أبرد الأخبية والبيوت .

(١٧) - بسـتانه .

(١٨) - الشمـس .

(١٩) - البعير يستقىٰ عليه .

ﷺ حتىٰ أدركه حين نزل تبوك . . !

حتىٰ إذا دنا قال الناس : هذا راكب علىٰ الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة ، فقالوا : يا رسول الله هووالله أبوخيثمة . . فلما أناخ أقبل فسلم علىٰ رسول الله ﷺ ، فقال له الرسول : أولىٰ لك[٢٠] يا أبا خيثمة .

ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر ، فقال له الرسول خيراً ودعا له بخير)[٢١] .

تعطيل الفهم

يقول تعالىٰ «**ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**»[٢٢] .

لهم آذان تسمع آيات الله تتلىٰ ولكنهم يمرون عليها كمن لم يسمع شيئاً البتة هذا إن لم يتخذوها سخرية . . ! ولهم اعين تبصر آيات الله تكراراً لا يتوقفون عندها وقد يعتبرون الناظر إلىٰ مشهد كوني مستفهماً كمن يستنطق الحجر الأصم . . ! ولهم قلوب تستطيع أن تفقه ما يواجهها من حقائق ولكنهم اغلقوها باحكام فغدت كالجدار السميك لا يتجاوزه شيء كمن يعيش في حفرة متجاهلاً العالم من حوله . . !

فيالها من غفلة لأنها التغافل . . !

إن غفلة الأنعام تهون لأنها لا تمتلك حواس تعي وقلوباً تفقه فيما وراء النواحي الغريزية ولو أنها أوتيت حواس وقلوباً علىٰ غرار ما أوتيه الإنسان لربما لم

(٢٠) ـ كلمة تهديد معناها علىٰ قول المفسرين : دنوت من الهلكة .

(٢١) ـ تنظر (السيرة النبوية) لابن هشام المجلد الثاني ص٥٢٠ .

(٢٢) ـ الآية ١٧٩ سورة الأعراف .

تتغافل كأن تغلقها فلا ترىٰ أو إن رأت لا تبالي بما يتحصل لها من حقائق . . !

ما الذي يدعو أولئك إلىٰ تعطيل الفهم إلىٰ حد أن يكونوا أضل من الأنعام . . ! ؟

إنه ليس تعطيلاً للفهم تاماً بدليل أنهم يمارسون كل شيء يقدرون عليه في الحياة باستثناء الدنو من الحق . . !

بل إنهم يفهمون جيداً فيما يخص اللقمة . . ! ويفهمون أكثر فيما يتعلق بالمتعة . . ! ويفهمون بلوذعية في أباطيل حياتهم . . !

أما كان حرياً بهم أن يزداد فهمهم حدة إزاء الحق لأنه أهم مطلب في الحياة هو ظلها الوارف وقائد الإنسان إلىٰ حسن العاقبة . . ؟

فما الداعي لأن يعامل التماس الحق بكنود يصل إلىٰ أن يعطل الإنسان فهمه ويرتضي لنفسه أن تنحط إلىٰ درك تكون الأنعام قياساً إليه أوعىٰ منه وأهدىٰ . . ! ؟

أمر عجيب حقاً . . !

لو سألت معطل الفهم تجاه الحق لما وجد جواباً . . !

فما يمكنه أن يقول . . ! ؟

لا جواب . . !

أما تشخيص العلة فهو الإنخداع بالجري وراء الشيطان الذي ينفث سمومه في الإنسان طوال الحياة بلا انقطاع . . ! أوليس الشيطان يجري في ابن آدم مجرىٰ الدم . . ! ؟ كيف إذن يقر له قرار إن لم يفلح في دفعه إلىٰ قعر حفرة لا يخرج منها إلا بشق النفس . . ! ؟ والإنسان غافل لا يدري ما يفعل العدو به من الداخل ويحسب عندما يحس بمرارة الحال أن الأمر لا يعدو أن يكون حظاً عاثراً . . !

إن أفتك الأسلحة التي يخشاها الشيطان علىٰ نسجه المغرر بالإنسان هو تيقظ حواس المرء ووعي عقله وحسن تعامل قلبه مع الحقائق . . !

ولذلك فإنه يظل ينسج حتىٰ يقنع الإنسان بغلق قلبه وصرف حواسه ومن ثم تعطيل فهمه إزاء التماس الحق لأنه (مطلب ثقيل الوطء) (يعكر اللذات) و(يضيق علىٰ النفس) . . !

ويغدو المسكين اعمىٰ لا مثيل لعلته وهو فرح مسرور ما دام طليقاً من (أسر) الحق وتبعاته . . ! ولم يسأل نفسه بأي أسر وقعت . . ! ؟

نسج الشيطان لا يكتمل وأغراضه لا تتحصل ما دام الإنسان طليق الحواس والعقل والقلب إذن لا بد أن ينصب العمل الشيطاني أولاً وبكل مكر وفن علىٰ تغطية الحواس والعقل والقلب بغشاوات تعكر صورة الحق المتلقاة حتىٰ يغدو الإنسان ألعوبة بيد الشيطان يقذف بها حيث يشاء . . ! يسوقها إلىٰ مباذل الدنيا ومراتعها الوخيمة ومن بعد إلىٰ جهنم وبئس المصير فإذا بالمخدوع لا يتردد وإنما يطلق العنان لقواه إسراعاً في الإتجاه الذي أشار إليه اللعين . . !

وبمرور الوقت علىٰ حالة الإنصياع للشيطان يتسمك نسجه للغشاوات علىٰ الحواس والعقل والقلب فلا تعود ترىٰ إلا خيوط النسج وهي الشهوات والمتع المحرمة . . ! وكلما ازداد الولوغ في المحرمات كلما استحكم العمىٰ . . !

ويبقىٰ الشيطان وغرضه في مأمن ما دام الإنسان سادراً في ذلك الغي إلا أنه يظل يحس بالذعر من احتمال قذيفة تنهال علىٰ تلك الغشاوات فتخرقها ويتسرب قبس نور إلىٰ اعماق ذلك الإنسان فتستضيء وربما ينفضح كل الخداع والمكر والتضليل . . !

الأمر إذن بيد الإنسان ، لأن القذائف المزقة للغشاوات ـ هدي الرسل والآيات الكونية ـ تنهال عليها في كل لحظة ولا يمنع مفعولها إلا هو عندما يعين علىٰ نفسه الشيطان بعدم الإلتفات إلىٰ نور هداية منبعث من هدي رسول أو من دلائل حق مبثوثة في الكون . . !

خطل الفهم

يقول تعالىٰ **«أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن**

تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً»(٢٣) .

إن خطل الفهم إذا هو استحكم واستمر لا يقل شراً عن تعطيل الفهم فمؤدىٰ الإثنين إلىٰ الضلال وربما كان خطل الفهم أكثر خطراً إذا توهم الإنسان أنه علىٰ العقيدة راشداً وما هو إلا علىٰ خط منحرف ينتهي به أخيراً إلىٰ التيه . . !

ومن الأمثلة علىٰ خطل الفهم ذات العواقب الوخيمة الاعتقاد بإمكان تحاشي الموت كالإبتعاد عن القتال جهاداً في سبيل الله والاحتماء في صروح منيعة أي خلافاً لقوله تعالىٰ «كتاباً مؤجلاً» (٢٤) و «إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»(٢٥) و «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلىٰ مضاجعهم»(٢٦) .

إنه خطل في الفهم خطير يعني :

أولاً - رفض أصل كبير في العقيدة ينص علىٰ أن الله تعالىٰ وحده المحيي والمميت .

ثانياً - استشراء فساد الفهم إلىٰ الأصول الأخرىٰ .

ثالثاً - ترك الجهاد رغم أنه قوام العقيدة .

رابعاً - ضعف التمسك بالعقيدة عموماً المؤدي أخيراً إلىٰ التنصل من كل التزام تجاهها علىٰ الصعيد العملي إن لم يكن علىٰ الأصعدة كلها .

وأي إيمان يبقىٰ للمرء إذا اعتقد أن الحياة والموت أمر يمكن أن يتحكم فيه أحد سوىٰ الله تعالىٰ كالإنسان عندما يتحاشىٰ الجهاد ولا يلبي نداء العقيدة الداعي إلىٰ الذود عنها . . ! ؟

---

(٢٣) - الآية ٧٨ سورة النساء .

(٢٤) - الآية ١٤٥ سورة آل عمران .

(٢٥) - الآية ٤٩ سورة يونس .

(٢٦) - الآية ١٥٤ سورة آل عمران .

ولذلك أعتبر التسليم بالقضاء والقدر شرطاً للإيمان كما أوضح الرسول ﷺ ذلـك رداً على سؤال عن مفهـوم الإيـمان قال «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(٢٧) .

أما من لا يكاد يفقه كلاماً يتضمن الفهم السوي للعقيدة فهو كمن يتعمد صم أذنه وإغماض عينه وإغلاق قلبه أمام هدي الرسل ونحو الآيات الكونية خوفاً من الإنجرار إلى الحق وتبعاته . . !

الهروب من الفهم

يقول تعالى «**وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون**»(٢٨) .

ولماذا لا يستمعون للسورة . . ! ؟

ألا إنهم لاينصفـون أنفسهم بالهروب من فهمها . . ! ومـاذا يرتجى من أناس يظلمون أنفسهم بهذا الشكل ، أيهمهم إيقاع الظلم بالحقائق سواء المضمنة في سورة أو المبثوثة في طول الكون وعرضه . . ! ؟

ويكفيهم خزياً وإدانة أنهم يتسللون لواذاً على رؤوس الأصابع خشية أن يراهم أحد وهم يهربون بعيداً عن فهم آيات الله تعالى المتنزلة . . !

ما تفسير علة الهروب . . ؟

إنهم يعلمون جيداً أن ما يتعاطونه من أباطيل يستنكرها الله تعالى سوف لن تلقى من التنزيل الحكيم إلا التنديد وترهيب أصحابها وفضح مسلكهم الشائن وبدل

---

(٢٧) - جزء من حديث رواه مسلم .

(٢٨) - الآيـة ١٢٧ سـورة التوبة .

أن يفيـدوا من الهـدىٰ النـازل من السـماء فيصحـحـوا المسـار وينهجوا الدرب المستقيم إذاهم يفرون إلىٰ حيث لا يجابهون بإدانة وتقريع . . !

ولكن ، إلى أين المفر . . ؟

أمن الله تعالىٰ تهربون . . !

يا هؤلاء لو أنكم استطعتم الفـرار في اليقظـة إلىٰ مكـان لا يطـرقِ فيـه أسماعكم صوت الحق ودويه فإن رؤ يا تقتحم رؤ وسكم في الليل وأنتم نائمون كفيلة بأن توصل إليكم خلال لحظات كل ماهربتم منه بأفزع الصور . . ! أليس كذلك . . ! ؟

حقاً إنكم لاتفقهون . . !

لو فقهتم لكـان ثمـة إنصـاف يدعـوكم إلىٰ الإصغـاء للسورة أولاً ومن ثم فهمها علىٰ أحسن ما ينبغي لأنها كلام الله تعالىٰ الجدير باهتمام يتوازىٰ مع قدره . . !

ولو فقهتم لكان منكم موقف الشجاعة في مواجهة الحقائق والتعامل معها لا موقف الجبن في الهروب منها . . !

ولو فقهتم لكان تقدير حسن منكم لمصلحتكم في الأخذ بالحقائق والتزامها ولضرركم في افتقاد الحقائق ومجافاتها . . !

ولـو فقهتم لكـان خوفكم من الله تعالىٰ وحياؤ كم منه أولىٰ من خوفكم من الناس وحيائكم منهم . . !

انصرفوا عن الفهم فماذا ينتظر أن يصيبهم . . ؟ هل يغير الله تعالىٰ قوانين الوجود لأجل هؤلاء الزاهدين بالحق الفارين عنه بأن يمنحهم الهداية والعز . . ! ؟ لا . . !إن المنصرف عن الحق لا يكون نصيبه إلا الضلال والهوان . . !

فليس سواء في العـدل الإلهي امـرؤ يحرص علىٰ الهـدايـة متحـريـاً الحق ملتمساً الرشاد يصغي ويبصر ويعي ويفهم وينتفع وامرؤ لا يحرص علىٰ الهداية هارباً من فهم الحق متشبثاً بالغواية لا يريد أن يصغي ولا أن يبصر ولا أن يعي ولا أن يفهم ولا أن ينتفع . . !

«فمن اهتدىٰ فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها»[٢٩] .

«والذين اهتدوا زادهم هدىٰ»[٣٠] .

أما سواهم **«فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم»**[٣١] .

قوانين كونية لا تتخلف . . !

ولأجل من تتخلف . . ! ؟

ألأجل أناس اختاروا الإنحراف بإصرار . . ! ؟

«صرف الله قلوبهم» بلىٰ . . ! هم أرادوا لهذا القانون الرباني أن يفعل فعله هكذا عندما **«نظر بعضهم إلىٰ بعض»** وقالوا **«هل يراكم من أحد»** **«ثم انصرفوا»** . . أما لو أنهم أرادوا الهداية حقاً لكان القانون الرباني قد جعل قلوبهم تنتفع بفهم الحق . . !

وما يظلم ربك أحداً . . !

الاعمال السيئة تطمس الفهم

يقول تعالىٰ **«رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع علىٰ قلوبهم فهم لايفقهون»**[٣٢] .

واحد من الاعمال السيئة التي تطمس الفهم هو أن يأتي أصحاب الحول والقوة والاستعداد ساعة الجهاد لا للإلتحاق بالركب الملبي لنداء الله في الذود عن

---

(٢٩) ـ الآية ٤١ سورة الزمر .

(٣٠) ـ الآية ١٧ سورة محمد .

(٣١) ـ الآية ٥ سورة الصف

(٣٢) ـ الآية ٨٧ سورة التوبة .

العقيدة والذب عن دارها وصيانة شرف أتباعها وبالتالي شكر الله عن هذا الطريق علىٰ ما آتاهم من نعم وتمكين وإنما لأجل أن يعتذروا بحجج واهية للبقاء في الدار لا لحراستها والحفاظ علىٰ حرمتها فقد يكون هذا التكليف جزءاً من حملة الجهاد ولكن ليكونوا مع الخوالف من النساء والشيوخ والأطفال والمرضىٰ والمعذورين سواهم .

جرم فظيع يعمي القلب فلا يعود صاحبه يفهم كما ينبغي . . ! ولولا غشاوة ألقاها العمل السيىء علىٰ القلب بفعل جرم التخلف لفهم هذا الإنسان أنه يلقي بنفسه في قعر الذل والهوان . . !

لقد طمست الاعمال السيئة فهم إنسان كهذا وإلا كيف يرتضي لنفسه أوضار الذل والهوان وسخط الله ينالها بعذر كاذب بدل مباهج العز والرفعة ورضىٰ الله يحوزها في ركب الجهاد . . ! ؟

وكيف يرتضي أن يذود عن شرفه آخرون وهو سليم معافىٰ بل وقاعد مع اصحاب الأعذار خانعاً . . ! ؟

وإذا كان لا يخجل من الناس أما يستحي من رب الناس المطلع علىٰ السرائر الذي يناصبه العداء بذنب التخلف قبل أن يناصبهم العداء بالتخلف عن ركبهم الزاحف في سبيل الله . . ! ؟

وإذا سكت نحوه الناس فإن ربهم لا يسكت وأول انتقام منه هو تجريعه كأس الذل والهوان علناً في قعوده مع الخوالف . . !

وإن لم يبال بعذاب هذا بعضه فلأنه انغمس في الاعمال السيئة وبها انحدر إلىٰ هاوية الخزي والذل والمهانة فما عاد يأبه لفهم علىٰ أي وجه يكون ولأي عاقبة يؤدي . . !

النفاق يبدد الفهم

يقول تعالىٰ «**ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع علىٰ قلوبهم فهم لايفقهون**»(٣٣) .

---

(٣٣) - الآية ٣ سورة المنافقون .

أي فهم يرتجىٰ من امرىء يؤمن ثم يكفر متظاهراً بوجهين بعد ذلك . . ! ؟

يذوق حلاوة الإيـمان ثم لا يجدها ذات طعم يستطاب فيميل إلىٰ قذارة الكفر يغترف منها فتلطخ كل حياته ومن ثم يتذبذب يأتي هؤلاء بوجه ويطلع علىٰ أولئك بآخر . . !

امرؤ كهذا يغدو بلا فهم ذي أهمية . . ! تبدد فهمه بفعل إيمان ثم كفر ثم اتخاذه وجهين . . ! تساوت كل الموازين أمامه فلا ينقمع من سيىء ولا ينشد إلىٰ خير وإنما يأتي من هذا وذاك ما يستدعيه الهوىٰ بلا مبالاة . . ! ختم علىٰ قلبه بسوء أفعاله وأحواله فصار يتكفأ لا يعرف له هدفاً . . ! إنه إنسان ضائع يدري بوضعه المزري ولكنه لا يريد أن يدري . . !

وهل يبقىٰ زمام لفاقد الفهم المجدي . . ! ؟

وللتمثيل على الفهم المطموس لهذا الصنف من الناس يقول تعالى مصوراً طريقة تفكيرهم وأسلوب تصرفهم : «**هم الذين يقولون لا تنفقوا علىٰ من عند رسول الله حتىٰ ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون**»(٣٤) .

إنهم يحرضون الناس علىٰ عدم البذل في سبيل الله . . ! وتحديداً أن لا يعطوا المال لفقراء المهاجرين لجعل هؤلاء يتركون الإلتفاف حول النبي عليه أفضل الصلاة والسلام . . !

ياللفهم السخيف . . !

هل إن فقراء المهاجرين اتبعوا رسول الله لأجل حفنات صغيرة من الدراهم ترمى عليهم صدقة في دار الغربة . . ! ؟ لو كان هذا واقع الحال لما ترك المهاجرون وطنهم العزيز مكة مضحين بالأموال والتجارة وحرز العشيرة فراراً بدينهم . . !

---

(٣٤) ـ الآية ٧ سورة المنافقون .

وهـل إن حائـز الـدرهم والـدنيـار من البشر هو الرزاق ذو القوة المتين الذي يصـرف الأقـوات كما يشاء وكيف يشاء أم الله تعالىٰ المالك لخزائن السماوات والأرض المهيمن علىٰ مقاليد كل شيء . . !؟

«ولكن المنافقين لايفقهون» . . !

التمسك بالكفر يحجب الفهم

يقـول تعـالىٰ **«وإذا قرأت القـرآن جعلنـا بينك وبين الذين لا يؤمنـون بالآخـرة حجـابـاً مستوراً . . وجعلنا علىٰ قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا علىٰ أدبارهم نفوراً»**(٣٥) .

إن مثـل المتشبث بالكفـر إذا عرض عليه القرآن ليتفهمه كمثل صياد سمك وسخ الثياب والجسد قيل له إن رائحتك كريهة هلا اتخذت رائحة تطيب لها النفس ، فعمـد إلىٰ قارورة مسـك نفيس فصبهـا فوق رأسه مضمخاً جسده وناثراً علىٰ ثيابه ، فلم تزدد رائحته بذلك إلا كراهة أشد . . !

أتدري لماذا . . ؟

لأنه لم يلق عنه الثياب الوسخة أولاً ولم يغسل جسمه بعد ذلك ولم يرتد ثياباً نظيفة قبل أن يتعطر . . !

وكـذلـك المتشبث بالكفر . . كيف يمكنه أن يتفهم القرآن وهو لم ينزع عنه رداء الكفر بما يتضمنه من أفكار ومصالح وشهوات . . ! ؟

فالتشبث بالكفـر يكـون غشاوة علىٰ فهم الإنسان تحجبه عن الوقوف علىٰ الحقائق كما هي وعن إنصافها بالوزن الذي تستحقه . . !

ومصداق ذلك نجده فيما يرويه ابن اسحاق في السيرة :

---

(٣٥) - الأيتان ٤٥ و٤٦ سورة الإسراء .

(أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لاتعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتىٰ إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلىٰ مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتىٰ إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتىٰ إذا تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتىٰ نتعاهد ألا نعود . . فتعاهدوا علىٰ ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتىٰ أتىٰ أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . . ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به .

ثم خرج من عنده حتىٰ أتىٰ أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتىٰ إذا تجاثينا علىٰ الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتىٰ ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه . . !

فقام عنه الأخنس وتركه)[٣٦] .

الإعراض عن الآيات يخل بالفهم

يقول تعالىٰ «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها

(٣٦) - تنظر (السيرة النبوية) لابن هشام ص٣١٥و٣١٦ .

ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً»[37] .

يذكر بآيات الله تعالى بتلاوتها عليه في كتاب محفوظ أنزل على رسول أمين أو بمشاهدتها مبثوثة في آفاق الكون ورحابه فيعرض عنها غير آبه وقد كان الأولى به أن يجدها فرصة يؤوب فيها إلى ربه متذكراً ما سبق أن قدمت يداه من المعاصي والذنوب فيستغفر ويندم ويتوب ويقلع عن الخطأ .

ياله من ظلم . . !

لقد ظلم الآيات وهي تدعو إلى الحق والرشد فلم يحفل بها وظلم نفسه بتركها سادرة في طريق الغواية تزداد إثماً . . !

أي فهم نافع يبقى لإنسان كهذا . . ! ؟

وماذا ينتظر من قوانين الله أن تفعل . . ! ؟

هل تمنح الهداية لمن يبغي الضلال . . ! ؟

ليس هذا بعدل والله . . !

لو حصل هذا لكان ناشر الصلاح يحظى بالغواية أيضاً . . !

معاذ الله تعالى . . !

فأن تأتي النتيجة بخلاف الصنيع ، وأن يأتي الثمر مغايراً للغرس يعني أن اضطراباً يسود القوانين النافذة في الكون ، وهذا محال . . !

وليته اضطراب عشوائي فقط ، إذن لأخطأ مرة وأصاب أخرى ، أما أن تتعسف القوانين في اعطاء النتائج معكوسة تعمداً فهو ظلم ليس ما بعده . . !

حا شاك ربي ياذا الجلال والإكرام . . !

اعط الله تعالى حسن نية وصدق توجه في التماس الحق والهدى يأخذ بيديك إليهما ومن أيسر الطرق إلى درجة أن يزيدك فهماً ويزيل حجباً كثيرة عن قلبك أنت أنشأتها وأن يجعلك تنعم بيقظة حواس يكاد لا يفلت منها شيء ذو أهمية . . !

---

(٣٧) - الآية ٥٧ سورة الكهف .

وبخـلاف هذا إن اطلع الله تعـالىٰ علىٰ سوء نية لديك وعدم مبالاة بالحق والهـدىٰ لم يعنـك علىٰ الفهم وأبقىٰ الحجب الكثيفـة علىٰ قلبك الناشئة من المعاصي والـذنـوب ولم يرفـع عن حواسـك الغشـاوات **«وإن تدعهم إلىٰ الهـدىٰ فلن يهتدوا إذاً أبداً»** .

وليس في هذا أي ظلم ، بل هو أقصىٰ العدل . . !

كيف . . ؟

خذ مثلين :

الأول . . لو أنـك من أهـل الشأن الاجتماعي الخطير عزمت علىٰ الخروج من بغـداد قاصـداً مصـايف العـراق الشـمالية بقصد السلام علىٰ رئيس الدولة الذي يستجم هنـاك والإعـراب له عن ولائـك الـدائم مهما كانت ظروف المستقبل وإعطائه المـواثيق علىٰ ذلـك إلا أنـك لا تعـرف الطـريق جيداً فجئت إلىٰ أقرب مركز للسلطة ملتمسـاً أن يدلـوك بعـد أن أوضحت لهم غرضـك فقـالـوا لك : حبـاً وكرامة . . ! وزودوك بخارطة فيها كل ما تحتاجه من معلومات . . ولم يكتف مسؤ ول المركز بذلك وراح يرجـوك أن تأذن له باصطحـابـك إلىٰ قصـر الـرئيس ، وليس هذا فقط وإنما أن تتكـرم بمغـادرة سيـارتـك التي قد لا يمكنها قطع ذلك الطريق كله بيسر فيستضيفك بركوب سيارة أخرىٰ مخصصة لغرض كالذي رميت إليه إكراماً للرئيس وضيوفه . . ثم ينطلق بك حتىٰ يوصلك إلىٰ (رجـال التشـريفات الرئاسية) فيحييك مستأذناً بالعودة . . أما كان في ذلك كله مظاهر عون وحفاوة تليق بالأمر الذي عزمت علىٰ أن تخص به رئيس الدولة . . ! ؟

المثـل الثـاني . . لو أن شريـراً أراد الخروج من بغداد قاصداً قرية في الريف جنـوبي العـراق لأجـل أن يبطش برجـل صالح فيها مشهور في البلد كله ، وبما أنه لا يعرف الطريق الموصل إلىٰ غايته راح يسأل الناس عن أيسـر الطرق وأقربها إلىٰ مكان الـرجـل الصـالـح ملمحاً لهم بأنـه عازم علىٰ الفتـك به ، فقال له أحدهم وهو يحب الصلاح ويكره الشر إنه خبير بالطرق مشيراً عليه أن ينطلق صوب الصحراء الغربية جنـوبي العـراق ورسم له خارطـة لطـريق في الإتجـاه المـذكور لا يعود منه سالماً فاقتنع

الشـريـز وانطلق في الصحـراء فإذا هو بطـريق كلما يوغل فيه يقترب من حافة الموت ، فتارة ينفد الماء وتارة تحدق به الوحوش وتارة ينفرد به أشرار آخرون ، فلقي مصرعه ولم يعـد . . أكـان في ذلـك ظلم له أم إنـه نال جزاء يتنـاسب والسوء الذي أضمره مصراً علىٰ أن يأخذ به رجلاً من أهل الصلاح بريئاً . . ! ؟

* * *

قل لي بربك :

ألا يعتـد بحسن فهم من يخوض في تلك المـواضيـع القـرآنيـة فيقف علىٰ مراميها وينصف ما تتضمنه من حقائق كما ينبغي بل ويتخذها عروة وثقىٰ وسط إعصار في بحر هائج . . ! ؟

بلىٰ والله كل الإعتداد . . !

فليس من محك كالقرآن يتميز به الفهم الحسن والسقيم . . !

ولا يعرف قدر ذلك أحد كالمجرب . . !

جودة التفكير

وحين يدعو القرآن الناس إلىٰ جودة التفكير فإنه يأخذ بأيديهم كذلك في طريق موصلة إلىٰ هذا المطلب ضامناً لهم نيل أعظم الفوائد إن هم أحسنوا اتباع توجيهاته .

آيات لأولي الألباب

يقول تعالىٰ «**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**»[1] .

في خلق السماوات والأرض آيات لأنها كون هائل يزخر بالنفائس ويمتلىء بالمعجزات لايملك أحد سوىٰ الله تعالىٰ خلق شيء فيه كبيراً كان كالمجرة أو صغيراً كالبعوضة . . !

---

(١) ـ الأيتان ١٩٠ و ١٩١ سورة آل عمران .

وفي اختلاف الليل والنهار آيات كذلك لأنه عمل ضخم تشارك فيه الشمس بالمقدار المعلوم المنضبط من الضوء والحرارة وتشارك فيه الأرض بحركات خمس في آن واحد منها حركتان تدور بالأولىٰ حول نفسها وبالثانية حول الشمس ويشارك فيه القمر بدوران حول نفسه ويجري حول الأرض . . !

هذه الآيات لا ينظر إليها بما تستحقه من الفضل إلا أولو الألباب . . !

ومن هم أولو الألباب . . ؟

أهم ذوو العقول والعلوم والخبرة . . ؟

هذه الخصال لا تكفي وحدها ليقال إن أصحابها من أولي الألباب . . !

من هم إذن . . ؟

الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم يذكرونه في كل أحوالهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض برمته تفكيراً يجعلهم يحسون أن ربهم أقرب إليهم من جلودهم ، وعندما يتفكرون بدون غشاوة تغطي عقولهم يخرجون بقناعة العالم الخبير المنصف وهم يناجونه **«ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك»** وتعبيراً عن شدة تشبثهم بالعبودية لفاطر السماوات والأرض الحي القيوم وإخلاص وجهتم إليه وإظهار الحاجة إلىٰ ما عنده من مغفرة ورضوان يسألونه **«فقنا عذاب النار»** . . !

شهدوا له بتفرد العظمة أولاً ثم شهدوا بأن رقابهم لا يملكها أحد سواه . . !

وفي الشق الأول من الشهادة اشعار يقيني عميق بأن الله تعالىٰ وحده خالق هذا الكون منزهاً عن الباطل والنقص والخلل مبدعاً بالحق يمضي قدماً بإرادته تعالىٰ نحو تحقيق أسمىٰ الأهداف . . !

وفي الشق الثاني من الشهادة اشعار يقيني عميق أيضاً بأن الله تعالىٰ وحده المستحق لعبودية البشر له لا يفتقرون لغيره ولا يسألون إلا إياه . . !

الأمر ليس أن يشهد المرء من ذوي العقل والعلم والخبرة بأن الله تعالىٰ وحده خالق السماوات والأرض يقيناً أقوم الخلق وأحكمه فحسب . . !

هذا وحـــده لا يكفي ، ولـو لم يتعلق به ما وراءه من التـزام وتبعـات إذن لا عترف كل الناس بالحقائق الماثلة أمامهم في الوجود وسلموا بما تنطوي عليه من الفضل . . !

فالمهم كل الأهميـة هو أن تلتـزم بمقتضيـات ما تعـترف به وتتحمـل تبعاته بصدق راضي النفس ، ولذا امتدح الله تعالىٰ عباده المؤمنين أولئك الذين وصفهم :

أولاً ـ المتفكرون باستمرار في خلق السماوات والأرض .

ثانياً ـ المبصرون لآيات الله في الكون المحيط بهم .

ثالثاً ـ منزهو الخالق من الباطل مشيدين بعظمته .

رابعاً ـ المتعبدون بكل اهتمام وشغف يذكرون ربهم في أحوالهم كلها .

خامساً ـ المظهرون لشدة حاجتهم إليه وافتقارهم الكبير إلىٰ رحمته .

هؤلاءهم أولو الألباب . . !

أما سواهم فلا لب لهم مهما أشاد الناس بما أوتوه من العقل والعلم والخبرة لأنهم لم ينصفوا خلق الله بما يبدو عليه من الفضل ولم يرضخوا له عز وجل بالعبودية . . !

وماذا تساوي شهادة الناس لإنسان بأنه من ذوي العقل والعلم والخبرة أمام شهادة الخالق التي تعتبر هذا المخلوق لا يزن جناح بعوضة ما دام يرىٰ ولا يؤمن ولا يلتزم . . !

الآيات لقوم يتفكرون

ليس هنـاك أشحـذ للعقل من التفكير وليس هناك أدعىٰ للتفكير من آيات الخلق والكـون والحيـاة ، وليس هنـاك نظـير للتوجيه القرآني يحث علىٰ التفكير ويدل عليه ، وليس هناك من موجه غير الله تعالىٰ أرحم بالإنسان وأحرص علىٰ مصيره .

كيف . . ؟

إليك الشواهد :

أولاً ـ مثل الحياة الدنيا : يقول تعالىٰ **«إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتىٰ إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون»**(٢) .

مثل يضربه الخالق جل جلاله للإنسان مصوراً الحياة الدنيا علىٰ حقيقتها عله إذا تفكر بها من هذا الأفق الرحب يتعظ ويعتبر فلا يتعامل معها باهتمام زائد ولا يندفع في ركبها مغمض البصيرة عن المصير .

ما الحياة الدنيا . . ؟

كأرض قاحلة ينزل عليها المطر فيختلط ببذورها ثم بعد حين يزهر النبات ويثمر مما يأكل الناس وحيواناتهم حتىٰ إذا ازدهرت الزراعة بانتاج أقصىٰ وارتقت بتأثير ذلك الصناعة لمستوىٰ رفيع وأصبحت الحياة علىٰ الأرض مزدانة بكل زخارف العيش والزينة إلىٰ حد أن يظن أهلها أنهم قادرون علىٰ حياتهم البراقة ومتطلباتها يأتي أمر الله تعالىٰ ليلاً أو نهاراً وهو قيام الساعة ، لم يقل ليلاً فقط أو نهاراً فقط لأن الأرض في حالة دوران نصفها ليل ونصفها نهار ففي لمح البصر أو أدنىٰ منه تكون الأرض بكل محتوياتها كأوراق الشجر اليابس المتكسر عندما تذروه الرياح كأن لم يكن لها زخارف عيش وزينة قبل لحظات وكأن لم يكن لأهلها ظن الإقتدار علىٰ الكوكب . . !

هذه هي الحياة الدنيا فلا ينبغي لعاقل يحذر متاهة الضياع والخسران الاعتقاد أن دنياه أبعد مما مثل الله تعالىٰ لعباده المتفكرين . . !

وإنسان يتفكر بهذا المثل بحرص ووعي :

لا يضيع اهتمامه الزائد بالدنيا سدىٰ .

ولا يقارب شفير التهلكة بفعل الغفلة .

---

(٢) ـ الآية ٢٤ سورة يونس .

ولا يفوته ابتغاء الحسنىٰ وهو فطن .
ولصرف اهتمامه في التماس الخير لنفسه والرقي للحياة .
ولانكسرت موجة الشر والباطل والفساد .
ولعم الأرض تيار الحق والعدل والصلاح .
ولكانت حياتنا علىٰ الأرض مزدهرة في أبهج وأرقىٰ حالاتها . . !

ثانياً ـ آيات الأرض : يقول تعالىٰ «**وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**»(٣) .

آيات الأرض معروضة لقوم يتفكرون .

فلا عذر لإنسان يغفل عنها ، صحيح إن إلفها كل يوم يقلل من رهافة الحس تجاهها عند عدم التفكير فيها غير أن دأب الإنسان علىٰ التفكير فيما حوله من أشياء حري بأن يجعله يهتم بآيات الأرض كذلك وعندئذ يكون تكرار الآية كل يوم واعتياد رؤيتها وإلف الإحساس بها دواعي لتأجيج التفكير فيها تظهر عظمة الخلق وصرامة النظام الدقيق الذي يحكمه . . !

الأرض ممدودة رغم أنها كرة تدور في الفضاء وتجري معلقة بلا أوتاد وحبال ، ولكن لماذا مدت بشكل يتناسب جداً مع متطلبات الحياة وجعلت صالحة لمجتمع الإنسان . . ! ؟

إنها آية . . !

والجبال لماذا جعلت رواسي للأرض تحفظ توازن جرمها وتمد أنهارها بقسط يومي من الماء يلزم الناس لشربهم وسقي حيواناتهم وإرواء زروعهم فتتوازن حياتهم أيضاً وعلىٰ جنباتها مصايف لساكني المناطق الحارة وغابات للثمار والأخشاب وفي تربتها معادن شتىٰ دفينة والمرمر والرخام والحجارة التي تشاد بها الأبنية فتحفظ توازنها كذلك . . ! ؟

---

(٣) ـ الآية ٣ سورة الرعد .

رواسي لجرم الأرض . . !

ورواسي لحياة الناس . . !

ورواسي للحضارة والعمران . . !

لماذا . . ؟

إنها آية . . !

والأنهار لماذا وزعت على اليابسة بشكل يساعد على انتشار الناس في أقطارها وعدم جعل العمارة في موضع واحد ضئيل المساحة . . ! ؟ ولماذا هي لا تنضب وإنما تدور كالعجلة فلا تفقد شيئاً يذكر بفعل الحركة رغم أفواه بلا عدد تشرب باستمرار ورغم أجواف واسعة تمتلىء منها دون انقطاع . . ! ؟

والماء كيف صار بهذا المذاق الصالح اللذيذ الضروري لكل أحياء كوكبنا على اختلافها وفي مقدمتها الإنسان . . ! ؟

ماء واحد لأحياء الأرض كلها . . !

لماذا . . ؟

إنها آية . . !

«ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين» ثبت للعلماء (أن كل الأحياء وبضمنها النبات تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التي كان مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة أو متفرقة في العود)(٤) . . !

اشجار الثمر أزواج . . !

كيف حصل هذا . . ! ؟

ولماذا التطابق تام بين كلام الله تعالى ومخلوقاته . . ! ؟

إنها آية . . !

يغشي الليل النهار ، ليل مظلم كيف يزيح النهار المضيء ويأخذ مكانه . . ! ؟ سيقال إن الأرض تدور حول نفسها فيتناوب الليل والنهار . . هذا

---

(٤) - ينظر (في ظلال القرآن) المجلد الخامس ص٧٢ .

مسلم به ، ولكن كيف ولماذا أديرت الأرض هكذا بانتظام ودأب منذ آلاف السنين وما تزال . . ! ؟

إن توقف الأرض عن الحركة لأيام معدودة كفيل بإفناء الكوكب وتدمير الحياة فلماذا لم يتخلف النظام ويتوقف العمل . . ! ؟

إنها آية . . . !

آية آية آية . . . !

لمن . . ! ؟

«لقوم يتفكرون» . . . !

يفكرون . . ؟

لا . . ؟

إنهم يتفكرون . . . !

نعم . . ثمة فارق ملحوظ بين يفكر ويتفكر . . . !

إنها زيادة تفعيل تتطلبها آيات كبرى كتلك التي بثها الخالق عز وجل من حولنا ، إن أحدنا يظل يرى ولا يفطن ويحسس ولا ينتبه إن لم يعمد هو إلى التفكر . . . !

ومن لم يتفكر بأرض يعيش عليها وجبال ضخام عالية القمم وأنهار تجري بماء الحياة وثمرات تشبعه من جوع وليل ونهار فيهما الراحة وابتغاء الرزق فأي الأشياء في الحياة يجدها جديرة بالتفكر . . ! ؟

ثالثاً ـ الإنسان ذكر وأنثى : يقول تعالى **«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»**(٥) .

ثمة فروق في تكوين الذكر والأنثى ولكن أحدهما لا يعيش سوياً بدون الآخر ، لقد خلقا ليجد كل منهما حوائج كثيرة يلتمسها لدى صاحبه ، يتزاوجان فيتحصل لهما سكن النفس تحت سقف واحد وتنشأ مودة بينهما ورحمة .

---

(٥)ـ الآية ٢١ سورة الروم .

نِعم عظمىٰ عديدة فيما بين الرجل والمرأة لا يلتفت إليها البعض تأثراً بطول الألفة ، ولكنها آيات تدعو إلىٰ التفكير . . ! كيف تكون البشر من ذكر وأنثىٰ . . ! ؟ وكيف صمم كل منهما ليكون زوجاً . . ! ؟ وكيف وجد التجاذب بينهما . . ! ؟ وكيف أوتيا السكينة . . ! ؟ وكيف نمت المودة بين هذا وتلك . . ! ؟ وكيف استقرت الرحمة في قلبيهما ثم تفيض علىٰ ذريتهما . . ! ؟

وكيف تلد الأنثىٰ تارة ذكراً وتارة أنثىٰ وفق نظام خارج عن إرادة الزوجين يتحكم هو في عدد ونسبة الذكور والإناث وتوزيعهما في الأسر والمجتمع ، هذا يوهب ذكوراً ، وذاك يوهب إناثاً ، وآخر يعطىٰ النعمتين ، ورابع مقل وخامس مكثر وسادس عقيم . . ! ؟

وكيف تنتقل من الآباء إلىٰ أبنائهم العوامل الوراثية . . ! ؟

وكيف يأتي الأبناء متجاوبين مع توجيه الآباء والبيئة . . ! ؟

وكيف يماثل الذكر بني جنسه من الذكور . . ! ؟

وكيف تماثل الأنثىٰ بنات جنسها . . ! ؟

ولم لم يأت الأبناء ذكوراً فقط أو إناثاً فقط . . ! ؟ أولم لم يأتوا علىٰ هيئة صنف ثالث ليس هو ذكراً ولا أنثىٰ وإنما هو مزيج منهما أو غير ذلك . . ! ؟

ولم سنة الخلق في الذكر والأنثىٰ سوية لا تتبدل رغم كر السنين عاماً بعد عام وعقداً بعد عقد وقرناً بعد قرن وألفاً بعد ألف . . ! ؟

هذه الملاحظات وغيرها كثير التي يثيرها التفكر تقود المرء بلا شك إلىٰ أن ينظر بعين الإكبار لآيات الخلق البينات ويزداد اقتراباً من الخالق عز وجل . . !

أم لا يريد البعض اعتباطاً التفكر في هذا الأفق الواسع . . ! ؟

ولا يريد عبثاً احترام نتائج يستخلصها هو بنفسه تفكراً . . ! ؟

له ما يريد إن ارتضىٰ العبث والتصرف الاعتباطي فهذا يكفيه هبوطاً وإدانة . . !

رابعاً ـ موت الأنفس وحياتها : يقول تعالىٰ «**الله يتوفىٰ الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضىٰ عليها الموت**

ويرسل الأخرىٰ إلىٰ أجل مسمىٰ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»[٦] .

الإنسان يدخل الحياة هذا العالم الهائل الرحيب ، يدخله من العدم بلا اختيار منه . . ! ألا يستدعي هذا القدر تفكيره . . ! ؟

ويعيش علىٰ الأرض وقد أعدت جيداً لتكون مرابع صالحة تزدهر فيها حياة الإنسان بلا اختيار منه . . ! ألا يستدعي هذا التقدير تفكيره . . ! ؟

ينام بعد كلل جسمه بلا اختيار منه ليستعيد نشاط قواه التي أرهقها العمل نهاراً ، ينام فيغطيه الليل بردائه ويشيع من حوله الهدوء وينعم بالأمن رغم أنه ساكن لا يصول . . ! ألا يستدعي هذا الحال تفكيره . . ! ؟

ويصحو بلا اختيار منه لابتغاء الرزق فيجد كل شيء معداً ، ماء الشرب لا يحتاج إلىٰ تحضير كيمياوي وإنما هو جاهز للتناول علىٰ أفضل وألذ ما يكون وهكذا الطعام ، كل اللحوم والزروع والثمار لا تحتاج أن تركب عناصرها وتمزج كيمياوياً ، وقد تحتاج لعمل بسيط كالشي والطبخ والتسخين والتبريد وهو ما يجعلها أكثر ملاءمة للأذواق وأكثر لذة . . ! ألا يستدعي هذا الأمر تفكيره . . ! ؟

أولم يفكر لم هو ينام فيصحو بعد استعادة الجسم نشاطه . . ! ؟ لم لم يواصل النوم إلىٰ الأبد . . ! ؟ ولم لم يستغرق نومه نصف عمره مستمراً ثم يظل صاحياً النصف المتبقي . . ! ؟ ولم هو يحتاج النوم فيتذكر به كل يوم حالة الموت التي قد يتعكر بها مزاج البعض . . ! ؟ ألا يهتز تفكيره بتساؤلات كهذه . . ! ؟

أو لا يفكر الإنسان كيف وجد وكيف نال قدر الحياة وكيف صار سوياً . . ! ؟

أولا يفكر لم كان وجوده علىٰ الأرض ولم يكن فوق جرم آخر لا سيما أن هناك مليارات بلا عدد من الأجرام السماوية منها القريب ومنها السحيق . . ! ؟

---

(٦) ـ الآية ٤٢ سورة الزمر .

الموت عند الأجل والحياة إلىٰ أجل والنوم محدداً بأجل والصحو موقوتاً بأجل آيـات منطـويـة علىٰ آيات كثيرة أيضاً ، لمن . . ؟ لقوم يتفكرون . . ! أما سواهم فيمـرون عليهـا وكأنهم لا يجدون شيئـاً . . ! كما لو ماتت أحـاسيسهم . . ! وكما لو فقدوا القدرة علىٰ التفكير . . ! وكما لو كانوا موتىٰ تتحرك أشباحهم في ظلام . . !

خامسـاً ـ كون مسخـر للإنسـان : يقـول تعـالىٰ «**وسخـر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**»(٧) .

ما في الأرض مسخـر للإنسـان وهـو سهـل ميسـور ، الهواء الذي لا يعيش بدونـه ثلاث دقـائق يستنشقـه بلا تكلف وكأنـه لا يحس بمروره إلىٰ رئتيه فتتوفر الحياة لأبعـد خليـة في جسمـه ـ البـالغ عددها مليار مليون خلية في المعدل التقريبي ـ فهو لا يحتـاج إلىٰ أن يعـده في مختـبر كيمياوي . . ! وكم نسمة . . ! ؟ واحدة إذا توقفت عليها الحياة لا يبالي الإنسان بدفع كل ما بحوزته لنيلها . . !

وهكذا كل أشياء الأرض مسخرة للإنسان ، وأي منها هو عماد حياتنا الرائعة من قريب أو بعيد بشكل مباشر أو غير مباشر . . !

وكـوكبنـا علىٰ ما فيـه من أشيـاء عديـدة لا تحصىٰ قد سخـرت لنا هو جرم صغير في المجموعة الشمسية التي لا تكاد تذكر وسط مجرة تبلغ محتوياتها مئة مليار جرم . . !

ومجـرتنـا شيء يسـير قياساً إلىٰ أكثر من مئة مليون مجرة وتوقع أكثر من ألف مليون مجرة كلها تجري بسرعات هائلة في الفضاء منذ أن خلقت وإلىٰ ما يشاء الله تعالىٰ . . !

مجرات وأجـرام في السـماء الـدنيـا تزيد علىٰ ذرات الرمال كما يقول الفلكي الشهير جيمس جينز . . !

---

(٧) ـ الآيـة ١٣ سـورة الجاثية .

ترىٰ فما السماوات بمحتوياتها . . ! ؟

كل هذا الخلق العظيم بما فيه مسخر للإنسان . . !

قد تقول : أن تسخر لنا أشياء على الأرض فأمر واضح أما أن تسخر لنا أشياء في السماوات ونحن ليس بمقدورنا حتىٰ الآن اجتياز المجموعة الشمسية والعيش هنالك بوضع طبيعي فهذا أمر لا أفهمه . . ! ؟

معك حق ، ولكن . .

ما أدراك بما يجري هنالك في السماوات من أفعال تخدم الأرض وأهلها وتيسر الحياة فوقها . . ! ؟

والله لو كان واحد فقط من ملائكة الرحمان قاعد في موضع ضئيل في السماوات العلىٰ وهو يستغفر لمؤمن علىٰ الأرض ويسترحم لكفىٰ ذلك تسخيراً . . ! كيف إذا كان أهل السماوات كلهم يدعون مثلاً لمعلم الناس الخير . . ! ؟ (٨) .

وكم من آية وآية في تسخير كهذا . . ! ؟

إنها آيات لقوم يتفكرون . . !

سادساً ـ خلق النفس والسماوات والأرض : يقول تعالىٰ «**أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمىٰ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون**»(٩) .

نفس الإنسان المعروضة بجلاء أمامه ألا يتفكر فيها كيف سويت . . ! ؟ وكيف استقلت . . ! ؟ وكيف هي تعيش وسط هيكل لحمي . . ! ؟ كيف هي تتصرف بإدراك . . ! ؟ وكيف أنها تصيب وتخطىء . . ! ؟

التفكر في النفس بشكل يهز الاعماق يقود الإنسان لا محالة إلىٰ التفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما حيث كل شيء يقوم بالحق لا بعبث ولا بشطط ولا

---

(٨) ـ إشارة إلىٰ الحديث النبوي «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتىٰ النملة في جحرها وحتىٰ الحوت ليصلون علىٰ معلم الناس الخير» رواه الترمذي .

(٩) ـ الآية ٨ سورة الروم .

بخطل . . !

وكل شيء قد رسم دوره فهو قائم إلىٰ أجل مسمىٰ ثم يرحل . . !

فالتفكــير في النفس حري بأن يشخص اهتـمام الإنسـان إلىٰ لقـاء ربـه ، وكذلك التفكير في خلق كل ما في السماوات والأرض من مخلوقات جدير أن يؤدي به إلىٰ الإزدياد يقيناً بلقاء ربه . . !

وإذا كان بمقدور المرء التثبت من الإنتقال إلىٰ الآخرة في يوم ما إذا هو تفكر في خلق نفسه والسماوات والأرض لم إذن يكفر بلقاء ربه . . ! ؟

يكفـر إذا رضـخ لطيش الهـوىٰ واستجـاب لنداء الشهوات فلم يفكر بنفس معروضة قريباً منه بل بين جنبيه ، ويكفر إذا لم يفكر بالحق الهائل الصريح الذي يقوم عليه كل شيء تضمه السماوات والأرض . . !

وسواء فكر الإنسان ثم آمن بلقاء ربه أو كفر لأنه لم يفكر أصلاً فإن مصيره يقترب كل يوم من ذلك اللقاء . . !

فأين المفر . . ! ؟

وإنسان لا يتفكر بنفسه وهي أقرب شيء إليه ولا يتفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وهما عالم هائل ضخم لا تعرف حدوده فما الذي يشغل فكره عن خلق كهذا . ! ؟ وبماذا يفكر إذن . ! ؟

لو أوتي لك أن تعرف ما شغل فكره عن ذلك الخلق لشعرت بالذعر لأنك ستجده يفكر بشيء تافه جداً ليس هناك ما هو أحقر منه وأرخص . . !

أتدري ما السبب لوضع كهذا يكاد يكون غير معقول التصور . . ! ؟

لأن إبليس يقول للإنسان المخدوع : دعني أغمض عينيك وسائر حواسك وأغلق عقلك وأسدد قلبك واعطني الزمام فأنا قائدك إلىٰ ألذ ما تشتهي نفسك . . ! ؟

وماذا ينتظر الإنسان إذا سلم زمامه لعدو كاللعين . . ! ؟

لاغرو يغدو أسخف أضحوكة أحس بواقعه المرير أم لم يحس . . !

سابعاً ـ وفي النحل آية : يقول تعالىٰ «**وأوحىٰ ربك إلىٰ النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون**»(١٠) .

شفاء مطلق للناس عموماً . . !

شراب متاح وليس عنا ببعيد ، فالنحل منتشر في اصقاع الأرض ، خلاياه في الجبال وعلىٰ الشجر والسقائف . . !

حشرة بقدر رأس الإصبع كيف تنتج هذا السائل الخطير الشأن دواء وشراباً ولذة . . ! ؟

والله لو أن معملاً يديره جمع من أبرز العلماء في حقل الأدوية وآلاف العاملين وأضخم الأجهزة وأعقدها ينتج دواء أقل شأناً من العسل لأكبر الناس وجود هذا المعمل ولقالوا إنه أحد نعم الحضارة ، أليس كذلك . . ! ؟

وانظر كم ينفق معمل كهذا من جهود وأموال ووقت ليقدم لك أقراصاً تخفف فقط حدة الزكام مثلاً ونحلة تكاد لا تحس بها تعطيك كما يقول الخالق عز وجل «**شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس**» بلا مال تبذله وبلا جهد يرهقك وبلا وقت طائل لأن خلايا العسل علىٰ الأشجار قريبة التناول . . !

«إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون» . . !

معامل صنع الأدوية تنال الإعجاب الشديد من أناس في هذا العصر تفغر لها أفواههم وهي بمصنوعاتها لا تملك خاصية الشفاء كما العسل وإنما تخفف من حدة أمراض معينة وغلوائها فقط (بشكل بسيط وعلىٰ نطاق محدود جداً)(١١) . . !

لماذا ذلك الوضع المقلوب . . ! ؟

لأن إبليس يمسك بزمامهم . . !

---

(١٠) ـ الآيتان ٦٨ و ٦٩ سورة النحل .

(١١) ـ ينظر (الطب محراب الإيمان) للدكتور خالص جلبي الجزء الأول ص١٦ .

ألم يجعل الكثيرين يتملكهم العجب من صورة رسمها إنسان لمشهد طبيعي فيما هم يمرون على المشهد حياً في عالم الواقع يتدفق جمالاً وروعة وإعجازاً فلا يأبهون له ولا يتفكرون . . ! ؟

فما دام قياد الإنسان بيد اللعين لا نتوقع إذن تفكراً حيث ينبغي التفكر وإنما حيث إهدار الوقت وضياع العبرة وفوات الهدى . . !

بل يدأب إبليس على أن يحرم الإنسان كلياً من التفكير ، لأنه لو تفكر لما ارتضى لنفسه ذلك الوضع المقلوب ، ولما قبل أن يعجب بريشة رسام ولا يعجب بما خلقه فاطر السماوات والأرض من بدائع ونفائس ومعجزات تملأ الحواس والجوارح والعقل والقلب . . !

التفكير بشرع الله

يقول تعالى «**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**»(١٢) .

القرآن كلام الله تعالى وكتابه الخالد أنزله إلى الرسول ﷺ ليبين للناس ما نزل إليهم من شريعة لعلهم يتفكرون . . !

وكم من آية في القرآن تستدعي التفكير . . ! ؟

هل أجلنا التفكير في آفاقها بقدر يتناسب مع مستواها . . ! ؟

وكم في الشريعة من سداد ومصالح وإعجاز مما يستلفت العقول . . ! ؟

هل فكرنا بأهمية تشريع على هذا الطراز لحياة جدباء كالتي نعيشها بدونه . . ! ؟

وكم من عالم وذي لب ومتخصص خوطب بكلام الله فأخذ اعجاباً لأنه يلمس به يقيناً أن فوق كل ذي علم عليم يحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية . . ! ؟

---

(١٢) - الآية ٤٤ سورة النحل .

وبقي القرآن طوال أكثر من أربعة عشر قرناً وسيبقىٰ يهز اعماق الإنسان وينال احترام ارفع طبقات الناس علماً ودراية وعقلاً . . !

وما زال يشمخ بشريعة تصلح لكل مكان وتليق بكل زمان فيها الخير كله للإنسان والأرض والحياة ، وليس هذا محض ادعاء لأن الشريعة إياها برهنت عملياً علىٰ أوسع رقعة فوق اليابسة وأطول فترة من التاريخ أنها صالحة لكل الناس منسجمة مع الحياة تسير مع حركة الكون بكل توافق لأن واضعها هو خالق الكون كله تبارك وتعالىٰ . . !

فأي نهج أحكم . . ! ؟ وأي تشريع أرصن . . ! ؟ وأي كتاب أبلغ . . ! ؟ وأي كلام يتناول مواضيع أرحب وأشمل واعمق . . ! ؟ وأي عقيدة تمتلك تأثيراً في النفس الإنسانية رغم طول الزمن واختلاف الأماكن . . ! ؟ وأي مبدأ يعمر طويلاً فيزداد تعلق الناس به اتساعاً وشدة . . ! ؟

ينبغي أن يفكر العاقل جيداً بهذه الملاحظات المتعلقة بدين الله تعالىٰ وسواها كثير وأن يزنها بالقسط ، فلا يصح أن يهتم إنسان بقشور الحياة ومتاعها ويغفل عن الجواهر واللباب ، يروح ويغدو لاهياً والعمر يحث الخطىٰ نحو الأجل . . !

وما أنفع التفكير تحت سقف الأجل حيث يكون الجد والصدق والحرص . . !

وما أغنىٰ ثمرة تفكير تقودنا إلىٰ اعطاء دين الله ما يستحق من الوعي والقبول والإلتزام . . ! وما أسمىٰ تفكير يزيدنا لله وقاراً وبالإستعباد له اعتزازاً . . !

يا له من كتاب

يقول تعالىٰ «**لو أنزلنا هذا القرآن علىٰ جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**»(١٣) .

---

(١٣) - الآية ٢١ سورة الحشر .

لو أوتي الجبـل من الحـواس والعقل والقلب كما أوتي الإنسان لرأيته خاشعاً رغم صلابـة الصخـور وضخامة الحجم وعلو القمة كذي المشاعر الرقيقة من عباد الله الصـالحـين ولـرأيته متصدعاً كالمتمرد علىٰ قسوة يجدها في أحشائه تكدر بهاء تهيبه أمام جلال الخالق تبارك وتعالىٰ . . !

أو ليس في هذا المثـل إشـارة إلىٰ ضرورة امعـان النظـر جيداً في القرآن بعد اسقــاط كل الغشــاوات لإبصــار صورة الحق بأزهىٰ وأروع حالاتهــا والإحســاس بمفردات تفاصيله بشكل أقوىٰ واعمق . . ! ؟

القرآن رسالة من الخالق عز وجل إلىٰ عباده ، هل فهمها كل معني بها علىٰ وجه صحيح واستوعب مراميها أم سيقول (لا) عندما يسأل يوم القيامة . . ! ؟

لا عذر لمن فرط بفهم الرسالة ولم يستوعبها ما دام ذا حواس وعقل وقلب وما دام مضمون الرسالة واضحاً غير ملتبس . . !

كلام ذو مدىٰ واســع وأفق رحيب وغــور سحيق يمتلىء بأجــزل المعــاني وأسماها ويحدث لدىٰ السامع الواعي المتفهم أشد الوقعَ وأحسنه ويزداد جدة وتأثيراً مع توالي العصور وتراكمها . . !

فإن لم يستقبل كلام الله بما يليق به من اهتمام ، فالعيب ليس فيه وإنما البشر يقصرون تجاهه حين لا يولونه ما ينبغي له من وعي وحرص وتفكر . . !

(قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

قال لي النبي ﷺ : إقرأ عليَّ ـ يريد القرآن .

قلت : أأقرأ عليك وعليك أنزل . . ؟

قال : فإني أحب أن أسمعه من غيري .

فقرأت عليه سورة النساء حتىٰ بلغت **«فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك علىٰ هؤلاء شهيداً»**[14] . . ! ؟

قال : أمسك . . !

---

(١٤) ـ الآيـة ٤٠ سـورة النساء .

فإذا عيناه تذرفان . .)[١٥] .

(ولقد وجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما وجد عندما سمع قارئاً يقرأ ـ أوائـل سورة الطـور ـ «**والطـور وكتـاب مسطـور في رق منشور والبيت المعمـور والسقف المـرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع** . . » فارتكن إلىٰ الجدار ، ثم عاد إلىٰ بيته يعوده الناس شهراً مما ألم به . . !) [١٦] .

بهذا الفهم والجـد والمسـؤ وليـة يتلقىٰ المؤمن الرفيع القدر كلام ربه ، يحس كأنه يتنزل عليه في كل لحظة يخاطب كل ذرة في كيانه ويعني كل حرف وكلمة ويقصد تماماً كل معنىٰ وإشارة ، وهكذا الكلام الفصل ما هو بالهزل . . !

مثل مخيف

يقـول تعـالىٰ «**واتـل عليهم نبأ الـذي آتينـاه آياتنا فانسلخ منها فأتبعـه الشيطـان فكان من الغاوين . . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلىٰ الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمـل عليـه يلهث أو تتركـه يلهث ذلـك مثـل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**»[١٧] .

امرؤ يؤتىٰ التبصر في ايات الله حتىٰ يخالط الإيمان بها أوصال لحمه ويكون كالجلد المحيط بجسمه فينسلخ من إيمانه كمن ينزع جلده الواقعي الجميل . . !

لماذا . . ! ؟

اتبـاعـاً للشيطـان ورضـوخـاً للهوىٰ . . ! يستحب الغواية وهو عارف بما يفعل ولكنه لا يبالي تحصيلاً لفتات موائد وحفنات دراهم وشيء من الوجاهة . . !

---

(١٥) ـ رواه البخاري .

(١٦) ـ ينظر (في ظلال القرآن) المجلد الثامن ص٤٨ .

(١٧) ـ الآيتان ١٧٥ و ١٧٦ سـورة الأعراف .

لقـد رأيت الكثـير ـ ويـاللأسف ـ ممن يسميهم النـاس (علماء الدين) وهم ينسلخـون ذلـك الإنسلاخ تهافتاً علىٰ لقمات مضمخة بالحرام ودنانير ملوثة بالسحت ووجاهة ينالونها ورؤوسهم ذليلة يسخر منهم الجليل والحقير ويزدريهم كبير الناس وصغيرهم . . !

قد تقول إنهم لا ينزعون العمة والجلباب فكيف ينسلخون . . ؟

ومـا قيمـة قطعتي قماش للدلالـة علىٰ الـدين يستخدمهما تافهون للتضليل والمتاجرة بعد أن يخلعوا رداء الإيمان ، بعد أن ينزعوا الجلد الواقي ، بعد أن يغدوا عراة الضمير . . ! ؟

المراد منهم أن يطرحوا رداء الإيمان ويبقوا علىٰ العمة والجلباب حتىٰ يسهل عليهم التضليل مثلما سهلت عليهم المتاجرة بقطعتي القماش . . !

الـواحـد من هؤلاء يدأب علىٰ أن يسوق عدداً من الآيات ويورد عدداً من أحـاديث البخـاري ليـدلل علىٰ (صواب) موقف و(حسن) عاقبة أناس يصدون عن الله ورسوله ويحاربون الدين جهاراً بكل خسة ووحشية . . !

لو أنهم نزعوا العمة والجلباب كيف إذن ينخدع بأقوالهم البسطاء . . ! ؟

ثم ما تأثير قطعتي قماش إذا كان رداء الإيمان قد خلع . . ! ؟

لا اعتقد أن فوق الأرض أناساً أكثر من هؤلاء دجلاً واكثر منهم دناءة وأكثر منهم خسـرانـاً ، إنهم أمسـاخ أبـوا إلا أن يهبطوا من مكانة الإنسان البصير ذي المقام الـرفيـع عنـد ربه إلىٰ درك الحيوان الوضيع اللاهث بلا انقطاع التصاقاً بطين الأرض يتمرغ فيه التذاذاً كالكلب «**ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون**»(١٨) .

إنـه مثـل مخيف حقـاً يقف عنده المتفكر طويلاً لتحاشي الزلل والإبتعاد عن مواضع الإنحراف ويكون علىٰ بصيرة من أمره ورشاد . . !

العلم وحده لا يكفي ، أليس كذلك . . ! ؟

---

(١٨) ـ الآيـة ١٧٧ سـورة الأعراف .

نعم . .

فالعبرة بتقوىٰ القلب وصلاحه . . !

«إن أكرمكم عند الله أتقاكم»(١٩) .

كم من عالم لا سيما في العصر الحالي لا يساوي عند الله تعالىٰ خردلة لأن إيماناً بفاطر السماوات والأرض لا يشغله وقصارىٰ همه اشباع البطن والفرج . . !

وكم من امرىء عاش في القرون الخوالي السحيقة شغله الإيمان والتقوىٰ تقرباً إلىٰ الله تعالىٰ مستفيداً من قليل العلم وكثيره في تحصيل الخير الجم الكبير يكاد يساوي عند ربه عالماً بأسره . . !

وبما أن الرسل والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام قدوة المؤمنين فانظر ما يقوله عز وجل عن سيدنا ابراهيم خليل الرحمان **«إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين . . شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلىٰ صراط مستقيم . . وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين»**(٢٠) .

ربنا جل شأنه اجتبىٰ ابراهيم وهداه إلىٰ صراط مستقيم وآتاه في الدنيا حسنة وقال إنه في الآخرة من الصالحين ، لماذا . . ؟

لأنه كان حنيفاً (عزوفاً عن الباطل متطلعاً إلىٰ الحق) قانتاً لله (يقدم طاعته علىٰ كل شيء) ولم يكن من المشركين ، شاكراً لأنعمه . . !

صدق وسمو في ابتغاء الحق ومن ثم كل الطاعة لرب العالمين وحده منزهاً من أي شريك وتقديم الشكر اللائق بنعمائه . . !

إنه صلاح قلبي لا يحتاج إلىٰ علوم طائلة في الذرة والأحياء والفلك واللغات والفلسفة وسواها وإنما يحتاج إلىٰ ما يمتلكه المرء من إرادة تكاد تفتت الصخر الأصم فبها استطاع إبراهيم بلوغ تلك المنزلة . . !

---

(١٩) ـ الآية ١٣ سورة الحجرات .

(٢٠) ـ الآيات ١٢٠ ـ ١٢٣ سورة النحل .

يا لها من إرادة . . !

يتبرأ من أبيه بعد أن تبين له أنه عدو لله . . !

ويهجر قومه متنقلاً بدينه في ديار الغربة . . !

يرزق بولـد طال انتظـاره وهـو شيخ كبير فلما بلغ معه السعي «**قال يا بني إني أرىٰ في المنـام أني أذبحـك فانظـر ماذا ترىٰ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . . فلما أسلما وتله للجبين ونـاديناه أن يا إبـراهيم . . قد صدقت الـرؤيـا إنا كذلك نجزي المحسنين . . إن هذا لهو البلاء المبين**»(٢١) .

إن صلاح قلب سيدنا إبراهيم وإرادته في اعلاء أمر الله تعالىٰ وتنفيذه بدون تردد حالـة لم نجـد لها بين البشـر من غير الـرسل والأنبياء أي مثيل مهما بلغ بهم مدىٰ العلوم ومقدارها . . !

العلوم مهما كانت عسيرة التحصيل يستطيع أن يحوزها كل مثابر دؤ وب أما الإرادة وتحديداً التقوىٰ فمطلب أعسر وأنفس لأنها أبعد تأثيرها في الحياة والوجود . . !

فالعلوم شأن عقـلي أمـا الإرادة فشأن قلبي . . ! وإذا كان العقـل خادم القلب فإن القلب قائد الكيان برمته . . !

العلوم تكتسب بشيء من الفهم والتلقي سماعـاً وقـراءة . . أمـا الإرادة فتكتسب أسـاسـاً بتـوجيه ذاتي يروض الروح والجسد والكيان كله ، توجيه وترويض فيهـا القمـع المستمـر للأهـواء والشهوات والإجتراع الطويل للمر والمكاره ، وفي هذا وذاك ما أشدّ مزايا التصبر والإحتمال . . !

أما إرادة التقوىٰ فأمر أعظم من ذلك بكثير ، وإرادة سيدنا إبراهيم نموذج في هذا السبيل . . !

---

(٢١) ـ الآيات ١٠٢ ـ ١٠٥ سـورة الصافات .

ولست أريد التقليل هنا من أهمية العلوم فالله تعالىٰ قد ارتفع بها إلىٰ علو سامق بقوله «**إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء**»(٢٢) فهي وسيلة كذلك في صلاح القلب لأن العالم الحقيقي هو من يخشىٰ الله تعالىٰ أما إن لم يخشه فما نفع علمه . . ! ؟

أن تبدأ بإصلاح القلب تحصيلاً لإرادة التقوىٰ منذ البداية لهو فعل جد صائب يجعلك في الوقت نفسه تستزيد من العلوم حتىٰ تحوز قدراً أكبر منها ، أما أن تبدأ بتضخيم زادك من العلوم دون الإلتفات إلىٰ الإهتمام بتعزيز الإرادة فهو طريق غير معروف النهاية لأن النفس تكون قد شبت علىٰ أهواء وشهوات قد يصعب عليك فيها بعد فطامها و (ما أشد فطام الكبير) كما يقول التابعي مالك بن دينار . . !

* * *

بهذا القدر من التفتح والعلو والتمحيص يريد القرآن الكريم من الناس أن يفكروا وهو لم يتركهم وحيدين حيارىٰ أمام هذا المطلب الغالي وإنما رسم لهم الطريق كما رأيت وعرض عليهم أيضاً المواضيع الكفيلة بتحقيق الغرض الأساسي وهو الإرتفاع بمستوىٰ التفكير ثم ترك لهم حرية الإختيار ما داموا قد تحملوا مسؤولية امتلاك جودة التفكير والإطلاع علىٰ أرحب الآفاق وتلمسوا مواضع الاعتقاد الأرصن والاعتقاد الهزيل . . !

فأي تأجيج لفكر الإنسان يحصل وهو يحلق في تلك المواضيع القرآنية . . ! ؟

وأي آفاق رحبة يرتاد . . ! ؟

وأي آيات عظمىٰ يجد . . ! ؟

وأي سمو يتربىٰ عليه . . ! ؟

وأي جودة تفكير تنشأ . . ! ؟

وأي مردود علمي يكتسب . . ! ؟

وبأي قيم ومعايير وفضائل يتهذب ويقتنع ويتمسك . . ! ؟

---

(٢٢) - الآية ٢٨ سورة فاطر .

عمق التدبر

ورد في القرآن الكريم حث غزير متنوع الطلب والعبارة في مجال التماس الاعتقاد الحق الأمثل كقوله تعالىٰ «**فاستمعوا**» «**أو لم ينظروا**» «**أفلا تعقلون**» «**لعلهم يفقهون**» «**لقوم يتفكرون**» فالإستماع الجيد طلب لأمور عديدة وكذلك النظر والعقل والفهم والتفكير ، أما لفظ التدبر فقد جاء أربع مرات فقط وفيها اقتصر الحث علىٰ تدبر القرآن وحده . . !

من امتلك حسن الفهم وجودة التفكير فها هو ذا القرآن كلام الله تعالىٰ فليتدبره عميقاً ليبرهن علىٰ رجاحة العقل حيث لا يجد فيه أي اختلاف وتضارب وإنما هو قمة العلم والسداد وليبرهن علىٰ سلامة القلب حيث لا يجد فيه أي زيغ وباطل وإنما هو قمة الهدىٰ والحق . . !

القرآن خالٍ من الإختلاف

يقول تعالىٰ «**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**»(١) .

---

(١) ـ الآية ٨٢ سورة النساء .

يخبرنـا الله عز وجـل هنـا أن تدبـر القرآن يجعل المرء يسلم بأن هذا الكتاب الكريم خالٍ من أي اختلاف مذكراً سبحانه بأن كلام البشر معروف بكثرة الإختلاف فيه ، اختلاف الشكل والمضمون لا سيما عدم انضباط مستوىٰ التعبير والبيان والتأثير والبـلاغـة والأداء العـام علىٰ نسق واحـد وعدم تكامل وحدة الموضوع وطريقة عرض مفرداته ، أما الأفكار فتتباين قيمة كل منها وتتعارض أحياناً مع صلب المنهج الواحد . . !

تدبر أيها الإنسان . . فكونك خبيراً بكلام الناس سترىٰ الفارق العظيم في كلام لا قبل للناس بمستواه . . !

ويفهم من التدبر عندما يحيل الله تعالىٰ الإنسان إليه ليرىٰ من خلاله فضل القـرآن أنـه لا يخلو من الإنصـاف والحكم الأمين علىٰ الأشياء فضلا عن كونه يستلزم النظر العميق والتأمل الكافي وحسن الإحاطة . . !

ويـا له من تكـريم عنـدما يولي الله تعالىٰ الإنسان ثقة التدبر ، ويأتمنه علىٰ تدبـر كلامـه . . ! فهـل يتـدبر ليجَد ضالته إن كان ناشداً الحقيقة صدقاً . . ! ؟ أم يتقاعس فيدين نفسه . . ! ؟ أم ينظر كيف ما اتفق تحت ضغط الهوىٰ والشهوات ثم يخرج بآراء ظالمة ليقول بعدها إني قد تدبرت القرآن فما وجدت إلا هذه الآراء . . ! ؟

وكم رأينا في هذا الزمان أناساً لا يعرف أحدهم ما تكون (أم الكتاب) وإذا قرأ بضع آيات تلعثم وتعثر كالصبي رغم كونه يحمل أرفع الدرجات العلمية من أشهر جامعات العالم يتحامل علىٰ دين الله ظلماً بدعوىٰ أنه خبير به بصير . . !

وآخـرون يسعىٰ أحـدهم لإلصـاق أسـوأ الصفات والتهم بدين الله تعالىٰ واعطـاء أقبـح الإنطبـاعـات عنه زاعماً أنه قرأ وتتبع وأحاط ثم حكم وهو في الحقيقة لا يعرف (الحديث القدسي) قول من . . !

هؤلاء تنقصهم الإحاطة وحسن الإطلاع فضلاً عن سلامة القصد فلا غرو عندما تكون استنتاجاتهم سقيمة ومؤداها إلىٰ مزيد من استحكام الضلال . . !

والمستشـرقـون ينقصهم الإنصـاف والأمـانـة وهم يتـدارسـون دين الله فلا عجب أن نرىٰ سخف ملاحظات البعض منهم رغم ما أمضاه في التقصي والإطلاع من وقت طويل . . !

نعم لك أن تتدبر أيها الإنسان هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولكن للتدبر شروط إذا أنت وفيتها حقها كان خليقاً بك أن تنال ثمرة التدبر وهي التصديق بما جاء به القرآن لأنه خالٍ من الإختلاف ومن ثم لا محالة من الإستمساك بكلام الخالق تبارك وتعالىٰ . . !

التدبر بقلب مفتوح

يقول تعالىٰ «**أفلا يتدبرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها**»(٢) .

إذا أغلق المرء قلبه ماذا ينتظر منه . . ! ؟

لا شيء إذن حتىٰ لو كان المعروض عليه هو القرآن الكريم قول الله المحكم الخالد . . !

أرأيت الشمس إن أقفلت أمامها النوافذ أكانت أشعتها تتسرب إلىٰ الداخل . . ! ؟

افتح نوافذك لنور الشمس وسترىٰ من ثم أي ضياء يشيع من حولك وأي حياة تعيش . . !

وكذلك افتح قلبك أمام القرآن وسترىٰ من بعد أي كلام تقرأ وأي حياة ترتقي إليها من الحضيض . . !

كيف تفتح قلبك . . ؟

وفر حسن التوجه وصفاء القصد وإخلاص النية .

تخفف من ثقل الأهواء والشهوات .

استعد لاتباع الحق وجعله رائدك ومقدماً علىٰ كل شيء .

استمسك بالحق مهما كانت النتائج والتكاليف .

أما بدون استعداد كهذا فأنت ضائع في صندوق مسدود وسط ظلام دامس

---

(٢) ـ الآية ٢٤ سورة محمد .

وبيدك المفتاح ولكنك لا تريد الخروج ولا تطيق البقاء . . !

فأنت وشأنك . . !

لك أن تنتظر ضربــة المـوت فينتهي كل شيء إذ تحال بعـدهـا إلىٰ أشـد الحســاب وأقسىٰ العـذاب ، ولـك أن تبادر فتتدارك الوضع قبل أن تخسر وجودك كله عندما تحل ضربة الموت وأنت قابع في الظلام . . !

كتاب الحق

يقـول تعـالىٰ «**أفلم يدبـروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولـين . . أم لم يعـرفـوا رسـولهم فهم له منكـرون . . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون**»(٣) .

لم لا يتلقون كلام الله تعالىٰ بتدبر . . ! ؟

فما جاء بأمر غريب حتىٰ يصدوا عنه . . ! إنه منهج التوحيد الإلهي القديم الجـديـد جاءت به الـرسـل والأنبيـاء تترىٰ منـذ آدم إلىٰ عيسىٰ وختاماً بمحمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام . . !

فكلام التوحيد معروف معهود . . !

أم إن رسـولهم مجهـول عنـدهم . . ! ؟ إنه من صميم قريش وفي الذؤابة منهـا ، عاش معهم أربعـين سنـة فكان أفضلهم خلقاً حتىٰ لقبوه هم بالصادق الأمين وارتضـوه واضعـاً للحجـر الأسود في مكانه لدىٰ إعادة بناء الكعبة عندما اختلف زعماء القبائل فيمن يحظىٰ بهذا الشرف منهم وكاد النزاع يفضي بهم إلىٰ الإقتتال لولا أنهم أصغـوا لنصيحـة تدعـو إلىٰ تحكيم أول داخـل عليهم المسجد الحرام فكان هو ﷺ ، وحـلاً للمشكلة افـترش رداءه ووضـع فيـه الحجـر ثم دعا زعماء القبائل أن يأخذ كل

---

(٣) - الآيات ٦٨ - ٧٠ سـورة المؤمنون .

واحـد منهم بطـرف ويـرفعوا الحجر قريباً من مكانه حيث تقدم هو فحمل الحجر بيديه ووضعه علىٰ جدار الكعبة . . ![4] .

وهو إياه قال لهم بعد البعثة :

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي . . ؟

قالوا : ماجربنا عليك كذباً . . !

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . . ![5] .

أهذا رجل منكر في قومه . . ! ؟

أم يقولون إنه مجنون ، كما اتهمه بهذا سفهاؤهم . . ! ؟

هل يصدق عاقل أن رجلاً هو أفضل قومه خلقاً وأعلاهم شرفاً يكون مجنوناً . . ! ؟

فمن هو العاقل إذن . . ! ؟

«**بـــل جاءهم بالحق**» . . هذا هو كل ما ينكـرون . . ! لأنـه لا يرتضي **مناهجهم** القائمة علىٰ الأباطيل . . ! ولأنه يضع الموازين القسط بين الناس فلا يأكل قويهم الضعيف ولا تكون السيادة بظلم وإنما الحاكمية كلها تكون لله تعالىٰ خالق الكون ورب العالمين . . !

أفي هذا الحق ضير أو عيب أو خطأ . . ! ؟

كلا . . !

فما يمنع من قبوله إذن . . ؟

«وأكثرهم للحق كارهون» . . !

تدبر القرآن أيها الإنسان . . أم أنت للحق كاره تخشىٰ أن يتأدىٰ إليك بمقتضياته . . !

قل لي بربك :

---

(٤) ـ تنظر التفاصيل في كتب السيرة .

(٥) ـ تنظر التفاصيل في كتب السيرة .

إذا اعرضت عن الحق من الخاسر أنت أم هو . . ! ؟

ليتذكر أولو الألباب

يقـول تعـالىٰ «كتـاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب»(٦) .

كتـاب أنـزل لا ليقـرأ علىٰ عجـل وبدون استشعار لمعانيه فهذا بخس له ، وإنـما ينبغي أن يتلقـاه النـاس متـدبرين ليروا بإمعان ما أودع فيه ربهم جل جلاله من الحق والهدىٰ والفوز فيأخذوا منه نصيباً أوفر .

وليس هناك كذوي العقول، العتيدة من العلماء وأهل الخبرة أحسن انتفاعاً بكتاب الله إذاهم تدبروا آياته لأنه تنزيل من لدن عليم حكيم سامق القمم في كل ما احتواه ، وما أضخم محتوىٰ يتواصل عطاؤه إلىٰ يوم القيامة زاخراً يتناسب مع مستوىٰ الحياة في كل زمن وجيل . . !

إذا تدبـره أولـو الألبـاب رأوا أوثق الإنسجـام بين آياته وظواهر الكون المليئة بمعجزات الخلق والإبداع والتدبير ، أو ليس منزل القرآن وبارىء الوجود واحداً . . ! ؟

فمن يجيـد الكـلام عن الأرض ومحتوياتها والشمس والقمر والنجوم والسماء وأجرامها والإنسان والزروع وسائر الأحياء مثل خالقها . . ! ؟

وهـذا الـترابط الوثيق بين آيات القرآن والكون بما يتضمنه من إعجاز ليتبين صريحاً كل الصـراحـة لقـوم أولي ألبـاب وقفـوا وقفـة العلم والخـبرة والإنصاف أمام المخلوقـات المحيطـة بمـداركهم فاستخلصـوا منها نتائج صحيحة واعطوا كل مالمسوه مقـداره من الإهتـمام والقيمـة حتىٰ إذا جاءتهم آيـات القـرآن وجدوها تتحدث معهم باللغـة إيـاهـا التي تتحـدث بها آيـات الكون ، هذه بلسان الحال وتلك بلسان المقال كالوجهين لعملة نقود واحدة . . !

---

(٦) - الآيـة ٢٩ سورة ص .

أمـا غير أولي الألبـاب ، أمـا غير المتدبرين فما أكثر التباس الأمور عليهم لا سيما عندما يستبد بهم الهوىٰ والشهوات فيجد فيهم الشيطان فريسة سهلة . . !

هؤلاء لم يفهمـوا آيـات الكـون كما ينبغي ولم يستـوعبـوا ما يرونه من اعجاز الخلق والإبـداع والتـدبير إذ يمرون علىٰ هذه الآيات الكونية متصورين أنها مألوفات ليس فيها ما يلفت النظر والعقل والإهتمام . . !

وتأتيهم آيـات القـرآن فلا يتفهمونها كذلك فيقابلون كل آية تعرض عليهم باللهو واللعب والسخرية والتعالم وحالهم هذا أشبه بمن يتصابىٰ فيعبث بجواهر نفسية وسط الطريق يقذفها ذات اليمين وذات الشمال لا يبالي أسقطت في حفرة أو طين ولا يأبه إن فقدها سرقة أو تلفاً لأنه لا يعبأ ،بنصيبه، من الإدارك والوعي والحرص . . !

أي جناية يرتكبها هؤلاء بعد أن يصموا الحواس والعقل والقلب إزاء وحدة المـوضـوع في آيـات القـرآن وآيـات الكون ونحو وضوح آثار خالق واحد هو الله تبارك وتعالىٰ ويتلقوا مفردات الحق بلا تقويم منصف . . ! ؟

* * *

بذلـك المستـوىٰ المرموق الذي رسمته آيات التدبر الأربع يراد الوقوف أمام القـرآن وتـدبـره حتىٰ يمكن إنصـافـه ومن ثم الإستفـادة القصـوىٰ من الحق الشامل العظيم الذي أحاط به الكتاب المجيد وأفاضه علىٰ الناس رحمة من الله الرحمان الرحيم . . !

ومتـدبـر بذلـك القـدر الجم لا يمـر علىٰ صغـير وكبـير في هذا الكـون إلا استوعب تفاصيله وأحسن فهمه ومن بعد ينصفه كما يجدر بالإنسان ذي الطراز الرفيع . . !

التعامل مع المحسوس

إجالة النظر العلمي

النظـر العلمي[1] مقـدمـة لا بد منها لتكوين عقيدة ، بل إنه مطلب جليل القدر لمن أراد أن يضع لبنات الاعتقاد علىٰ أساس مكين . . ولما كان الخالق عز وجل قد أبدع للناس عقيدة جعلها بمستوىٰ ابداع خلقهم وابداع الحياة وابداع الكون لذا فإنـه لم يكتف بأن اعطىٰ الإنسـان أجهـزة تحصيـل علمي ـ كنا قد اطلعنا في المواضيع السابقة علىٰ إمكاناتها الهائلة ـ ليترك له النظر العلمي كما يشاء قبل أن يكتمل اعتقاده . . !

وإنما لأنه تعالىٰ اعرف بمدىٰ إمكانات تلك الأجهزة التي اعطاها الإنسان كالسمـع والبصـر والحـواس الأخرىٰ والعقل والقلب ، ولأنه المحيط الأوحد بما يحتويه الكون العظيم من آفاق جديرَة بالنظر أراد سبحانه أن يدل الناس علىٰ مجالات النظر العلمي المؤدية إلىٰ اعظم عقيدة في الوجود . . !

---

(١) ـ النظـر بعلم ليس كالنظـر بدون علم ، هل تستوي نظرة العالم ونظرة الجاهل . . ! ؟ هناك أشيـاء كثـيرة من حولنـا تحتـاج إلىٰ زاد علمي مكتسب قبل أن نجيل فيها العين حتىٰ تكون حصيلة النظر أغنىٰ وأوفر واعمق وأرسخ . . !

ومجالات النظر العلمي المحددة في القرآن سيسأل المرء يوم القيامة عما استفاده منها ، وقبل هذا سيسأل عن أجهزة التحصيل العلمي فيم استخدمها ، وبالتالي سيسأل عن موقفه من عقيدة التوحيد الإلهي كيف كان وهي لا يماثلها نظير في العقائد ولا تخفىٰ ولا تمتنع علىٰ عالم أو أمي بل إنها تستهوي الإثنين معاً إن تلمساها بصدق . . !

وفي الحق إن مجالات النظر العلمي القرآنية لا يتسع لها سفرعظيم لوحدها لو أردنا أن نتقصاها في كل الآيات وطالما أن أخذ عينات منها تستعرض أبرز آفاقها يكفي لتقديم إشارة تغني اللبيب المنصف عليه سنتوخاها بذلك القدر ، وعلىٰ الله تعالىٰ قصد السبيل .

قشور الكون ولبابه

يقول تعالىٰ «**أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسىٰ أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون**»(٢) «**قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**»(٣) «**خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين**»(٤) .

هذا الكون العظيم المنظور منه والمحسوس والمتوقع والمجهول وراء الحسبان بأي قدرة خلق وأبدع ويدبر . . ! ؟ إن المقتدر عليه جل جلاله ليملأ شعور الإنسان العاقل رهبة ويشد إليه كل اهتماماته فلا يقر ويهدأ ويسكن حتىٰ يصل إزاءه إلىٰ اعتقاد

---

(٢) - الآية ١٨٥ سورة الأعراف .

(٣) - الآية ١٠ سورة يونس .

(٤) - الآية ٤٤ سورة العنكبوت .

صحيح أساسه الحق ودعائمه السداد ومراميه الحسنىٰ . . !

فعالم كهذا ليس هو لعبة أطفال لا تعار التفاتاً . . !

إنه الخلق المعجز في كون بلا حدود . . !

وإنه الإبداع الأخاذ في السموات والأرض . . !

وإنه التدبير المتين لكل مخلوق حي أو جماد . . !

نحن في حياتنا ننظر إلىٰ مصنوع أحكمه إنسان ونبدي إعجاباً نحوه ، وننظر إلىٰ جمال هذا المصنوع ونبدي إعجاباً نحوه وننظر إلىٰ جدواه ونبدي إعجاباً نحوها ، ذلك كله حسن جداً ويعني أن حسنا العلمي جيد ومتفاعل ويعني أن حسنا الجمالي رفيع وذواق ويعني أن حسنا القلبي سليم ومنصف . . !

ولكن هذا يستدعي أن ننظر إلىٰ مصنوع هو الكون كله الواسع بلا أطراف ونبدي إعجاباً أكبر نحوه وننظر إلىٰ جماله الجياش الواضح ونبدي إعجاباً أشد نحوه وننظر إلىٰ جدوىٰ أشيائه الكثر سواء منها التي تتوقف عليها الحياة والتي تزدهر بها الحياة ونبدي إعجاباً أوفر نحوها . . !

أما إن لم نلتفت إلىٰ الكون لنزنه بالنظر إياه فهو التناقض الكبير المعيب . .

كيف يسوغ أن نعجب بكرسي صنعه النجار مثلاً ولا ننظر إلىٰ بدائع الكون . . ! ؟

وكيف يسوغ أن نعجب بصورة رسمها إنسان ولا ننظر إلىٰ نفائس الكون . . ! ؟

وكيف يسوغ أن نعجب بحلوىٰ أعدتها امرأة ولا ننظر إلىٰ طعام الكون . . ! ؟

ولا يعني ذلك التناقض وحده ، وإنما يدلل أيضاً علىٰ الغفلة وانحراف التطلع وبالتالي الضلال . . !

إبليس اللعين يضحك علىٰ كثير من الناس ولكنهم لا يشعرون . . !

كيف . . ؟

إنه يظل يلح علىٰ الإنسان لكي ينظر بكل اهتمامه ـ مثلاً ـ في دقائق صنع النجار تملياً لزخارفه وأن ينظر بإمعان في لوحة الرسام ليلتقط منها ملامح الفن ولمساته وأن ينظر بذوق إلىٰ حلوىٰ المرأة ومهارة اعدادها . . فينظر الإنسان وينظر ويفرغ كل اعجابه فيها حثه إبليس علىٰ أن يشبعه نظراً . . !

لقد ألهاه عن المهم وصرف طاقته في صحراء . . !

إبليس اللعين يعرف جيداً أن نظر الإنسان لا بد أن يستثمر وأنه إن ترك بلا تضليل فمعنىٰ ذلك أن ينشد هذا النظر إعجاباً بكل ما حواليه في الوجود ثم ينقاد من هنا إلىٰ خالقه عبر أهدىٰ سبيل مزوداً بأرسخ يقين . . !

فرح الإنسان بنظره يجول بين زخارف كرسي النجار اعجاباً وما درىٰ أنه خدع بصرف نظره عن الإمتداد إلىٰ زخارف الكون إلىٰ السماء ـ مثلاً ـ المزينة بالنجوم وإحداها قد تكون مجرة بقدر (درب التبانة) تتلألأ من بعيد .

لماذا خدع . . ؟

لأن الاعجاب بصانع الكرسي غير ذي بال أما الاعجاب بخالق السماء **فيعني الإيمان بالله تعالىٰ . . !**

يا للغفلة ، وإبليس العدو يضحك . . !

وفرح الإنسان بنظره يجول في لوحة رسام اعجاباً بلمساته وما درىٰ أن نظره قد صرف عن أصل الصورة أي قد صرف عن المشهد الطبيعي الماثل أمام عينيه في هذا الكون يجيش حياة ويفيض جمالاً ويشمخ اعجازاً وينطق بأبين لغة مشيراً إلىٰ الخالق عز وجل .

لماذا خدع . . ؟

لأن الاعجاب برسام اللوحة لا يقود إلىٰ عقيدة أما الاعجاب بخالق الطبيعة فيعني الإيمان بالله تعالىٰ . . !

يا للغفلة ، وإبليس العدو يضحك . . !

وفرح الإنسان بنظره يجول في حلوىٰ المرأة اعجاباً باعدادها وما درىٰ أن نظره قد صرف عن الاعجاب بالمواد المستخدمة في اعداد الحلوىٰ من سكر وفواكه وماء وغيرها وصرف كذلك عما خلق الله تعالىٰ من طعام وثمار يشتهيها الإنسان ويلتذ بها وهي جد ملائمة لمتطلبات جسمه .

لماذا خدع . . ؟

لأن الاعجاب بمعدة الحلوىٰ لا يخدم المرامي العليا لدىٰ الإنسان أما الإعجاب بخالق المواد والطعام فيعني الإيمان بالله تعالىٰ . . !

يا للغفلة ، وإبليس العدو يضحك . . !

كيف بدأ الخلق ؟

من يرىٰ الخلق من حوله معجباً ذوي الألباب لا شك أن النظر يجره إلىٰ البدايات متسائلاً كيف تجمعت كل هذه المواد وتوزعت أصنافاً متناسقة ثم تفاعلت أجزاؤها لتكون حياة نعرفها هي بكل مفرداتها محكمة الصنع بديعة التكوين جمة الفوائد . . ! ؟

لو كان الناظر ناشداً اليقين فهو سيجزم بعد إجالة النظر الحسن في الخلق بأن خالقاً لا إله إلا هو وحده يتفرد بالتمكن المطلق في هذا الوجود **«إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»**[٥] .

«أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك علىٰ الله يسير»[٦] .

وإذا رأىٰ الإنسان كيفية بدء الخلق فاعجب بقدرة الخالق وابداعه فلا شك أن الاعتقاد بإمكان اعادة الخلق لا يحتاج إلىٰ طائل لأن موجد الخلق من العدم قادر علىٰ اعادته متىٰ أراد .

وغير المؤمن إذا اعتقد أن اعادة الشيء عموماً أيسر من إيجاده ابتداء لم إذن لا يلتزم بهذا الاقتضاء المنطقي عند التعرض لمسألة الخلق . . ! ؟

هناك مسلمات كثيرة يتمسك بها غير المؤمنين ولكنا نراهم يدعونها وراء ظهورهم عندما يلجئهم الأخذ بها إلىٰ الاعتقاد بالله تعالىٰ ، وما ذكرناه آنفاً هو مثل واحد فقط . . !

أي فعل في الوجود إنما هو علىٰ الله يسير . . !

إنه اعتقاد لا يحتاج إلىٰ بحث فلسفي شاق وكثير الإلتواء لا يتأتىٰ لكل الناس اجتيازه بسلام ظافرين بالحق المنشود وإنما يلزمه النظر إلىٰ الخلق فهو مظنة

---

(٥) ـ الآية ٨٢ سورة يس .

(٦) ـ الآية ١٩ سورة العنكبوت .

الـدليـل الـراسـخ والبرهان الساطع والحكم الفصل ، ولهذا فإن الخالق عز وجل وهو أدرىٰ بخلقـه سواء الإنسـان أو الحيـاة أو الكـون أراد من عباده أن ينظروا إلىٰ الآيات المبثوثة من حولهم طريقاً للإيمان بكبرىٰ اليقينيات الكونية .

«قـل سيروا في الأرض فانظـروا كيـف بدأ الخـلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة»(٧) .

إذا كان طول الألفة وتوالي التكرار ولزوم العادة عوامل تغشي أحياناً بصيرة البعض فلايتحسس اعجاز الخلق في محيطه فما عليه إلا أن يسير في الأرض انتقالاً إلىٰ أماكن أخرىٰ عله، يرىٰ في المناطق الجديدة آيات تحرك أحاسيسه استيعاباً لكيفية بدء الخلق ومن ثم يكون له إيمان بالإعادة جازماً بقدرة الخالق علىٰ فعل ما يريد مهما كان ومتىٰ شاء سبحانه . . !

ما أحرص رب الناس علىٰ هدايتهم . . !

إنه لا يدع طريقاً يوصل إلىٰ الحق إلا دلهم عليه . . !

يحثهم علىٰ نقل الخطىٰ قبل فوات الأوان . . !

ويكشف أمامهم تضاريس كل الطرق . . !

سألت أحدهم : متىٰ تستمسك بالحق . . ؟

قال : لم يهدني الله بعد . . !

قلت : سبحان الله . . !

قال : أوليس هو الهادي . . ! ؟

قلت : نعم . . !

قال : علام تتساءل وأنت تعلم أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء . . ! ؟

قلت : ما تظـن الهـدايـة . . ؟ أهي كتـاب يتنـزل علىٰ رأسـك من السماء . . ؟ أم ماذا . . ؟

قال : لا ادري . . المهم أن الله هو الهادي . . !

---

(٧) ـ الآيـة ٢٠ سـورة العنكبوت .

قلت : إن الله قد أتاح لك الهدىٰ فأبيت . . !

قال : كيف . . ! ؟

قلت : ألم يعطك عينين ترىٰ فيهما آياته التي تملأ الكون والحياة من حولك . . ؟ لقد اعطاك عدة الوصول إلىٰ اليقين ووضع بين يديك هدي الرسل والأنبياء . . ! فهل استفدت بهذا العطاء الرباني الزاخر أم أبيت . . ! ؟

قال : إنك تذهب بعيداً وتحمل الأمور فوق طاقتها . . !

قلت : إذا كنت تعتقد أن الله تعالىٰ موجود وهو مانح الهداية فلماذا لا تستمسك بمعطيات عينيك وملتقطات حواسك ويقينيات قلبك . . ! ؟ فالعين وسائر الحواس والعقل والقلب أجهزة تعتبر من أجل الأمانات التي استودعك إياها . . ! وإذا كنت تنتظر هداية أكثر مما أتيح لك من أدواتها فإنك واهم يخدعك إبليس لتركن إلىٰ الضلال حتىٰ تموت عليه . . !

ودعني أسألك : لو أن امرأ يعتصره الجوع ومن حوله طعام كثير شهي وهو يفضل أن يموت جوعاً علىٰ أن يمد يده إلىٰ ما يقيم أوده معتقداً أن الله تعالىٰ سيطعمه إذا أراد أما كنت تسخر منه . . ! ؟ ولو أن هذا الإنسان مات جوعاً أتراه غير مسؤول أمام الله تعالىٰ عما اقترف . . ! ؟ إنه مسؤول لا محالة عن نعم أوجدها الله تعالىٰ لنفعه وهيأها بالقرب منه ومكن يداه من التناول فلم يفعل . . !

أو ليس هذا بإنتحار . . ! ؟

وأنت كذلك تنتحر ضلالاً بطريقة أخرىٰ محاولاً إيهام نفسك بحسن الصنيع . . !

سماؤنا مثار الاعجاب

يقول تعالىٰ «**أفلم ينظروا إلىٰ السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج**»(٨) .

---

(٨) ـ الآية ٦ سورة ق .

الحريص علىٰ إجالة النظر في زخارف النجار ونقوش الرسام وتنميق الحلوىٰ مثلاً يفترض أن ضخامة السماء تسترعي نظره ببنائها المحكم وزينتها للأرض وما ينطوي عليه هذا الخلق العظيم من تفاصيل . . !

والسماء ليست بعيدة عن الناظر إنها فوقه ترمقها عيناه في ليل ونهار . . !

وإذا كانت اعمال صغيرة كالكرسي واللوحة والحلوىٰ قد انتزعت منه اعجاباً فيفترض أن ضخامة السماء وبناءها المحكم وزينتها للأرض تنتزع منه الاعجاب كله . . !

وإنسان كهذا ينبغي له أن يتساءل : أي قوة تمسك بمقاليد هذه السماء فتجعل عملها يستمر ووظائفها تتأدىٰ وفق نظام شامل صارم بديع . . ! ؟

«ويمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم»(٩) .

أي رأفة أبلغ وأي رحمة أكبر من جعل الأرض منضبطة في دوران معلوم وتحرك موجه بحيث نحصل علىٰ ليل ونهار وفصول وهكذا هي منذ آلاف السنين . . ! ؟

لم لم تنفلت الأرض في الفضاء السحيق كالريشة في مهب الريح . . ! ؟

ولم لم يقع عليها جرم كالشمس مثلاً ـ إنه بقدرها مليون مرة ـ فيطحنها التصادم وتذيبها الحرارة وينتهي كل شيء . . ! ؟

لأن هناك خالقاً يمسك الزمام بقوة وهو رؤوف بعباده رحيم . . فهو جل ثناؤه لا يسمح لأي فعل عشوائي أو اضطراب أو خلل أن يحصل بأي قدر مهما كانت ضآلته ، فكيف يتأتىٰ لفعل كهذا أن ينال من مخلوق بلا مبرر . . ! ؟

وربما يعترض أحد المتعاملين جهلاً علىٰ كلمة «تقع» في الآية ٦٥ من سورة الحج فيقول ليس في السماء (فوق وتحت) حتىٰ يمكن التعبير بـ «تقع» . . !

هذا نصف الحقيقة وحتىٰ لا تضيع إليك النصف الآخر :

---

(٩) ـ الآية ٦٥ سورة الحج .

ليس بإمكـان بشـر الجزم باستحالة وجود (فوق وتحت) في السماء لأن السماء ليست كلها بين أيدينا حتىٰ نتحدث عن اقتناع تام بنفي الـ (فوق وتحت) . . والأمر الثـاني أن التصـادم بين أجـرام السماء عندما يحصل افتراضاً ليس هو وقوع جرم أعلىٰ فوق جرم أسفـل ولكن بالنسبـة لك أنت الـواقف علىٰ الأرض ماذا تسمي التصـادم عندما يأتي من فوق رأسك ويضرب الأرض . . ! ؟

إنه وقوع . . !

كارثة تقع . . !

الله تعـالىٰ عنـدمـا يتحدث في القرآن الكريم عن أحوال كونية مثلاً لا يريد أن يحكي لك عنها بشكل مجرد من التوجيه والاعتبار . . !

ولذلك فإنه عندما يقول «تقع» يتبادر إلىٰ ذهنك تصور الوقوع فوق رأسك ، أمـا عنـدمـا يقـول تتصـادم فإن التأثر الشعوري يكون لديك ضعيفاً إن حسبت أن التصادم لو حصل فإنه قد لا يضرب جهتك من الأرض . . !

المطلوب هو أن تتصـور الكـارثـة «تقـع» وليس مجرد تصـادم ، لأن ضخامة الوقوع المتصور ستريك مدىٰ رأفة ربك ورحمته بالناس ، وهذا هو الغرض من الآية . . !

سماء منضبطة كل الإنضباط . . !

وهنـاك أمثلة أشـد وضـوحاً يرىٰ فيها الإنسان يومياً مدىٰ صرامة الإنضباط وأي رؤ وف هو الخالق جل شأنه وأي رحيم هو الله عز وجل . . !

منهـا الشمس ، إنهـا تشـرق نهاراً وتغيب ليلاً موزعة الدفء والضوء علىٰ أجـزاء الأرض كلهـا بقـدر يجعـل حيـاتنـا المزدهرة بمختلف البقاع والأجواء تتواصل وتمضي قدماً إلىٰ ما يشاء ربنا سبحانه . . !

ومنهـا القمـر ، إنـه يسطـع أغلب ليـالي الشهر بأشكال مختلفة فيبدد وحشة الظـلام ونعـرف بتـوالي بزوغـه عدد الأشهـر والسنين وبجاذبيته تتواصل عمليات المد والجـزر في البحـار فهـو لم يتخلف عن أداء هذه الوظائف وسواها منذ أن وجدت الحياة علىٰ كوكبنا وسيظل هكذا إلىٰ قيام الساعة . . !

ومنها النجوم المتلألئة ليلاً في أفق السماء ، إنها زينة لأهل الأرض ومصابيح مضيئـة تأنس إلىٰ بريقهـا أنفسهم فلا يوحشهـا مشهـد الظلام وبها يستدلون في طرق البر والبحر فلا يضلون . . !

«والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره»(١٠) .

لو لم يكن هنـاك مسخـر لهذه الأجرام لما كان لها عمل ولما تابعته حقباً طويلة ولما خدمت البشر والحياة علىٰ الأرض وفق ما يريد الرؤ وف الرحيم . . !

«الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترىٰ في خلق الرحمن من تفـاوت فارجـع البصـر هل ترىٰ من فطـور . . ثم ارجـع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير»(١١) .

ليس ثمـة اضطـراب في السـماء أوعدم تنـاسب . . ! ومن يشـك في هذا القول فلينظر بعينيه إليها هل يرىٰ من شقوق وخلل . . ! ؟ ثم ليعد نظره تكراراً هل يجد مساغاً لشكه . . ! ؟ لا محالة سيرجع النظر خائباً بذلة . . !

وإذا تأكد الإنسان بعينيه أن البناء السماوي محكم وتأكد أن وراءه خالقاً ولا بد فما عسـاه أن يفعـل . . ! ؟ أيمـر بلا مبـالاة إزاء ايحـاءات المشهـد السـماوي فيما تستوقف كل اهتمامه خيالات رسام مثلاً وتستحوذ علىٰ كل اعجابه . . ! ؟

آمن أولا تؤمن ، إفعـل ماشئت أيهـا الإنسـان فلقـد أقمت علىٰ نفسـك الحجة ، وإلىٰ أين المفر وأنت تقترب من الآخرة كل يوم خطوات ، بل إنك لا تدري أي لحظة ستنقلك إليها لا محالة معفر الوجه والجبين والأنف بالتراب . . !

وفي الأرض آيات للموقنين

من نشـد اليقـين فعـلاً ففي الأرض آيـات لا تحصىٰ تملأ العين وتهز القلب

---

(١٠) ـ الآيـة ٥٤ سـورة الأعراف .

(١١) ـ الآيتان ٣ و٤ سـورة الملك .

وتستدعي الإيمان وترسخ اليقين فما على المرء إلا أن ينظر بوعي ويتدبر بعلم ويزن بإنصاف . . !

«ألم نجعل الأرض مهاداً»(١٢) . . ! ؟

نعم ، إنها معدة جيداً لا ستقرار الحياة وازدهارها ، كل شيء فيها يتضافر مع سائر الأشياء من حوله لأداء أفعال لها دلالة ونفع سواء لذات الشيء أولعموم الحياة في الأرض .

ولو لم يكن اعداد كوكبنا للحياة محكماً يقترن بقصد وجدوى لما تسنى لها بالقطع أن يضطرد ازدهارها وأن تتسع لمرامي عقيدة التوحيد الإلهي ومتطلباتها منذ أبينا آدم وحتى سيد الرسل والأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ومن بعده إلى يوم القيامة .

«أمن جعل الأرض قراراً»(١٣) . . ! ؟

أهناك أحد سوى الله تعالى قادر على خلق الأرض وجعلها مستقرة رغم أنها تقوم بخمس حركات في آن واحد وهي معلقة في السماء وسط مئة مليار جرم في مجرة درب التبانة وملايين لا تعد من المجرات . . ! ؟

تدور حول نفسها بسرعة ربع ميل في الثانية وتدور حول الشمس بسرعة ١٨/٥ ميلاً في الثانية وتجري بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية ضمن موكب المجموعة الشمسية المنطلق نحو نقطة بين الجاثي واللورا وتدور بسرعة ١٢٠ ميلاً في الثانية ضمن دوران المجرة حول نفسها وتجري بسرعة ٦٠٠ إلى ٤٠ ألف ميل في الثانية ضمن انطلاق المجرة في الفضاء متباعدة عن المجرات الأخرى . . !(١٤) .

وليس هذا الوضع الحركي للأرض محض تصور وتخمين وإنما هو معلوم يقيناً بالنظر التلسكوبي وقدرات العلوم الكونية .

ورغم كل هذا الدوران والحركة نجد الأرض غير مضطربة بل قراراً . . !

---

(١٢) - الآية ٦ سورة النبأ .

(١٣) - الآية ٦١ سورة النمل .

(١٤) - ينظر (الكون الأحدب) للدكتور عبد الرحيم بدر ص٢٤ .

وينبغي الإنتباه هنا إلىٰ مضمون التساؤ ل الرباني «**أمن جعل الأرض قراراً**» وتناسبه مع الوضع الحركي للأرض . . إنه تساؤ ل لا يطرحه إلا من يعرف الحركات الخمس للأرض قبل أن يكتشف أي تلسكوب وقبل أن توجد علوم كونية بل منذ أن خلق هو سبحانه كوكبنا . . . !

فلو كانت الأرض مستقرة بدون حركاتها الخمس لكان التساؤ ل «**أمن جعل الأرض قراراً**» خالياً من الاعتبار البليغ . . ! وأمر كهذا ـ وليس هو الوحيد ـ يظهر بجلاء مدىٰ الاعجاز في أمية الرسول مبلغ دين الله المعمول به إلىٰ يوم القيامة . . ! اللهم صلى وسلم وبارك عليه كما يليق بشأنه العظيم في هذا الوجود . . !

«**وجعل خلالها أنهاراً**»(١٥) ومن علائم ذلك الاستقرار الانهار العديدة في الأرض تنساب بقدر وتنتقل بالمياه من موضع إلىٰ آخر مروراً بالقرىٰ والمدن والحقول فتمد بالحياة كل الأحياء من بشر وحيوان وزروع وعليها يتوقف أيضاً استمرار العمل والصناعة والإعمار عموماً . . !

«**وجعل لها رواسي**»(١٦) والجبال من علائم استقرار الأرض كذلك ، فهذه الأطواد الشامخة تشكل مراكز ثقل في توازن كوكبنا . . محمد بن عبد الله الرجل الأمي ـ ﷺ ـ اعلن في ذلك الزمن البعيد نقلاً عن ربه خالق الأرض والكون والحياة أن الجبال «رواسي» فتوصل العلماء المتخصصون بعده بأكثر من عشرة قرون إلىٰ أن انتقال المياه من جهة إلىٰ جهة فوق الأرض له حساب دقيق في حفظ التوازن الجرمي ، وكل ذي ثقل له تأثير معين ، بل حتىٰ سير الرياح داخل في عملية التوازن . . !

يقول الدكتور أحمد زكي (إن كل حدث يحدث في الأرض في سطحها أو فيما دون سطحها يكون من أثره انتقال مادة من مكان إلىٰ مكان يؤثر في سرعة دورانها ،

---

(١٥) ـ الآية ٦١ سورة النمل .

(١٦) ـ الآية ٦١ سورة النمل .

فليس المد والجزر هو العامل الوحيد في ذلك . . حتىٰ ما تنقله الأنهار من مائها من ناحية في الأرض إلىٰ ناحية يؤثر في سرعة الدوران ، وما ينتقل من رياح يؤثر في سرعة الدوران ، وسقوط في قاع البحر ، أو بروز في سطح الأرض هنا أو هناك يؤثر في سرعة الدوران . . ومما يؤثر في سرعة هذا الدوران أن تتمدد الأرض أو تنكمش بسبب ما ولو انكماشاً أو تمدداً طفيفاً لا يزيد في قطرها أو ينقص منه إلا بضع أقدام»(١٧) .

وبما أن سرعة دوران الأرض منضبطة كل الإنضباط يكون إذن كل ما يجري علىٰ جرمها من مؤثرات داخلاً في حساب توازن دقيق رغم ضخامة الكوكب وكثرة المؤثرات علىٰ دورانه . . !

«وألقىٰ في الأرض رواسي أن تميد بكم»(١٨) .

أي إن الجبال كالرواسي الحافظة للسفن من اضطراب الحركة . . وما أحسن التشبيه ، فالأرض طافية في الفضاء الخارجي كما السفينة تتهادىٰ فوق سطح الماء ، كلاهما توفرت له الرواسي فتوازن ولولاها لتعذر عليه أن يشق طريقه بأمان وسلام نحو إرادة الربان . . !

وتنظر العين إلىٰ الجبال فتتذكر عظمة الخلق وتتحسس ضآلة الجسم وترىٰ قمماً مغطاة بالثلوج طوال السنة لا تستعصي علىٰ الذوبان ولا هي تذوب مرة واحدة وإنما يتم ذلك بقدر ما يضمن حاجة الأحياء إلىٰ المياه باستمرار . . !(١٩) .

---

(١٧) ـ كتابه (مع الله في السماء) ص٨٢ .

(١٨) ـ الآية ١٠ سورة لقمان .

(١٩) ـ وكون الجبال الشاهقة مصدر ماء ثابتاً للأنهار لأوضح مناسبة تسمح باقتران ذكرهما في الآية «أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي» . . ! علماً أن الحجاز وهي البلاد التي عاش فيها الرسول ﷺ خالية من الأنهار وخالية من قمم جبلية تغطيها الثلوج طوال السنة . . !

إنه الوحي من خالق الأرض والحياة تبارك وتعالىٰ لرجل أمي لم يعرف عنه التجوال والسياحة في طول الأرض وعرضها حتىٰ يكون قادراً علىٰ اعطاء تصورات يقينية عن أحوال طبيعية تنتشر في أصقاع بعيدة . . !

فيهـا مصـايف للنـاس وفـواكـه لا تتـوفر في الوديان والسهول وتختزن تربتها معادن نفيسة كالـذهب والفضة وغيرها وهذه المنافع كلها تندرج أيضاً ضمن عوامل استقرار الحياة من وجه آخر . . !

«وبث فيها من كل دابة»(٢٠) .

نشـر ووزع فيهـا البشـر والحيـوان بما يؤدي أيضاً إلىٰ استقرار الحياة وتوازنها وبالتالي انعكاس ذلك إيجاباً علىٰ الأرض ، ويبدو أن هذا البث أو النشر والتوزيع لا يقل أهمية عن إيجاد الأنهار والجبال لحفظ توازن الأرض واستقرار الحياة فيها . . !

«وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون»(٢١) .

ومـا أكثـر الطـرق وأحسنهـا فوق الأرض ، فعلىٰ اليـابسـة تتـوزع بما ييسر الإنتقال من جهة إلىٰ أخرىٰ ، والجبال مهما تكاثرت في منطقة فهي لا تخلو من طرق وكذلك الغابات والسهول ، وفي البحر ثمة طرق عديدة لا تعرقل السير فيها صخور أو عواصف أو موانـع أخـرىٰ ، وفي الجـو أيضاً طرق كثيرة يعرفها الطيارون ويتحرونها بدقـة اجتنـابـاً للسـير المضطـرب الخطـر ، وكل هذه الطرق علىٰ اختلاف مواضعها وجدت **«لعلهم يهتدون»** . . !

«وبارك فيها وقدر فيها أقواتها»(٢٢) .

لقـد هيأ الخـالق عز وجـل كوكبنـا ليكون صالحاً للحياة تربته تنبت الزروع ومن اعـماقهـا تستخـرج المعـادن فضـلاً عن توفـر امكـان التفاعل اللازم لانتاج المواد وجعلها مستساغة تنفع في مجال حياتي وربما أكثر .

المـواد الـلازمـة لتواصل الحياة وازدهارها كل واحدة منها موفورة ولكن بقدر ونظـام ، فعـدد النـاس وتوزعهم مقيد بضوابط ، وكذلك تنوع الحيوان وانتشاره مقيد بضوابط ، وكذلك الزروع وتوزعها كمية وصنفاً مقيد بضوابط ، فعدد الناس لا يبلغ

---

(٢٠) ـ الآيـة ١٠ سـورة لقمان .

(٢١) ـ الآيـة ٣١ سـورة الأنبياء .

(٢٢) ـ الآيـة ١٠ سـورة فصلت .

في جيل واحد ملايين المليارات وهم لا يستقرون في منطقة تاركين سائر الأصقاع ، والحيوان ليس محصوراً ببضعة أصناف وليس متجمعاً في بقعة وليست اعماره سواء ، فمثلاً النسور تعيش اعماراً طويلة بتفريخ قليل ولو كانت كثيرة التفريخ لأفنت الطيور أثناء طول اعمارها ، وهناك بخلافها الذباب فهو يعيش بحدود أسبوعين ولو عمرت الذبابة شهراً متكاثرة بنفس المقدار الهائل المعروف لغطىٰ جنسها وجه الأرض في وقت غير طويل . . !

والزروع لا تشذ أيضاً عن ذلك القصد والضبط والإحكام فالبقع الخضراء لا تغطي وجه البر برمته وليست كلها مغروسة بالنخل مثلاً أو العشب وإنما قد روعي فيها التنوع المطلوب والمقدار الكافي لكل الحياة علىٰ الأرض إطلاقاً وبشكل لا يقدر عليه إلا الخالق المبدع المدبر سبحانه . . !

«وترىٰ الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج»(٢٣) .

إنك ترىٰ الأرض خامدة كأنها ميتة ولكن عندما ينزل الله تعالىٰ عليها الماء من السحاب مطراً أو من الأنهار سقياً تهتز بالحياة فتربو وتنبت من أصناف الزروع أزواجاً بهيجة . . !

الحياة تنهض من الخمود فتجيش بقطرات وتتشقق التربة فإذا بحبات في أحشائها تمد اعناقاً إلىٰ فوق هي نبات بهيج المنظر بهيج العطاء بهيج الإفادة . . !

أمر تراه بعينيك فماذا يعني . . ! ؟

أهو خالٍ من الدلالة . . ! ؟

ألا يقف وراءه فاعل . . ! ؟

ومن هو . . ! ؟

«ومن آياته أنك ترىٰ الأرض خاشعة(٢٤) فإذا أنزلنا عليها

---

(٢٣)ـ الآية ٥ سورة الحج .

(٢٤)ـ يابسة متطامنة .

المـاء اهتـزت وربت إن الذي احياها لمحيي الموتىٰ إنه علىٰ كل شيء قدير»[٢٥] .

هذا هو الجواب . . ! !

الليل والنهار آيتان

إذا غفـل الإنسـان أوقـع نفسـه في شرعمىٰ رغم كونه صاحي العقل مفتح العينـين ، وثمـة آيـات كونيـة كبرىٰ تتكـرركل يوم تحطيـماً لتلك الغفلة عل من فاتـه التيقظ مرة في الأمس يمكنه الإلتفات إليها مرات في اليوم والغد .

الآيـات الكـبرىٰ المبثوثة في الكون لايحصيها عد والزمن الذي يحتويها ليس بالقصـير ، إنـه طويـل ولا تفنىٰ جدته ، فمن لم ينتبهلتلك تيقظ لهذه ومن لم يع دلالة هنا تفهم سواها هناك ومن لم يستوعب آية الآن أتيح له أن يحيط علما بمثيلات فيما بعد .

ومن هذه الأيات المتكـررة التي يمتـد بها الزمن وعلىٰ طول الحياة هما الليل والنهار ، بهما يجد التائه معالم للطريق الرباني وبهما يجد المؤمن نعماً تريه مدىٰ فضل ربه .

«وجعلنـا الليـل والنهـار آيتـين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحسـاب وكـل شيء فصلنـاه تفصيـلاً»[٢٦] «ومن آيـاته منـامكم بالليـل والنهـار وابتغـاؤكم من فضله إن في ذلـك لآيات لقوم يسمعون»[٢٧]

---

(٢٥) ـ الآيـة ٣٩ سـورة فصلت .

(٢٦) ـ الآيـة ١٢ سـورة الإسراء .

(٢٧) ـ الآيـة ٢٣ سـورة الروم .

والليـل والنهـار من دعـائم الإستقرار المهمة في الأرض فلولا ليل يعقبه نهار ولكل منهما وقت محدد لوظائفه لانهارت الحياة التي يستمتع بها كل أحياء الكوكب منذ وقت بعيد لا محالة .

وانضبـاط الليـل والنهـار لم يأت عبثـاً أو صدفة فلولا التعاقب المنتظم لكان زمهـريـر الليـل مميتـاً للأحيـاء بعـد حين وكذلك حرارة النهار كانت ستذوي زروعنا وتضايق البشر والحيوان وتشعل الحرائق في كل قابل للتوقد . . !

«ألم تر إلىٰ ربـك كيف مد الظـل ولـو شاء لجعله ساكناً ثم جعل الشمس عليه دليلاً»(٢٨) .

«قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلىٰ يوم القيامة من إلـه غير الله يأتيكم بضيـاء أفلا تسمعون . . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلىٰ يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليـل تسكنـون فيه أفلا تبصرون . . ومن رحمته أن جعـل لكم الليـل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»(٢٩) .

والليـل علىٰ ما فيـه من ظلام داكن كثيف أحيـاناً كم يرىٰ الناس بين دفتيه من آيات فيها العجائب . . ففيه القمر يبزغ والكواكب تتلألأ والنجوم تلتمع والحرارة تنخفض والإنسان يرقد والحواس تهدأ والأوكار تزدحم ، وهكذا إلخ . . !

وفي النهـار كذلـك كم يرىٰ النـاس بين دفتيـه من آيـات عجيبـة أيضـاً . . الشمس تشرق فتزيح الظلام وتنير قبة السماء وتضيء صفحة الأرض ويتحرك مجدداً مع أشعـة الـدفء والضـوء نشـاط الأحيـاء من بشـر وحيوان وزروع ، وتبدأ الحرارة بالإرتفاع إلىٰ القدر اللازم المناسب للجميع ، وتهب الأحياء بعد سكون للتفاعل مع الحياة في نهار جديد ، وهكذا إلخ . . !

---

(٢٨) ـ الآيـة ٤٥ سـورة الفرقان .

(٢٩) ـ الآيات ٧١ ـ ٧٣ سـورة القصص .

ياله من قصد يلوح واضحاً أمام البصر . . !

وياله من إحكام يبدو جلياً عند المعرفة . . !

وياله من تدبير يتراءىٰ معجزاً إزاء القدرات . . !

وياله من إبداع يتمثل فريداً لدىٰ التأمل . . !

وذلك كله يشير إلىٰ الخالق عز وجل أحسن إشارة . . !

وهو كله يظهر طرفاً من رحمة الرحمان الرحيم بالناس وفضله عليهم . . !

الليل والنهار آيتان تنظرهما العين وتطالعهما سائر الحواس فتستوقفان العقل وتناجيان القلب كل يوم من العمر ، فمن لم يلتقط دلالاتهما ولم يستجب لإيحاءاتهما أي خطأ يقترف ولأي عقوبة يتعرض . . ! ؟

ولا جرم يتجرع هذا العابث مر الحسرات في الآخرة حيث لا يجدي الندم لأنه لم ينتفع في دنياه بنظر عين وإدراك حواس ووعي عقل وصحوة قلب . . !

«ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل»[٣٠] . . ! ؟

وفي أنفسكم أفلا تبصرون . . ! ؟

أفلا ينظر المرء إلىٰ نفسه . . ! ؟

كيف استوىٰ تكوينه الجسمي . . ! ؟

وكيف تحصل تكوينه النفسي . . ! ؟

وكيف تنامىٰ تكوينه العقلي . . ! ؟

وكيف تهيأ تكوينه الإجتماعي . . ! ؟

ولينظر إلىٰ رأسه حيث كل شيء قد وضع في مكانه المناسب واللائق تحرياً للقصد والجمال ، فالأذنان قد وضعا حيث يجدر بهما فلم يوضعا علىٰ الصدر أو

---

(٣٠) ـ الآية ٢٩ سورة لقمان .

القـدمـين ، والعينـان قد وضعـا حيث ينبغي فلم يوضعـا على الفخـذين أو الظهر ، والأنف قد وضع في أنسب مكان فلم يوضع على الكتف أو اليد ، والفم قد وضع في أليق محل فلم يوضع فوق الرأس أو عند السرة . . !

ولينظر هكذا إلى كل عضو في جسمه وليتساءل لم هو في هذا الموضع ولم غيره هناك . . ! ؟ ولأي دلالة وغرض يقوم عضو بمهام معينة ويؤدي سواه وظائف مغايرة . . ! ؟

والتكوين النفسي يمكن إبصاره من الداخل وكذلك التكوين العقلي ، أما التكوين الإجتماعي فيمكن مراقبته من الداخل والخارج ، والأمر المهم في نظر الإنسان إلى كيانه من الداخل هو أن يلاحظ النسج الهادف كيف يتم ويتمخض بعد فترة عن تكـوين له إطـار خاص ودلالات مفهـومـة ويكـرس لأداء وظـائف معينـة غالباً ما يتم أداؤها بشكل تلقائي . . . !

«وفي أنفسكم أفلا تبصرون»(٣١) . . ! ؟

ثم **«فلينظـــر الإنســـان مم خلق . . خلق من ماء دافق . . يخرج من بين الصلب والترائب»**(٣٢) .

وليقف المرء نظـره طويـلاً عنـد مسألـة خلق الإنسـان لأنها تهز الكيان كله وتختصـر الـوقت الطـويل وصولاً إلى المعرفة الوثقى بالخالق عز وجل وأنها عند التعامل معهـا بمقتضى حسن النظـر وعمق التفكـير وسـلامة الإستنتاج تربط المخلوق أخيراً بأقوى الأواصر مع الخالق جل جلاله . . . !

أمـا إن كابـر الإنسـان متعامياً عن هذه الحقائق الكبرى فليتأمل جيداً قوله تعالى **«أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين»**(٣٣) .

---

(٣١) ـ الآيـة ٢١ سـورة الذاريات .

(٣٢) ـ الآيات ٥ ـ ٧ سـورة الطارق .

(٣٣) ـ الآيـة ٧٧ سـورة يس .

قليلاً من الحياء . . !
تخاصم من أيها الإنسان . . ! ؟
أولم تر أنه خلقك من نطفة . . ! ؟

آيات لقوم يؤمنون

كم نرىٰ في كوكبنا من أصناف الحيوان موزعة في كل المناطق أحسن توزيع بما يتلاءم مع البيئة ويخدم متطلبات الحياة فيها . . ! ؟ لو دأب كل علماء الأرض الأولين منهم والآخرين بما لديهم من قوىٰ وإمكانات لما قدر لهم أن يوزعوا حيوانات الأرض ذلك التوزيع الملموس الدقيق الحكيم الجميل الضروري المثير لإعجاب أولي الألباب . . !

ولو قدر لهم حسن توزيعها ـ مجرد افتراض ـ فكيف يتأتىٰ لهم جعل هذه الحيوانات ترضخ لخططهم ولا تفارق الرقعة التي يراد أن تعيش فيها . . ! ؟ ولو افترضنا كذلك أنهم جعلوها ترضخ لخططهم في ملازمة المكان فمن ذا الذي يضمن لكل صنف من هذه الحيوانات غذاءه المناسب الكافي في البقعة التي يعيش فيها طوال الحياة وبلا تكلف . . ! ؟

هل قادتنا ملاحظة الحيوانات إلىٰ التفكر في الخلق . . ! ؟

هل تحرينا الآيات المتمثلة في كل الحيوانات واستوعبناها إن كنا نروم الإيمان بحقائق الوجود الكبرىٰ . . ! ؟

تأمل :

«ألم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون»[٣٤] «والأنعام

---

(٣٤) ـ الآيات ٧١ ـ ٧٣ سورة يس .

خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . . وتحمل أثقالكم إلىٰ بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم»[٣٥] «وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلىٰ حين»[٣٦] .

لا شك أننا نرىٰ الأنعام التي يوردها القرآن الكريم ضمن ماخصه بالذكر من الحيوانات لأنها قريبة من أنظارنا لصيقة بحياتنا ، ولكن هل حركت إيماناً في قلوبنا ونحن نتملكها ونحن نجدها سهلة القياد ونحن نستمتع بركوبها ونحن ننتفع بأكلها ونحن نتناول ألبانها ونحن نلتمس فيها الدفء ونحن نبتهج بجمالها ونحن نصنع من جلودها بيوتاً ونحن نتخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً ونحن نحملها أثقالنا إلىٰ بلد لم نكن لنبلغه بدونها إلا بتعب ومشقة ونحن ننعم بأي من منافعها . . !؟

«أفلا يشكرون» . . ! ؟ ألم نتحر خالق هذه الأنعام وما نحنا من خلالها كل تلك المنافع لنؤدي إليه فروض الشكر . . ! ؟ أم إنها منافع وجدت عبثاً ودون قصد وليس وراءها خالق حكيم رحيم منعم . . ! ؟

«والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة»[٣٧] .

وهذه الأصناف كتلك قريبة من أنظارنا لصيقة بحياتنا ، فهل ذكرنا النظر إليها بالخالق المنعم المفضل . . ! ؟

---

(٣٥) ـ الآيات ٥ ـ ٧ سورة النحل .
(٣٦) ـ الآية ٨٠ سورة النحل .
(٣٧) ـ الآية ٨ سورة النحل .

وعنـــدمـــا يرفـــع النـــاس أبصـــارهم إلىٰ فوق «**ألم يروا إلىٰ الطــير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**»(٣٨) .

كيف سخرت في جو السماء . . ! ؟

ومن اعطاها مستلزمات التحليق والطيران والهبوط . . ! ؟

وهي كتلك الاصنـاف منهـا لحم وزينـة وتـؤدي وظائف في البيئة لا تقتصر فائدتها علىٰ البشر وإنما تتعداهم إلىٰ الحيوان عموماً والزروع والجماد أيضاً ، أما رأيت طائراً يفتك بآخر عليل ابقاء للنوع الأصلح وينهش لحم حيوان قد مات مخلصاً المكان من روائحه الكريهة . . ! ؟ أما رأيت قسماً يتغذىٰ بأنواع طائرة أصغر منه حجماً كأنه سيف مسلط علىٰ العدد المتفاقم منها . . ! ؟ وثمة قسم ينقض علىٰ الأسماك وقسم يعيش علىٰ الزواحف وقسم يقتات علىٰ الحشرات وقسم يلتقط الحب ويقضم الحشائش . . !

وهـل رأيت كيف أنهـا تقوم بعمليات تلقيح الأشجار . . ! ؟ وهل راقبت ماتفعله فضلاتها بالتربة من تسميد لتكون أكثر خصوبة وأحسن عطاء . . ! ؟(٣٩) .

وبالإضافة إلىٰ ذلك فهي زينة وجمال ومتاع حيثما وقع عليها نظر الإنسان . . !

انظروا إلىٰ ثمر الزروع

والثمـر ليس شيئـاً غير ذي أهميـة في حيـاتنـا ، إنـه جزء أسـاس من طعام الإنسان وفيه الكثير من دواعي النظر «**أفرأيتم ما تحرثون . . أأنتم تزرعونه**

---

(٣٨) ـ الآيـة ٧٩ سـورة النحل .

(٣٩) ـ فضـلات الخفـاش مثلاً يحرص كثيرون وسط العراق علىٰ استعمالها في تسميد التربة لأنها أقوىٰ فاعلية .

أم نحن الزارعون»(٤٠) .

هل نحن ـ البشر ـ خلقناه . . ! ؟

وهل نحن نتحكم في أصنافه وكميته . . ! ؟

وهل نحن نختار لكل صنف خصائصه ونحدد منه القدر الكافي لإحتياجاتنا . . !؟ !

أم نحن سبب بسيط ندس الحب في التراب ونمضي فإذا بفالق الحب والنوىٰ يضع في البذرة لوازم الإنبات والقدرة علىٰ التفاعل مع الماء الذي ينزله هومن السماء والإستفادة من أشعة الشمس التي تشرق وتغرب بإذنه هو والتكيف مع طبيعة الجو والبيئة التي تتحدد أوضاعها بتدخل منه هو أيضاً . . ! ؟

«وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكماً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلىٰ ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون»(٤١) .

تبارك الله العظيم هو أنزل الماء بعد أن تصاعد بقدرته بخاراً وتجمع سحاباً وساقته الرياح غيوماً تمطر حيث الزروع العطشىٰ . . !

وهو أخرج بماء واحد نبات كل شيء إطلاقاً ، فالحلو ارتوىٰ منه والحامض والمز(٤٢) والمر وكل ذي ثمر علىٰ اختلافه وكل نبات عديم الثمر مما تأكله السوائم وسائر الحيوانات . . !

فأخرج منه نباتاً أخضر غضاً والحب المتراكم كسنابل الحنطة وطلع النخل وهو أول ما يبدو من ثمرها قنوان وهي عذوق وعراجين كالعناقيد قريبة من متناول اليد

---

(٤٠) ـ الآيتان ٦٣ و ٦٤ سورة الواقعة .

(٤١) ـ الآية ٩٩ سورة الأنعام .

(٤٢) ـ بين الحامض والحلو .

وليس النخل وحده خص بالذكر بعد قوله تعالىٰ «**نبات كل شيء**» وإنما هناك أيضاً جنات من اعناب والزيتون والرمان بكل أنواعها لأنها شهية أكثر من غيرها وتحوي عناصر غذائية أوفر وأغنىٰ ويتداولها الإنسان بكثرة نسبياً في الغالب .

فلينظر الإنسان الآكل إلىٰ ثمره إذا أثمر وينعه لأن إجالة النظر هناك تريه عظائم في الخلق والإبداع والتدبير وتملأ قلبه إيماناً إن أراد فعلاً تحري آثار الخالق عز وجل ، أما إن تلهىٰ وغفل عن التماس العقيدة المثلىٰ والتعرف المستفيض علىٰ فاطر السماوات والأرض فإنه سيمر علىٰ ما يراه من آيات بينات مرور السوائم وقد يتفوق عليها في ضلاله بأن يسخر ممن يؤمن بتلك الآيات البينات كأن يقول (أهذه الظواهر العادية تدعو المرء إلىٰ أن يتخذ عقيدة ويزعم أنها محور الكون . . ! ؟) . . ! !

أفرأيتم الماء . . ؟

«أفرأيتم الماء الذي تشربون» . . ! ؟(٤٣) .

ومن ذا الذي لا يحس بأهمية الماء وهو قوام كل الأحياء فوق كوكبنا . . ! ؟

«وجعلنا من الماء كلِ شيء حي»(٤٤) .

يجد فيه الإنسان ـ مثلاً ـ الشراب والطعام والمغتسل وإمكان العمل والصناعة والإعمار . . ! إن افتقاده وقتاً غير طويل لمن شأنه أن يثقل علىٰ أحاسيس الإنسان ويضغط ويزيده إرهاقاً بالمعاناة . . !

نحن نراه بلا شك . . !

ولكن أي رؤية . . ! ؟

أتوازي أهميته تلك . . ! ؟

أجعلتنا نفكر بمن خلق الماء واعطاه ألذ وأنفع الخواص . . ! ؟

---

(٤٣) ـ الآية ٦٨ سورة الواقعة .

(٤٤) ـ الآية ٣٠ سورة الأنبياء .

أم نعب بلا تفكير وكأن أعيننا لم تقع على ذي بال . . ! ؟

وإذا كان حس الإنسان غليظاً إلى حد أن لا يعير الماء أي نظرة تبصر فها هو ذا خالقه يسأل وكأنه يهز اعماق الصخور «**أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون**»[45] . . ! ؟

انظـروا إلى السحب وفكـروا «**أو لم يروا أنـا نسـوق المـاء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه انعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون**»[46] . . ! ؟ ألا تهتز أبصاركم لهذا التسلسل الخارق العجيب . . ! ؟

ماء تبخر بفعل الحرارة فتكونت منه الغيوم وأخذت الرياح تسوقها بإذن الله تعـالى نحـو الأراضي اليـابسة فخرج بالمطر زرع تأكل منه الأنعام وهي العماد الرئيس لقوتهم ويأكلون منه هم أيضاً أطايب الطعام . . ![47] .

ولما كان الماء بتلك الأهمية فتصوروا «**لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون**»[48] .

المنعم إذا لم يشكـر فبمقـدوره أن يحيـل النعمـة ذلك الماء الحلو العذب إلى نقمة هي الماء المالح المر ، وإذا كان الماء قد تكون تلقائياً كما يظن البعض فلم لم يتحول بفعـل العشـوائيـة إلى ماء شديـد الملوحـة والمرارة طوال آلاف السنين الماضية فيموت البشر جميعاً ومعهم الكثير من أحياء الأرض . . ! ؟

---

(٤٥) - الآيـة ٦٩ سـورة الواقعة .

(٤٦) - الآيـة ٢٧ سـورة السـجدة .

(٤٧) - يلاحظ في الآية تقديم متعمد للأنعام على أنفس الذين لا ينظرون الى الماء ببصيرة . . !

إشارة يفهم منها أنهم أضل من انعامهم . . !

(٤٨) - الآيـة ٧٠ سـورة الواقعة .

«ومـا يستـوي البحـران[٤٩] هذا عذب فرات سائغ شرابه وهـذا ملح أجـاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حليـة تلبسـونهـا وتـرى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»[٥٠] .

لا مكان للعشوائية في هذا الكون فالماء الحلو العذب متوفر بكثرة في الأنهار والعيون والآبار بما يكفي لسد احتياج البشر والحيوان والزروع والبيئة عموماً وهو موزع خير توزيع على اليابسة قريباً من المتناول ، أما الشديد الملوحة والمرارة وهو ماء البحر فمـوزع كذلـك خير توزيـع فوق الكـوكب وكـونـه أجـاجـاً إن لم ينفع البشر والحيوان والـزروع على الـبر شربـاً بغـير عمليـات تحليـة فهو قوام الحياة في عوالم البحار المليئة بالأحيـاء التي تعتـبر قسطـاً من طعـام الإنسـان كالأسـماك وقسطـاً من حليـه كاللؤلؤ المستخرج من أجسام القواقع وقسطاً من أثاثه كالإسفنج وغيرها ، فهذه الأحياء كلها قد وجدت أصلح بيئة لها وسط الملح المذاب في ماء البحر مشوباً بمرارة . . !

إن الأحيـاء البحـريـة ليست (سيئـة الحظ) لأنها تعيش في عالم طعمه مالح مر . . ! وإنـما هي خلقت لتعيش في عالم كهـذا بالضبـط . . ! وهي وإيـاه وجـدا للقيـام بدور واضـح وكبـير في حيـاة الإنسان على الأرض ، ولك أن تتخيل ماذا كان يحصل لهذا الدور المهم لو لا مشيئة الخالق بجعل ملوحة في ماء البحر ومرارة . . ![٥١] .

ثم «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين»[٥٢] .

وتصـوروا يامن لا يستـدعي المـاء نظرة التفكير لديكم لو أن زاد الحياة هذا

---

(٤٩) ـ ماء النهر وماء البحر .

(٥٠) ـ الآيـة ١٢ سـورة فاطر .

(٥١) ـ لمعرفة أهم خصائص الماء وعجائبها ينظر موضوع (الماء يروي لك القصة) للدكتور توماس دافيد باركسن في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ص ٤٢ .

(٥٢) ـ الآيـة ٣٠ سـورة الملك .

غار في اعماق الأرض وطلبتموه فلم تستطيعوا له نوالاً من يأتيكم بماء جار تناله الأيدي والدلاء بيسر . . ! ؟

اسألوا أنفسكم مثل هذا السؤال وأنتم تنظرون بإنصاف إلىٰ ما بين أيديكم من حقائق أنتم عنها غافلون كالماء مثلاً . . ! ! -

أفرأيتم النار . . ؟

«أفرأيتم النار التي تورون»(٥٣) . . ! ؟

ومن ذا الذي لا يحس بالنار وعليها ينضج الطعام وبها يستدفئ المقرورون وبشرارتها تدور عجلة السعي والعمران في مناكب الأرض المختلفة . . ! ؟

وإذا كنت ترىٰ النار فتحس بأهميتها يفترض أن تتفكر بمن اعطاها خاصية الإحراق وجعل في متناول أيدينا مواد كثيرة من عدة أنواع قابلة للإشتعال بالنار . . !

«أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئو ن»(٥٤) . . ! ؟

إذا توفرت للإنسان شرارة النار ووقودها بيسر فلا يعني ذلك آنه قادر علىٰ التحكم بخاصية الحرق فهذا أمر خارج إرادته وفوق اقتداره ، ولا يعني أيضاً أنه قادر علىٰ إعطاء الخشب أو النفط أو الفحم أو أي مادة أخرىٰ قابلية الإشتعال . . إن خاصية الحرق في النار وقابلية الإشتعال في الوقود أمران لا نستطيع أن نتدخل في صميمها لأن الخالق المنعم عز وجل قد جعلها في نطاق اختصاصه هو فقط . . !

ومن أراد أن يجرب عساه أن يغير خصائص النار ووقودها كلية كأن يجعل الهواء مثلاً بتكوينه الصالح للإستنشاق ذا خاصية حرق بدل النار ويجعل الماء بتكوينه الصالح للشرب ذا قابلية اشتعال عوض الوقود فليحاول عله يؤمن بالله تعالىٰ ويزداد يقيناً . . !

---

(٥٣) - الآية ٧١ سورة الواقعة .

(٥٤) - الآية ٧٢ سورة الواقعة .

«نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين»(٥٥) .

الله جل شأنه هو خالق النار والمتحكم بها ، وعندما جعل في النار نفعاً للمسافرين طوال طريقهم بها ينضجون طعامهم وعلىٰ حرارتها يستدفئون وبشعلتها تحملهم الطائرات والبواخر والسيارات جعل في النار أيضاً تذكرة بنار الآخرة للمسافرين في رحلة الدنيا إلىٰ تلك الدار الخالدة . . !

نار تعين الناس علىٰ اعباء السفر في اصقاع الأرض المختلفة وهي إياها تذكرهم بنار الآخرة في رحلتهم إليها عبر الحياة الدنيا ، فحري بالناظر العاقل أن يفيد منها في كلا السفرين ، بل ليكن أحرص علىٰ الإفادة منها في السفر الأطول ابتغاء حسن العاقبة والمنقلب . . !

ويالها من مذكر بالآخرة . . !

علمت أن رجلاً من أهل الصلاح كان يبيت في داره وحيداً فطرقت عليه الباب امرأة في ليل مطير تبحث عن أي ملجأ مضطرة ففتح لها ولم يستطع ردها شفقة عليها من شدة البرد وقسوة الإضطرار ثم طلب منها أن تنعزل في غرفة لا تبرحها حتىٰ الصباح وهو نأىٰ عنها بغرفة أخرىٰ اجتناباً للإنفراد بها .

وفيما وضع رأسه لينام بدأت وساوس الشيطان كالسيل الجارف يحثه اللعين فيها أن ينال وطراً من المرأة التي تقاسمه الدار ويغريه علىٰ هذا الفعل القبيح بلا تردد ، ولما كان الرجل صالحاً قد زين الله تعالىٰ قلبه بالإيمان وكره إليه الفسوق والعصيان تذكر أنه إنما أدخل المرأة وآواها ابتغاء حسن الصنيع عند ربه لا لشيء آخر كيف إذن يفجر ويعبث والله تعالىٰ يراقبه جيداً وسط هذا الظلام والجو الخالي من حركة الرقباء . . ! ؟

وهنا أوقد شمعة وراح يقرب إليها أصابعه مخوفاً نفسه من عذاب الحريق يوم القيامة بنار هي أشد وأدهىٰ لا يقبل فيها عذر ولا يمكن الفرار منها وهو يقول : إيه

---

(٥٥) ـ الآية ٧٣ سورة الواقعة .

يانفس ، ألا تصبرين على نار شمعة في الدنيا . . ! ؟ كيف تحملينني إذن على معاناة نار جهنم . . ! ؟

ولقد نفعته فعلاً تذكرة النار . . !

* * *

هكذا يريد المنهج القرآني من المرء أن ينظر ثم يتخذ العقيدة المثلى ، فهل عرف الوجود منهجاً سواه يستخدم النظر في التماس المعتقد كهذا الاستخدام . . ! ؟ وهل من آفاق أوسع وأرحب في الوجود من تلك الآفاق الربانية يرتادها نظر الإنسان . . ! ؟ وهل ثمة سواها مجالات للنظر المتقصي الباحث أكثر دلالات وأهدى طريقة . . ! ؟ وهل من عقيدة في كوكبنا سوى التوحيد الإلهي تعيش في وفاق مع الكون وظواهره يربطهما الإنسجام والتآلف والتعاضد والتكامل والأهداف المشتركة . . ! ؟

التصرف بالحصائل المستخلصة

وزن الحصيلة

بعد أن يستخدم الإنسان أجهزة التحصيل العلمي من سمع وعيان وعقل وقلب كما ينبغي ، وبعد أن يوظف إمكانات التلقي والاستيعاب كحسن الفهم وجودة التفكير وعمق التدبر بشكل جاد ونزيه وبعد التعامل مع المحسوس بإحالة النظر العلمي بإمعان في هذا الكون . . ما الخطوة الأخرىٰ اللاحقة في طريق المنهج الأمثل للاعتقاد . . ؟

إنها القيام بوزن الحصيلة التي تجمعت عبر تلك الخطوات المنهجية . . فما يعني وزن الحصيلة . . ؟

إنه التمحيص الدقيق النهائي للعقيدة إزاء الشبهات التي تثور وتثار حولها حتىٰ يمكننا تحديد قيمة المعتقد والموقف المطلوب تجاهه . . !

وما دمنا قد اتخذنا القرآن الكريم نموذجاً في بحثنا كله لالتماس العقيدة المثلىٰ وفق منهجه الرائع كما مر بنا فسنتناول هنا كذلك الآيات القرآنية التي تمحص الحصيلة وتزنها بالقسطاس المستقيم .

دحض الشبهات

يقول تعالىٰ «**وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون . . تنزيل من رب العالمين**»(١) .

كيف يسوغ اعتبار القرآن قول شاعر . . ! ؟

هل إن محمداً ـ ﷺ ـ عرف بقول الشعر طوال الأربعين عاماً من حياته قبل أن يتنزل عليه القرآن . . ! ؟ لو عرف بقرض الشعر لكان صيته الأدبي قد عم الآفاق منذ وقت مبكر لا سيما في بيئة تتذوق الشعر ويعيش فيها الشاعر مزهواً بأنفس بضاعة يمتلكها إنسان في الجزيرة آنذاك . . !

وهذا الإتهام لا يسوغ أيضاً لأن العالم منذ الإنسان الأول وإلىٰ الآن لم يشهد أن شاعراً جاء بمنهج اعتقادي للناس كافة ينظم كل حياتهم ويحيط بالدنيا والآخرة ويتحدث عن الوجود بلغة الإقتدار الكامل كقوله تعالىٰ :

«**يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير**»(٢) .

و «**وما تحمل من أنثىٰ ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك علىٰ الله يسير**»(٣) .

---

(١) ـ الآيات ٤١ ـ ٤٣ سورة الحاقة .

(٢) ـ الآية ٤ سورة الحديد .

(٣) ـ الآية ١١ سورة فاطر .

و «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده»(٤) . . ! ؟

أهذا قول شاعر . . ! ؟

أين ذهبت عقول المفترين . . ! ؟

وما هو بقول كاهن . . ! ؟

فكلام الكهنة معروف لدىٰ الناس ، ولم يشهد التاريخ قط أن كاهناً أمكنه وضع منهج اعتقادي يتناول الوجود كله ويعمر قروناً عديدة متعاضداً مع مستجدات العلوم وكشوفاتها اليقينية فيتزايد أتباعه علىٰ الدوام . . !

إن افتراء كهذا وذاك قد دحضه المشركون أنفسهم في أوائل البعثة عندما تنادىٰ كبارهم إلىٰ توحيد الموقف تجاه الدين الجديد ، كيف . . ؟

يروي ابن اسحاق في السيرة :

(إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم . . فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً ، فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به . . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . . قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . . قالوا : فنقول مجنون . . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . . قالوا : فنقول شاعر . . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . . قالوا : فنقول ساحر . . قال ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس . . ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة (٥) وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ،

---

(٤) ـ الآية ٤١ سورة فاطر .

(٥) ـ العذق : الكثير الشعب والأطراف . . والجناة : ما فيه ثمر يجنىٰ .

وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته . . فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس - حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره)[٦] .

ويروي ابن اسحاق أيضاً قال :

(حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله - ﷺ - جالس في المسجد وحده : يامعشر قريش ألا أقوم إلىٰ محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا . . ؟ فقالوا : يا أبا الوليد قم إليه فكلمه . . فقام إليه عتبة حتىٰ جلس إلىٰ رسول الله - ﷺ - فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث علمت من السلطة[٧] في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضىٰ من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . . فقال له رسول الله - ﷺ - : «قل يا أبا الوليد أسمع» . . قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثر مالاً وان كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتىٰ لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتىٰ نبرئك منه . . حتىٰ إذا فرغ عتبة ورسول الله - ﷺ - يستمع منه قال : «أقد فرغت يا أبا الوليد ؟» قال : نعم . . قال : «فاستمع مني» . . قال : أفعل . . فقال

«بسم الله الرحمن الرحيم . . حم . . تنزيل من الرحمن الرحيم . . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . . وقالوا قلوبنا في أكنة

---

(٦) - تنظر (السيرة النبوية) لابن هشام ص ٢٧٠ .

(٧) - أي المنزلة الرفيعة المهيبة .

مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . . . .» ومضىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ في سورة فصلت يقرؤها وعتبة ينصت لها وقد ألقىٰ يديه خلف ظهره معتمداً عليها ، ثم قال له الرسول : «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك» . . فقام عتبة إلىٰ أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد . . ؟ قال : ورائي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر علىٰ العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . . قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم . .)[٨] .

وفي اجتماع حضره زعماء قريش البارزون قال النضر بن الحارث :

(يامعشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة ، حتىٰ إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم مجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم . .)[٩] .

---

(٨) ـ تنظر (السيرة النبوية) لابن هشام ص ٢٩٣ .

(٩) ـ المصدر نفسه ص ٢٩٩ .

إنه تنزيل من رب العالمين . . !
رب هذا الوجود كله هو وحده القادر فعلاً علىٰ التحدث بلغة القرآن وعلىٰ اعطـاء الضـمان ببقاء مصداقية الكلام المحصور بين دفتيه تتعاظم علىٰ مر الزمان إلىٰ يوم القيامة . . !

ماكان حديثاً يفترىٰ

يقـول تعـالىٰ «مـا كان حديثـاً يفترىٰ ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون»(١٠) .

قد يفتري الإنسـان أشياء كثيرة ، ولكن أي مخلوق بمقدروه افتراء كل ما جاء به القرآن الكريم . . ! ؟ أنظام شامل محكم خالد يفترىٰ وينسبه الإنسان لقدرة تقف وراء الغيب علىٰ أنه كلامها . . ! ؟ ولم لا ينسبه إلىٰ نفسه حائزاً المجد كله أبداً . . ! ؟

كلام كالقـرآن لا يفـترىٰ قطعـاً ، ومن أراد أن يجرب فليحاول منذ أول يوم لنزوله وإلىٰ قيام الساعة وليضم معه كل البشر ليكونوا بعقل واحد فهل يا ترىٰ يؤلفون منهج حياة بتناول الوجود كله ويحظىٰ مؤلفهم هذا بعشر معشار رصانة القرآن وجلاله وتمسك الناس به . . ! ؟

وتـدليـلاً علىٰ قدرة لا تتأتىٰ لمخلوق مهـما بلغت امكـانـاتـه تحدث القـرآن الكريم عن أنباء وقعت قبل نزوله بآلاف السنين بلغة الشاهد المحيط بتفاصيلها فأنىٰ لبشر القدرة علىٰ غيب كهذا . . ! ؟

ولم يكن ماقصـه القـرآن الكريم من أنباء الغيب غير معروف الدلالة حيث جاء تصديقاً للتوراة والإنجيل رغم أن مبلغ القرآن - ﷺ - رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يعرف عنه الإتصال بالأحبار والكهان . . !

---

(١٠) - الآيـة ١١١ سـورة يوسف .

وليس هذا وحده مصداق نسبة القرآن إلى الله تعالى وإنما هناك كون هذا الكتاب الكريم متضمناً «تفصيل كل شيء» فهو اختصاص ما ادعاه أحد سوى عالم الغيب والشهادة إلا وصم بعار الكذب الشنيع . . !

وهناك ميزات أخرى تقطع أيضاً باعتبار القرآن كلام الخالق عز وجل وحده ، فهو كتاب هدى لقوم ينشدون الإيمان فعلاً ، وما أكثر الناس الذين اهتدوا بآياته وما زالوا ، وما أطول التاريخ الذي سجل الاعتداد بهذا الهدى وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . !

ثم إنه كتاب رحمة لقوم ينشدون الإيمان فعلاً ، ويا لها من رحمة تخلصهم من الضلال والشرور والآثام والضياع . . ! ويا لها من رحمة تمنحهم الهدى ووضوح السبيل وجلاء البصيرة وتدلهم على الطيبات وأفعال الخير والصلاح والفضل وتكسبهم الأجور الحسنة ادخاراً ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . . !

رحمة لا يعرف قدرها إلا من استظل بأفيائها وذاق طعمها ووجد حلاوتها ، ومع ذلك فهو مهما حاول وصفها لغيره لا يبلغ في هذا الوصف إلا المقدار الضئيل من حقها . . !

أنزله العليم بأسرار الكون

يقول تعالى **«قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض»**[11] .

وكيف لا يكون هذا الكتاب العظيم معجزاً يغني كل البشر طوال حياتهم على الأرض ما دام منزلا من الله عالم الغيب والشهادة . . !؟

ويا له من علم ذلك هو حيازة «السر في السموات والأرض» . . !

---

(١١) - الآية ٦ سورة الفرقان .

وكم في السماوات من أسرار . . ! ؟

بل كم في الأرض التي يعيش عليها البشر منذ آلاف السنين من أسرار . . ! ؟

فمن الطبيعي أن لا يستأثر بمعرفة الأسرار كلها أحد سوىٰ الخالق جل جلالهُ الذي ابدع كل شيء ويقوم بتدبير كل شيء منذ الأزل وإلىٰ ما يشاء سبحانه وتعالىٰ . . !

لا يأتيه الباطل

يقول تعالىٰ «**وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**»(١٢) .

وأي كتاب في الدنيا أعز من القرآن وقد تعهد منزله سبحانه بأن يبقيه مصاناً «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**»(١٣) . . ! ؟

كتاب لا يغير حرف واحد منه ولا يحذف ولا يزاد منذ نزوله وإلىٰ آخر إنسان يقرؤه في هذه الدنيا . . فأي عز هذا . . ! ؟

وظل يستهوي قلوب ذوي العلم والنباهة والعقل من الناس أطول فترة في تاريخ الأرض . . فأي عز هذا . . ؟

ويعد المرء الإيمان به أغلىٰ ما يملك في الحياة مضحياً بكل شيء لأجله ولو كانت الروح التي بين جنبيه . . فأي عز هذا . . ! ؟

أمثل هذا الكتاب يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه وقد حماه الملك الحق جل وعلا تلك الحماية المعلنة بكل التحدي وأودع فيه ذلك العز الأثيل . . ! ؟

---

(١٢) - الآية ٤٢ سورة فصلت .

(١٣) - الآية ٩ سورة الحجر .

خلق الله تعالىٰ السموات والأرض والكون كله بالحق وهو منشىء الحق والداعي إليه ورب الملتزمين بالحق كيف يعقل أن يسمح للباطل أن ينال من كتابه الذي لو أنزله علىٰ جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله لا سيما بعد أن تعهد هو بحفظه . . ! ؟

أيجوز هذا . . ! ؟

إنه كتاب الحكيم الحميد . . قد جمع فيه تبارك وتعالىٰ الحكمة من كل أطرافها رحمة للعالمين فاستحق بذلك الحمد كله وإن لم يحمده مخلوق جاهل غير منصف فهو جل ثناؤه المجمود بذاته . . !

فأي باطل يأتيه بعد . . ! ؟ بل إن الباطل كله ليتهافت أمام هذا الكتاب العزيز الحق كالغبار تذروه الرياح في يوم عاصف . . ! وما أكثر ما رأىٰ البشر علىٰ هذا الطريق ويرون . . !

كتاب أحكمت آياته

يقول تعالىٰ «**كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**»(١٤) .

كتاب محكم الآيات . . ويا له من إحكام لأن وراءه الحكيم الخبير . . !

آيات يقرؤها العربي العتيد اللسانَ فصاحة وبياناً فيتهالكه العجب من روعة المبنىٰ وجزالة اللفظ ودقة المعنىٰ وسمو الغرض وحسن التأتي وسوق الدليل وقوة التأثير وعمق الإقتناع . . !

الكلام مفصل علىٰ قد المعنىٰ بلا زيادة أو نقص ، والمضمون قد جاء ليتناسب مع حاجة الناس ومستوىٰ الحياة علىٰ طول الزمن الممتد إلىٰ يوم القيامة . . !

---

(١٤) ـ الآية ١ سورة هود .

آيـات يجد فيهـا المجتمـع الإنسـاني الكبـير جيـلاً بعـد جيل منهج حياة هو الكامل الفريد المتضمن تبياناً لكل شيء . . !

والمـرء العـالم القـح عنـدمـا يمعن النظر في الآيات التي وردت فيها إشارات كونية ووصف عرضي لأحوال علمية ينبهر كل الإنبهار عندما يجد التعبير القرآني مراعياً لأدق المستجدات المتكشفة للناس بعد مضي أكثر من عشرة قرون على التنزيل الحكيم . . !

القــرآن محكم الآيـات بلا أدنى شك ، ولـولم يكن هذا الإحكـام بشكـل خارج عن قدرة البشر ومن اختصاص رباني واضح لما بقي هذا الكتاب العزيز محتفظاً بشدة احترام الطبقات الرفيعة المستوى من الناس طوال قرون عديدة يغتنون بكنوزه ويتعبدون ربهم بتلاوته ويقفون امتثالاً لكل أمرٍ ونهي فيه . . !

آيات بينات

يقول تعالى «**بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون**»(١٥) .

بينات لا إشكال فيها ولا غموض ، لمن . . ؟

لأولي العلم . . !

يؤمنون بها في صدورهم حيث موضع القلوب . . !

لماذا لم تذكر هنا العقول . . ؟

لأن الإيـمان القلبي يكـون عادة يقينيـاً محسـوم المعنى والنتيجـة والوزن فلا يتزعزع بسهولة كما لو كان عقلياً فحسب . . !

---

(١٥) ـ الآيـة ٤٨ سورة العنكبوت .

ومـا دام القـرآن خطـابـاً «لقـوم يعقلون» و «لقـوم يتفكرون» و «لقوم يعلمون» و «لقوم يذكرون» و «لقوم يؤمنون»(١٦) و «لقوم يوقنـون»(١٧) لا بد إذن لذوي الألبـاب من العلماء المتفكـرين بحـرص واهتـمام وصدق أن يجدوا في آياته سطوع الحق فيستمسكوا بهداه . . !

أمـا من لم يؤمن بهذه الآيـات وهي بينـات فيكون جاحداً لأنه غير منصف ينكر فضل الأشياء وهو يراه ضخماً بوضوح فيظلم نفسه بصرفها عن وجهة الحق والخير والهدىٰ تلقاء الباطل والشر والضلال ، ويظلم سواه بغمط قيمته . !

فيه من كل مثل

يقـول تعـالىٰ «ولقـد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون»(١٨) .

فيـه أمثـال للنـاس مما لاغنىٰ عنـه في عقيدتهم بل في وجودهم كله(١٩) . . أمثال من طراز عالٍ في الشكل والمضمون والآفاق والتشبيه والتطابق والدلائل والتأثير وتحصيل المقاصد وبلوغ الغاية . . !

فهل تلقوها بوعي واستوعبوها بدقة وتذكروا الحق وعملوا بمقتضياته . . ! ؟

هل تذكـروا بهذه الأمثـال صنيـع الله تعـالىٰ من حولهم في النـاس والحيـاة والكون والتفاصيل الدقيقة . . ! ؟

---

(١٦) - يريدون الإيمان فعلاً ويحرصون عليه .

(١٧) - ينشدون اليقين حقيقة لا ادعاء .

(١٨) - الآيـة ٢٧ سـورة الزمر .

(١٩) - ينظر (الصورة الفنية في المثل القرآني) للدكتور محمد حسين الصغير .

هل تذكـروا عظمـة الخـالق سبحـانه وهم يرون التلازم الوثيق بين الأمثال القرآنية وشتىٰ مخلوقات الوجود . . ! ؟

أمثال لم تفقد ذرة من أهميتها ، بل إن تأثيرها يتزايد مع اطراد الزمن . . !
ضربت للبشر كلهم علىٰ ما بينهم من فروق في العصور والأمكنة وأشكال الحضارة وبقيت تؤدي وظائفها بقوة وعمق واعجاز . . !

ومن هم المتأثرون بهذه الأمثال . . ؟

إنهم أولـو الألبـاب العلماء المتفكـرون أولئـك الباحثون عن الحقيقة بصدق ودون كلل فهي ضالتهم يلتقطونها أنىٰ وجدوها ولا يهمهم من أي وعاء خرجت . . !

وهكذا هم منصفو الأمثال القرآنية علىٰ امتداد القرون الماضية قدماً إلىٰ يوم القيامة . . !

ضالة المؤمنين

يقـول تعـالىٰ «**يـا أيهـا النـاس قد جاءتكم موعظـة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدىٰ ورحمة للمؤمنين**»(٢٠) .

فالقرآن هو الضالة التي ينشدها كل حريص علىٰ الإيمان بشكل جاد ، لماذا . . ؟

لأنه يتضمن موعظة تهفو إليها القلوب ، ممن . . ؟

«من ربكم» . . !

فإذا كانت المـوعظـة من رب هو الله تعـالىٰ أفـلا تقـع علىٰ قلب كل ناشد للحقيقـة بأخـلاص فتـزيـح عنـه كابوس الموت وتنفخ في جنباته روحاً تحيله إلىٰ كائن إنساني فريد . . ! ؟

---

(٢٠) - الآيـة ٥٧ سـورة يونس .

بلىٰ والله . . !

«وشفاء لما في الصدور» . . القلوب الضالة ترهقها الحيرة والقلق وتعاني اضطراب السبل والمناهج وتكابد مرارة اليأس والضياع حتىٰ إذا وقعت عليها الموعظة من ربها وجدت الشفاء يسري في خلاياها طارداً الأمراض ورواسبها والهموم وأوضارها . . !

وليس الشفاء وحده إنما «وهدىٰ ورحمة للمؤمنين» وما اعظمه من هدىٰ لا يتحسس قبساته جيداً أحد مثل امرئ ذاق مرارة الضلال التي طالما هم بتأثيرها أن ينتحر ضائقاً بحاله ذرعاً . . !

وما أطيبها من رحمة وأوسعها لا يعرف قدرها أحد مثل امرئ تعذب طويلاً بحرمان نفسه منها ثم أتيح له بعد الإيمان الصادق أن يناجي رب العالمين فيسعد في رحابه وقد كان كقش الطريق تذروه الرياح لا يجد حمىٰ يلوذ به . . !

حمل الأمانة

وإذا قرر إنسان اختيار عقيدة على أنها المثلى بعد طول تحرٍ وتمحيص ونزاهة فكيف ينظر إلى هذا المعتقد . . ؟

القرآن يعتبر مثل هذا المرء أميناً على أنفس وديعة في الوجود . . !

كيف يفهم القرآن الأمانة . . ؟

وأي تعامل يليق بها . . ؟

ثقل الأمانة

يقول تعالى «**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**»(١) .

---

(١) ـ الآية ٧٢ سورة الاحزاب .

أي ثقل هذا الذي لا تطيق حمله السماوات والأرض والجبال وهي مخلوقات هائلة الحجم . . ! ؟

إنه ثقل تكاليف الإختيار وتبعات الإرادة . . !

فالسماوات والأرض والجبال وما فيها من مخلوقات سوىٰ الإنسان فضلت أن تعرف ربها سبحانه وتعالىٰ وتنزل عند حكمه بلا إرادة منها وتبعات فهي تعمل دائبة في إطار القوانين التي سنها الخالق عز وجل لا تخرج عنها قيد أنملة . . !

هل رأينا الشمس مثلاً وهي بقدر حجم الأرض مليون مرة قد خرجت عن دائرة عملها . . ! ؟ كلا ، فهي منضبطة ولو أنها ابتعدت ليوم واحد عن الأرض مسافة أطول مما هي عليه لتجمد كوكبنا ومات معظم أحيائه وفي مقدمتها البشر ، وهي لو اقتربت نصف ساعة من الأرض بمسافة أقصر مما هي عليه لاحترق كوكبنا برمته وصار كتلة من نار . . !

أما الإنسان فاختار الإرادة وتبعتها في طريق معرفة الخالق عز وجل والإلتزام بتكاليفه . . يصف صاحب الظلال هذا الإنسان بأنه (الإنسان الذي يعرف الله بإدراكه وشعوره ، ويهتدي إلىٰ ناموسه بتدبره وبصره ويعمل وفق هذا الناموس بمحاولته وجهده ، ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه ومقاومة انحرافاته ونزعاته ومجاهدة ميوله وشهواته . . وهو في كل خطوة من هذه الخطوات مريد مدرك يختار طريقه وهو عارف إلىٰ أين يؤدي به هذا الطريق . . !)[2] .

أمانة استثقلت اضخم المخلوقات حملها وأشفقت منها فرست علىٰ الإنسان لأنه اختار أن يحملها . . أوليست هذه أكبر مخاطرة من مخلوق «كان ظلوماً» لنفسه عندما يفرط بالأمانة التي اختارها وهو يعرف مدىٰ ضخامتها ، وكان «جهولاً» لمدىٰ مسؤوليته إزاء احتمال تبعات الأمانة . . !

ولكن رغم ذلك فإن هذا المخلوق عندما يؤدي الأمانة بوعي وعزم ودأب فإنه يصل إلىٰ مقام فريد حيث يكون جديراً بالتميز علىٰ كثير من المخلوقات وجديراً

---

(٢) - ينظر (في ظلال القرآن) المجلد السادس ص ١٦٨ .

بشرف اسجاد الملائكة لآدم وبالتالي يكون أهلاً لجزاء عظيم يتناسب وحجم تلك الأمانة . . !

استعداد علمي

يقول تعالىٰ **«ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً»**(٣)

وإذا كان المرء قد اتبع أمثل منهج علمي لالتماس العقيدة حتىٰ قدر له أن يهتدي إليها فإن المطلوب منه بعد حمل الأمانة أن يحيط علماً بكل ما لا يسع المؤمن جهله من مفردات العقيدة ، إذ كيف يتسنىٰ له أداء الأمانة بحذافيرها وهو لا يعرف جيداً أوامر العقيدة ونواهيها . . ! ؟

والإنسان قادر علىٰ مطلب كهذا :

أولاً ـ لأن أوامر الإسلام ونواهيه لايكتنفها غموض وليست هي بعيدة عن تناول المريد .

ثانياً ـ لأن المكلف بحمل الأمانة مزود بأجهزة تحصيل علمي كالسمع والبصر والحواس الأخرىٰ والعقل والقلب تمكنه من العلم بتفاصيل الدين المتبع ، فلأجل أي غرض تستخدم هذه الأجهزة بشكل صحيح وفعال إن لم يستخدمها الإنسان في أداء أخطر وأثقل أمانة وضعت علىٰ عاتقه طوال الحياة واعطىٰ بذلك عهداً لفاطر السماوات والأرض . . ! ؟

ولا شك أن استعداده العلمي الجيد قبل اتباعه منهج التماس المعتقد وقبل الإيمان بالعقيدة المثلىٰ وحمل أمانتها يخفف عنه الكثير من اعباء البحث ويعينه علىٰ الاختيار الأصوب ويسهل له أداء المهام في هذا السبيل كله علىٰ بينة ودون التباس .

---

(٣) ـ الآية ٣٦ سورة الإسراء .

فما المقدار العلمي اللازم لذلك الإستعداد . . ؟

إنه القسط الذي يحسن به فهم المرء ويمكنه من جودة التفكير ويجعل تدبره لأشياء الكون متناسباً مع ما تتسم به عمق وشمول ودقة . . !

اتباع أحسن القول

يقول تعالىٰ «**والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلىٰ الله لهم البشرىٰ فبشر عباد . . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب**»(٤) .

الذين اجتنبوا الباطل كله عن علم ويقين وإرادة واختاروا الإستمساك بالحق الرباني وحمل أمانته لهم البشرىٰ من الله تعالىٰ ينقلها إليهم رسوله الكريم صلىٰ الله عليه وسلم ، فيالها من بشرىٰ . !

وما صفتهم التي يشاد بها في هذا المقام . . ؟

إنهم «يستمعون القول فيتبعون أحسنه» . . !

يعرض لهم الأمر فيأخذون أفضل ما فيه ويترفعون عما تبقىٰ منه ذلك أنه لا يليق بهم الاقتراب من السفاسف بعد أن تشرفوا باتصال قلوبهم بخالقها جل شأنه وحمل أخطر أمانة في الوجود . . !

«أولئك الذين هداهم الله» اطلع سبحانه علىٰ نواياهم الخيرة فزادهم هدىٰ . . وهل ثمة أهدىٰ من أناس اجتنبوا الباطل كله واختاروا الإستمساك بالحق الرباني حاملين أمانته باعتزاز وإخلاص وهمة تساق لهم البشرىٰ من الله تعالىٰ يبلغهم إياها المصطفىٰ ﷺ . . ! ؟

---

(٤) - الآية ١٨ سورة الزمر .

ثم من ذا يكون أهدىٰ ممن يستمع القول فيتبع أحسنه . . ! ؟

وقل لي بربك من هو أحرص علىٰ الأمانة وحسن أدائها من امرئ يستمع القول فيتبع أحسنه . . ! ؟

باعتبارات وقيم وخصال كهذه يؤدي المؤمن أمانته . . !

«وأولئك هم أولو الألباب» . . العقل السليم كان له دور واضح بلا شك في مسيرة كتلك ، وامرؤ لا يخدمه العقل في سلوك نهج كهذا فأي سلامة يمكن أن يدعيها لعقله . . ! ؟

منحرفو العقول يفاخرون زوراً بمستوىٰ عقولهم وما هم علىٰ شيء يستحق أدنىٰ مفاخرة . . !

والمؤمنون بعد اختيارهم العقيدة المثلىٰ يصفهم رب العالمين تبارك وتعالىٰ بأنهم «أولو الألباب» ويشيد بصفاتهم التي أهلتهم لهذا التكريم المسطر في كتابه الخالد القرآن وأبرز هذه الصفات أنهم «يستمعون القول فيتبعون أحسنه» . . !

فتأمل الفارق . . !

سماع النداء والإيمان

يقول تعالىٰ «**ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا**»(٥) .

إنها كلمات أولو الألباب أيضاً . . !

أنظر :

«**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً**

---

(٥) ـ الآية ١٩٣ سورة آل عمران .

وعلىٰ جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار . . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . . ربنا وآتنا ما وعدتنا علىٰ رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . . فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثىٰ»(٦) .

والذي يهمنا في هذا الموضع هو أنهم سمعوا النداء الداعي للإيمان الجدير بالإيمان فآمنوا دون تردد أو تقاعس أو جحود . . وبرهنوا بتصرفهم هذا أنهم أمناء مع أنفسهم في ارتياد أقوم السبل وأمناء علىٰ حصائل السمع والبصر والعقل والقلب وسائر الحواس والجوارح فأعطوها ما تستحقه من القدر والإهتمام والقيمة والإيمان والإلتزام والتطبيق والحماية . . !

نظروا في خلق السماوات والأرض وتفكروا فيه فآمنوا لأنهم أولو ألباب أولاً ولأنهم ثانياً أمناء في الحفاظ علىٰ ما يكتسبونه من حقائق . . !

بذور الأمانة لها جذور في حياتهم ولها تغلغل في نشأتهم ، وليس هذا بأمر غريب . . ! ألم يكون رسول الله ـ وهو القدوة ـ قبل أن يحمل أمانة الإسلام من ربه ليبلغها للناس مشهوراً بين قومه بالصدق والأمانة حتىٰ لقبوه الصادق الأمين وهو لم يبعث بعد . . ! ؟

هذا التمهيد ليس عفوياً في حياة حاملي الأمانة قبل حملها ، لأنهم يتأهلون بفضل هذا الطهر الذي نشأوا عليه لكي يتلقوا أثقل الأمانات وأخطرها برحابة صدر وابتهاج عميق ومن ثم يدأبون علىٰ أدائها بكل ما أوتوا من قوىٰ واستعداد . . !

---

(٦) ـ الآيات ١٩٠ ـ ١٩٥ سورة آل عمران .

وقد يعترض أحد على هذا التصور قائلاً :

إن لصوصاً وكذبة عديدين آمنوا بالإسلام وحملوا أمانته فحسن أمرهم من بعد رغم أن الجذور التي نشأوا عليها لم تكن طاهرة . . !

هذا صحيح . . !

ولكن ألا توافقني أن احساس هؤلاء العميق في قرارة أنفسهم أثناء نهجهم المشين بأنهم خاطئون قام بدور فعال في عملية التغيير عندما بلغ ذلك الاحساس قمته فيما بعد . . ! ؟

كيف لا . . !

ولذا فإن احساسهم بإدانة أنفسهم اثناء ارتكاب الأفعال الخاطئة لهو الطهر غير المنظور وإن كانت أيديهم ملوثة بالخطايا ومخازيهم تملأ الآفاق . . !

هؤلاء إن اشتهروا قبل الإيمان بكونهم لصوصاً وكذبة وفاسدين أو اشتهروا بنقيض هذه الصفات فهو مما يعينهم هم فقط ، أما شهرة الرسول - ﷺ - قبل البعثة بكونه الصادق الأمين فهي من لوازم الرسالة التي يبلغها للناس عن الله تعالى . . !

وإجمالاً فإن بذور الأمانة قد غرست في الإنسان منذ أن كان خلقاً في صلب آدم «**وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**»(٧) .

ولو لم يكن هذا المخلوق مستطيعاً الأمانة كيف إذن يكلفه الخالق عزوجل بأخطر الأمانات وأثقلها وهو لما يزل خلية في ظهر أبيه الأول لم ير الحياة بعد . . ! ؟

ولذا فإن تلوث يد إنسان وسلوكه بأفعال مشينة كالكذب والخيانة والفساد هو عارض يمكن التطهر منه وليس هو جوهرياً في التكوين الإنساني . . ففطرة الإنسان تبقى بدون تغيير هي هي كما خلقها الله تعالى وغاية ما يحصل هو أن تغطى الفطرة بتراب الأباطيل لدى إنسان لبعض الوقت أو أن تتجلى ناصعة كالبياض الشديد في وقت آخر . . !

---

(٧) - الآية ١٧٢ سورة الأعراف .

أما أن يصر إنسان علىٰ دفن فطرته تحت ركام الأباطيل الثقيلة طوال حياته فهو ذلك الذي سحب الله تعالىٰ منه شرف الإنسانية وترك ينحدر إلىٰ درك وضيع **«كالأنعام بل هم أضل»**[٨] . . !

هذا هو شأن المفرط بأداء الأمانة ناقض العهد الذي أبرمه نحو الخالق سبحانه في اللحظات الأولىٰ للوجود الإنساني عندما كان ابناء آدم برمتهم خلايا في ظهر أبيهم عليه السلام . . !

ومن هو أضل من الأنعام . . ؟

إنه الحجر ، مثلاً . . !

ولكن حتىٰ الحجر يكون أهدىٰ وأشرف من أولئك ناقضي تعهدهم لله تعالىٰ لأنه لا يحرك يداً بالعدوان ولم يؤت فطرة كالإنسان وأجهزة بها يسمع ويبصر ويعقل ويؤمن فعطلها عن ابتغاء الخير ومحاسن الأفعال . . !

بل لو أنك وضعت الحجر في أساس يقوم عليه بيت كبير لحافظ علىٰ أمانة ما وضع له رغم أنه لا يعقل فلا يتمرد وينقلع من موضعه إلا إذا أريد به ذلك . . !

علماء منصفون

يقول تعالىٰ **«ويرىٰ الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلىٰ صراط العزيز الحميد»**[٩] .

شهادة كبرىٰ لحق أعظم . . !

لماذا . . ؟

---

(٨) - الآية ١٧٩ سورة الأعراف .

(٩) - الآية ٦ سورة سبأ .

لأنهم علماء من ذوي الإنصاف والأمانة . . !

أبت عليهم هذه الخصال إلا أن يقولوا الحقيقة ، وأبت عليهم إلا أن يتمسكوا بذلك الحق ، وإلا كيف يصفونه هادياً الىٰ صراط العزيز الحميد وهم في بعد عنه . . ! ؟

فماذا بعد الحق إلا الضلال . . ! ؟

وما قيمة السبل الأخرىٰ قياساً إلىٰ صراط الله الموصوف بالعز والتمكن واستحقاق الحمد والثناء . . ! ؟

لا بد أنهم من أهل هذا الصراط استكمالاً لأداء الأمانة . . !

عرفوا الحق بعلمهم . .

وشهدوا له مكبرين إنصافاً . .

ونعتوه بما يستحق أمانة . .

ثم استمسكوا به إبراء للذمة . .

وأحسنوا في شأنهم كله مع الحق . .

إنها الأمانة تؤدىٰ باخلاص علىٰ أجمع ما تكون . . !

ولو لم يكن حالهم هكذا نحو الحق لما أثنىٰ الله تعالىٰ عليهم بتلك الكلمات القرآنية إكباراً لموقفهم . . !

ومن لم يكن هذا موقفه من الحق فخير له أن لا يدعي ميزة العلم وبصائره . . !

الراسخون في العلم

يقول تعالىٰ **«والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب»**(١٠) .

---

(١٠) - الآية ٧ سورة آل عمران .

أي سعــة في هذا العلم وأي عمق وأي صحــة وأي صفــاء حتىٰ جعــل أصحـابـه يوصفون بالرسوخ في العلم . . ! ؟ ومن يصفهم بذلك . . ؟ الله تعالىٰ خالق العلم ورب العلماء . . !

هؤلاء آمنوا برسالة القرآن وحملوا بوعي أمانتها . . يرون البعض يختلف في بضع آيات لقصور في علمه ونقص في فهمه وضيق في أفقه فماذا يقولون . . ؟ «آمنا به كل من عنـد ربنـا» . . نحن آمنـا الإيـمان الكـامـل بالقرآن ، أوليس هو من عند الله خالقنـا العليم الخبـير . . ! ؟ فعـلام نختلف إذن وهـو تبارك وتعالىٰ اعرف بما يريد وأحكم . . ! ؟

إيه . . !

فارق هائل بين منطق امرئ علم نصف شيء وغابت عنه أشياء وبين منطق امـرئ راسخ في العلم يعرف حدوده جيداً ويعرف المعاني الحقيقية للإيمان بخالق هذا الكون العظيم جل جلاله . . !

ومن ثم إنه تصرف حسن إزاء الأمانة التي حملوها . . اقتنعوا بشكل تام أن الله تعالىٰ حق وكلامه المجيد في القرآن حق وحملوا أمانة ذلك فما بقي إلا الأداء وعلىٰ أحسن الوجوه . . !

أمـا الإختـلاف بعـد حمل الأمانة والاعتراض علىٰ بعض نصوصها بشكل مباشر أو غير مباشر فهو سخف وجهالة لا ينبغيان لعالم راسخ في العلم وإنما يقع فيهما أولئك غير الـراسخـين يتـزعزع فهمهم ويختل استنباطهم وتضطرب الصورة أمامهم فماذا يفعلون . . ؟ لا يتهمون أنفسهم بشيء رغم أنهم بما يعانون اعرف وأبصر وإنما يتهمون . . من ؟ كلام الله تعالىٰ المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . !

حالات من هذا القبيل كثيرة نراها كل يوم . . . !

«وما يذكر إلا أولو الألباب» . . !

يتذكرون تلك الحقائق بلا نسيان ، وهي :

أنهم آمنوا بالحق . .

وهو من عند الله تعالىٰ . .

وحملوا أمانته . .

هذا التـذكـر الـدائم يصـدر من أولي الألبـاب وحـدهم فيكون لهم حصناً يحميهم من التخبط الذي يقع فيه المهزوزون سخفاً وجهالة . . !

* * *

تلك هي مستلزمات الأمانة وحملها في المفهوم القرآني ، وتلك هي أوصاف الأمناء كما نعتهم بها الخالق جل شأنه . . !

الإلتزام الكلي

وأخيراً . . كيف يكون الإلتزام بالعقيدة المثلىٰ . . ؟

نعـرض هذا السـؤال علىٰ القـرآن أيضـاً ونلتمس فيه الجواب لأننا اتخذناه نموذجاً في بحثنا كله .

يقـول تعـالىٰ **«ومن أحسن قولاً ممن دعـا إلىٰ الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين»**(١) .

ماذا في الايـة . . ؟

أولاً ـ الإسلام . . ويعني حمل الأمانة

ثانياً ـ تطبيقه بالعمل الصالح .

ثالثاً ـ دعوة الناس إلىٰ الله تعالىٰ .

هذا هو الإلتزام الكلي بالعقيدة المثلىٰ كما يريده القرآن الكريم ممن اختاروها أمانة يؤدونها في حياتهم تجاه ربهم سبحانه ، فمن ذا أحسن منهم منهجاً . . ! ؟

---

(١) ـ الآيـة ٣٣ سـورة فصلت .

ويلاحظ في الآيـة أن تسلسل البنود الثلاثة فيها ورد حسب أهمية كل بند في المنظور الرباني :

فدعـوة النـاس إلىٰ الله تعالىٰ اعتبرت القمة ولذلك وردت في المقدمة ومن ثـم ذكـر العمـل الصـالـح وكأنـه رباط العقد حيث جاء في الوسط وأخيراً سيق اعلان الإسلام ووضع في مؤخرة الهرم وكأنه الأساس الذي يرتفع عليه ذلك الطود الشامخ . . !

اعجاز عجيب في التعبير ، أليس كذلك . . ! ؟

لأن الله تعالىٰ المحيط بكل شيء هو المتحدث . . !

* * *

آية كلماتها معدودة أحاطت بالأمر كله . . !

أو تعجب . . ! ؟

إنهـا قدرة فاطـر السـماوات والأرض يقول للشيء كن فإذا هو كائن كما أراد بالضبط كاملاً علىٰ أحسن الوجوه أينما كان موضعه في كون لا ندرك له مبتدأ ولا منتهىٰ . . !

تباركت ياذا الجلال والإكرام . . !

ختام

ذلكم هو منهج الخالق في التماس العقيدة المثلىٰ . . فماذا تساوي إزاءه أباطيل المخلوقين وضلالاتهم . . ! ؟ «وما قدروا الله حق قدره»[1] «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون»[2] «رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلىٰ والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين»[3] . . فلك اللهم الحمد والشكر والثناء كما يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك دواماً ، وصل وسلم وبارك علىٰ سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلىٰ جميع من والاه الأولين منهم والآخرين أبداً .

---

(١) ـ الآية ٦٧ سورة الزمر .

(٢) ـ الآية ٤٣ سورة العنكبوت .

(٣) ـ الآية ١٥ سورة الاحقاف .

مصادر الكتاب

١ - القرآن الكريم .
٢ - (تفسير القرآن العظيم) لعماد الدين اسماعيل بن كثير القرشي، الطبعة الأولىٰ بمطبعة المنار المصرية .
٣ - (كلمات القرآن تفسير وبيان) للشيخ حسنين محمد مخلوف الناشر مكتبة البابي الحلبي المصرية .
٤ - (في ظلال القرآن) لسيد قطب الطبعة السابعة لدار إحياء التراث العربي اللبنانية .
٥ - (تفسير المؤمنين) لعبد الودود يوسف نشر دار الرشيد في دمشق وبيروت .
٦ - (تفصيل آيات القرآن الحكيم) وضعه بالفرنسية جول لابوم ونقله الىٰ العربية محمد فؤاد عبد الباقي الطبعة الثانية عام ١٩٥٥ الناشر دار إحياء الكتب العربية في القاهرة .
٧ - (فتح الرحمان لطالب آيات القرآن) لفيض الله الحسني الناشر دار التعاون في مكة المكرمة عام ١٣٢٣ هـ .
٨ - (أحكام القرآن) لأبي بكر الجصاص نشر دار الكتاب العربي في بيروت .
٩ - (الأصول) لأبي بكر السرخسي نشر دار المعرفة للطباعة والنشر في بيروت .

١٠ - (الصورة الفنية في المثل القرآني) للدكتور محمد حسين الصغير نشر دار الرشيد في بغداد عام ١٩٨١
١١ - (صحيح البخاري) الناشر مطابع الشعب المصرية عام ١٣٧٨ هـ .
١٢ - (صحيح مسلم) الناشر دار إحياء التراث العربي .
١٣ - (السيرة النبوية) لإبن هشام الطبعة الثانية عام ١٩٥٥ لمكتبة مصطفى البابي الحلبي المصرية .
١٤ - (فقه السيرة) لمحمد الغزالي الطبعة الرابعة عام ١٩٦٤ لدار الكتب الحديثة في القاهرة .
١٥ - (الوجيز في أصول الفقه) للدكتور عبد الكريم زيدان الطبعة الرابعة عام ١٩٧٠ مطبعة العاني في بغداد .
١٦ - (الإيمان والحياة) للدكتور يوسف القرضاوي الطبعة الرابعة عام ١٩٧٩ لمؤسسة الرسالة في بيروت .
١٧ - (الطب محراب الإيمان) للدكتور خالص جلبي نشر دار الكتب العربية في بيروت .
١٨ - (الله يتجلىٰ في عصر العلم) لجون كلوفر مونسما ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان الطبعة الثالثة لمؤسسة الحلبي في القاهرة .
١٩ - (مع الله في السماء) للدكتور احمد زكي نشر دار الهلال المصرية .
٢٠ - (الكون الأحدب) للدكتور عبد الرحيم بدر الطبعة الثالثة عام ١٩٨٠ لدار القلم في بيروت ومكتبة النهضة في بغداد .
٢١ - (مختار الصحاح) لمحمد بن أبي بكر الرازي نشر دار الرسالة في الكويت عام ١٩٨٣ .
٢٢ - مصادر أخرىٰ لم نستشهد بنصوصها كان لها فضل علىٰ الإطار العام للكتاب .

فهـــرس

تصويب الخطأ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٣	١٦	الأوليين	الأولين
٣٤	١٥	فليتاث	فيلتاث
٣٩	٥	الرقيق	الدقيق
٤١	١١	الإهداء	الإهتداء
٤٣	١٠	ألسيء	ألسيئ
٤٦	٣	ااستخدمان	استخدامان
٤٨	١٧	ادراكها	إدراكها
٥٠	٩	يمحني	يمكني
٥١	١٣	نصعها	نصنعها
٥٦	٦	خبيراً	خبير
٦١	٥	أتلوا	أتلو
٦٦	١٨	يحي	يحيي
٦٧	٢٢	المحي	المحيي
٧٥	١٠	وتستبعد	وتستعبد
٧٩	٩	إنقياد	الإنقياد
٩٧	الأخير	تباعتها	تبعتها
١٠١	١٢	والسيء	والسيئ
١١٠	١٤	غير واضح	لمطامع إنسان
١١٤	٢٠	يتلقى	ويتلقى
١٢٠	١٨	سيء	سيئ
١٣٨	١٥	وجهتم	وجهتهم
١٤٧	الاول ـ هامش	ججرها	جحرها
١٥٣	١٧	الواقعي	الواقي
١٦٥	٧	نفسية	نفيسة
١٨٥	٦	قابل	شيء قابل
١٨٩	٣	لرؤ ف	لرؤوف
٢٠١	٣	بإحالة	بإجالة
٢٠٤	١٥	أكثر	أكثرنا

٢٠٦	١٤	بتناول	يتناول
٢١٨	٣	عمق	من عمق
٢٢٠	١٧	يكون	يكن
٢٢١	١٢	يعينهم	يعنيهم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٦٠٣ لسنة ١٩٨٤